أرض الميعاد

تأليف
الدكتور حسين فوزي النجار

تقديم
الفريق ا.ح محمد ابراهيم

الطبعة الأولى
١٩٥٩

الناشر
مكتبة الأنجلو المصرية

أرض الميعاد

دراسة علمية للوعد الالهى لبنى اسرائيل
بأرض الميعاد على ضوء الكتب السماوية

للمؤلف

١ ـ السياسة والاستراتيجية فى الشرق الاوسط ـ الجزء الأول
مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٣

٢ ـ مع الأحداث فى الشرق الاوسط ـ ١٩٤٦ ـ ١٩٥٦
مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٥٧

٣ ـ ثورة فى التعليم . . . .
مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨

٤ ـ أرض الميعاد . . . .
مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٩

يظهر تباعا

١ ــ السياسة والاستراتيجية فى الشرق الاوسط :
الحرب العالمية الثانية ــ الجزء الثانى

٢ ــ استراتيجية البترول فى الشرق الاوسط

٣ ــ فى أرض كولمب : جولة فى أمريكا

٤ ــ المورمون ــ ديانة وشعب

٥ ــ أزمة العصر

٦ ــ مصر فى مطلع القرن العشرين : الجريدة وحزب الأمة

٧ ــ وجرى التاريخ فى مصر

٨ ــ بريطانيا والمحميات

فهرس

إهداء

إلى الأخ والصديق والأستاذ

السيد الفريق ا . ح محمد إبراهيم

ذكرى سنوات خدمت معه وتتلمذت عليه

فكانت أطيب سني العمر

المؤلف

تقديم

بقلم

الفريق أ.ح محمد ابراهيم

وزير الدولة للشئون الحربية

قدم الى الدكتور حسين فوزى النجار ــ مشكورا ــ مؤلفه هذا الذى كرمنى باهدائه الى ، وقد اعتدت أن أتلقى منه مؤلفاته العسكرية والتاريخية التى كانت خير وسيلة لى للقراءة والاطلاع عندما كان يعز على اشباع رغبتى لضيق الوقت .

وانى أعرف الدكتور حسين فوزى النجار ، منذ عمل معى أستاذا للتاريخ بالكلية الحربية ، باحثا مدققا ، يقبل على البحث والمعرفة ويطيل النظر والتأمل حتى تتكشف له الحقيقة ، لذلك كانت كتبه بحوثا جديدة لم يطرقها باحث من قبل .

ويسرنى أن أقدم لكتابه هذا ــ أرض الميعاد ــ فقد طرق به موضوعا لم يطرقه على ما أعلم أحد من قبل ، وطالما وددت وألححت على الكثيرين أن يطرقوه ، فهو موضوع اليوم بالنسبة

للعالم العربى ، فقضية فلسطين هى قضية كل عربى ، هى كفاح بيننا نحن العرب وبين جماعة من شذاذ الأفاق دعوا أنفسهم بالصهيونيين ، وهى صراع علينا أن نخوضه بمثلنا وأعرافنا وتقاليدنا وتراثنا الزاخر بالكرامة والمروءة وبين تراثهم الملىء بالترات والحقد والأنانية والكراهية التى عرفت عن اليهود للإنسانية منذ القدم . هى كفاح القومية العربية للصهيونية العالمية . ذلك الكفاح الذى اختلف مسرحه باختلاف الأزمان والأوقات ، فهو تارة فوق أرض فلسطين العزيزة فى شكل قتال بين العرب والعصابات الصهيونية ، وتارة فوق سيناء وعلى ضفاف القناة فى شكل العدوان الثلاثى الغادر ، وثالثة فى ميادين السياسة سواء فى الجمعية العامة للأمم المتحدة أو فى مجلس الأمن .

وللصهيونية فى هذا الصراع سبل شتى وأساليب عديدة ، فهى تارة علنية سافرة وأخرى خفية مستترة الا أنها فى كلا الحالين تقوم على خطط مدروسة ببحث وعمق وترو ، تنفذها هيئات صهيونية تعلن عن أغراضها فى القليل النادر ، وفى الأغلب الأعم تضطلع بها جمعيات أو جماعات تبدو فى ظاهرها أبعد ما تكون عن الحركة الصهيونية ولكنها فى واقعها وأهدافها صهيونية الميول والدوافع .

وكثيرا ما تتصل تلك الجمعيات أو الجماعات بحركات وطنية

أو قومية أو استقلالية لتسخرها لنفسها فى النهاية فهى لا تبغى من الاتصال بها غير اثارة الشك وبث الوقيعة وبذر الفتنة وهدم القيم الاخلاقية فى الأمم التى تخشى منها على وجودها وكيانها ، بل أن هذه الجمعيات والجماعات كثيرا ما تعمد الى خلق نوع من الطابور الخامس يؤيد الصهيونية وأهدافهافى الدول المختلفة، ويحمل على القومية العربية ويدس لزعمائها وقادتها .

وقد أسعدنى الحظ أن اكون أحد خدام القضية العربية عندما وليت منصب الأمين العام المساعد العسكرى لجامعة الدول العربية ، ولمست وسائل الصهيونية وألاعيبها الشيطانية ومتاعب الخطط العربية لمكافحتها ، حتى قيض الله العلى القدير للعروبة حاميها وناصرها ، زعيمنا ورئيسنا وقائدنا جمال عبد الناصر ، فغدت القومية العربية حقيقة ملموسة وقوة فعالة يحسب حسابها فى كل مجال ، وأصبحت تحت راية رائدها تضطلع بالدور الرئيسى فى كفاح الصهيونية العالمية .

وكفاحنا للصهيونية متعدد الجوانب كما هو متعدد الميادين ، وقد رأينا كيف دارت المعركة بيننا وبينها فى ميادين مختلفة ، فهو كفاح فكرى يتخذ العلم وسيلة لغاية ، وهو كفاح دعائى يسلك كل سبل الدعاية من صحافة واذاعة وخطابة وندوات ومؤتمرات ، وهو كفاح نفسى ، يقوم الاستهواء واستثارة العواطف فيه بدور بارز .

وكتاب الدكتور النجار ــ أرض الميعاد ــ من هذا الطراز من الكفاح الفكرى ، فانه يعرض لأخطر جانب من جوانب الحركة الصهيونية وهو الجانب الدينى فيثبت بما لا يدع مجالا للشك خطأ ذلك الوهم الكبير الذى أوغل به اليهـود فى نفوس البشر من أهل الكتاب فاسترقهم وعاشوا عبيدا لخرافة كبرى وهى أن فلسطين هى أرض اليهود الموعودة وان اليهود هم شـعب الله المميز ، بما عاهد الله ابراهيم عليه ، ويبرز كيف أوغل اليهـود طوال تاريخهم فى ادعاء فلسطين ادعاء يضـفون عليه من القداسة ما يرونه لابراهيم من قداسـة فى الأديان السـماوية فيغـررون بالناس ويغرقونهم فى الوهم الذى يكشف عنه الدكتور النجار فى كتابه هذا حين يرد الحقائق الى أصولها التاريخية والدينيـة ويثبت ضلال اليهود وزيفهم وخداعهم حين احتكروا لأنفسـهم كل ارث ابراهيم وأنكروا أنهم أصبحوا شر أبناء ابراهيم بعد ما رماهم الله بالعذاب والتشريد وجعلهم سخرية الشـعوب فحقت عليهم اللعنة التى وعدهم بها رب ابراهيم اذا ما خالفوا وصـاياه وضلوا شريعته •

وقد عشت فى تلك الأجواء التاريخية البعيـدة التى أثارها الدكتور النجار فى كتابه منذ عصر ابراهيم عليه السلام حتى اليوم وتجلت لى من خلال هذا التـاريخ البعيد خطط الصـهيونية الحاضرة ، فان اليهود لم يتغيروا كثيرا بل انهم يعيدون الأدوار

التى لعبها من قبل آباؤهم وأجدادهم ، لذلك كانت الصهيونية فى واقعها الحاضر ، قصة الماضى من تاريخ اليهود ، حين تعيد فصول التاريخ وتكررها فى مختلف العصور بثوب جديد يتمشى مع ظروف كل عصر ولكن المبادىء هى هى لا تتغير والأساليب هى هى لا تتبدل ، والاكاذيب هى هى لا تتجدد ، وعلى ذلك فلن نجد صعوبة فى التعرف على خطط الصهيونية المستقبلة بالكشف عن خطط كفاحها السرى والعلنى معا .

ونحن الآن فى موقف الطبيب الذى يفحص العلة ويتقصى الداء حتى يصف العلاج الناجع والشفاء العاجل ، وهذا الكتاب ــ أرض الميعاد ــ أشبه ما يكون بمعمل التحليل أو جهاز الأشعة الذى يكشف به الطبيب عن مواطن الداء فيسهل عليه تشخيص المرض ووصف العلاج . فقد كشف عن أكاذيب الصهيونية ودحض تلك الخرافة التى أثارها اليهود وجمعوا المخدوعين حولها ودعوها أرض الميعاد ، وبين كيف كان الاسرائيلى فى ماضيه كما هو فى حاضره خائن غادر نهاز للفرص يستخدم أحط الاسلحة وأحقرها ولا يتورع عن استخدام الذهب والنساء والخداع والختل والخيانة لتحقيق غرضه ، بما لا يدع مجالا للاطمئنان اليه فقد آوينا يوسف عليه السلام رقيقا ورفعناه الى أكبر المناصب وفتحنا بلادنا لليهود ليغترفوا من خيراتها فماذا كانت نتيجة البر والمعروف ، الا نكران

البر والمعروف ، حتى أنهم لم يتورعوا عند خروجهم من مصر مع موسى عليه السلام عن سلب أمتعة المصريين وذهبهم ، وقد أبرز الكتاب الشيء الكثير من أخلاقهم وسلوكهم بما لا يدع زيادة لمستزيد أو يحتاج فى دقته الى تدليل أو تمحيص •

وتاريخ الصهيونية حافل بالغدر والخيانة ، وقد تعجب اذ تراها تناصر كل حركة تقدمية ولكنها فى الواقع تتطفل عليها لتوجهها لمصلحتها وتستغلها لفائدتها فاذا استعصت عليها انقلبت ضدها فهى التى ناصرت البروتستانتية فى ألمانيا ثم انقلبت على ألمانيا وغدرت بهتلر كما غدرت من قبله بالقيصر ولهلم الثانى ، وهى التى آزرت الشيوعية وأيدتها لتستغلها فى تحطيم الاديان وليكون لها من الدول الشيوعية سندا ونصيرا كما حدث حين سلح الشيوعيون العصابات الاسرائيلية خلال الجولة الأولى لحرب فلسطين عام ١٩٤٨ •

وهى التى تغلغلت فى الأحزاب الانجليزية وسيطرت على المصارف العالمية واستغلت حاجة الحلفاء الى المال اليهودى لتحتل على وعد بلفور • وحين أخطأ الامريكيون من قبل وسمحوا لليهود بالهجرة الى بلادهم وأفسحوا لهم من ميادين العمل والمساواة ، تغلغل اليهود فى بلادهم وتسربوا اليها فى أفواج منظمة وسرعان ما سيطروا وهم فئة قليلة على اقتصادياتها

وألوان نشاطها المختلفة وسخروها لخدمة الصهيونية وخلق اسرائيل ومؤازرتها فى كل مجال دولى .

ان اسرائيل تنفذ خطتها التقليدية القديمة وكما عادت من بابل فى شكل زحف عسكرى منظم نراها تعود اليوم الى فلسطين قوة عسكرية تقوم على العنف والارهاب والقتل والاغتصاب .

وكما عاد اليهود من السبى البابل بعد الحروب التى انتصر فيها حليفهم كورش ملك الفرس على أعدائه فى حمى الحراب الفارسية ، نراهم اليوم وبعد ثلاثين قرنا يعودون فى حمى حراب الحلفاء قوة عسكرية تدربت فى شتى ميادين القتال التى خاضها الحلفاء بجيوشهم فى الحربين العالميتين الأولى والثانية . كل هذا ودافع اليهودى هو تلك الخرافة الدينية التى علقت بذهنه وكانت سر نكبته وستكون بعينها القاضية عليه الآن فلم يعد هناك مجال لقيام دولة تقوم على التعصب الدينى والعنصرى .

وكما كانت نهاية مملكة اسرائيل القديمة فستكون نهاية اسرائيل الجديدة الدمار والتشرد ، ولن تقوم لاسرائيل قائمة فهذا وعد الله الحق ألا تكون لهم دولة جزاء ضلالهم وخروجهم على طاعته ، واذا كان القدر قد قيض للعرب زعيما ينادى بالقومية العربية ، فان بعث هذه الدعوة فى ذلك الوقت بالذات يبدو كأنه دعاء القدر حتى لا تقوم اسرائيل ولا تحقق أحلامها الخبيثة بفضل اتحادنا وتضامننا وقوتنا الجديدة .

الا أن علينا نحن العرب ونحن نرى الصهيونية تعمل جاهدة لبناء اسرائيل وفق خطط مدروسة وتستند الى وسائل تتغلغل فى شتى المجالات العسكرية والسياسية والاقتصادية والفكرية ، علينا نحن العرب أن نوحد جهودنا لخدمة القومية العربية ملتفين حول جمهوريتنا الفتية وزعيمها الكبير .

وانى لأشكر الدكتور حسين فوزى النجار الذى نحا هذا النحو الفريد فى الكشف عن خرافة استبدت ببعض الأفكار زمنا والكشف بذلك عن أكاذيب اسرائيل وخططها وأساليبها التقليدية ، وادعو الله أن يكثر من أمثاله وأن يديم عليه التوفيق والسداد فى خدمة العروبة .

فريق ا٠ح

محمد ابراهيم

وزير الدولة للشئون الحربية

مقدمة

قامت الحركة الصهيونية على عقيدة حاولت أن ترقى بها الى ذروة الحقيقية من عقائد الأديان السماوية مسيحية أو اسلامية بله اليهودية ذاتها وهى أن فلسطين وما حولها من أرض تمتد من « نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات »(١) هى أرض الميعاد وعد الرب بها شعبه المختار من بنى اسرائيل لتكون لهم ملكا ووطننا . فايمان المسيحية والاسلام باليهودية وأنبيائها يحمل المسيحيين والمسلمين على الايمان بالتوراة والا اتهم ايمانهم وداخل قلوبهم الزيغ فى دينهم ، وان قال المسيحيون والمسلمون بتفسير للتوراة يجب تفسير اليهود لها فان ايمان كل منهما بجوهر دينه ، ايمانه بجوهر اليهودية ذاتها يحمل كلا منهما ذودا عن تفسيره ما يؤكد ايمانه ويؤيد جوهر عقيدته ، حتى لا يتهم فى ايمانه أو يتزعزع وجدانه الدينى .

واليهود وان كانوا لا يؤمنون بالمسيحية ولا بالاسلام الا أنهم

---

(١) تكوين ١٥ : ١٨ .

يرون فى ايمان المسيحيين والمسلمين باليهــودية ما يمكن أن يؤيد دعواهم فى أرض الميعاد ، فيلحون فى تفسير التوراة على هواهم ويتطرقون بتفسيرهم الى جوهر المسيحية والاسلام علهم يجدون من المؤمنين بهما ردفا وسندا •

وسواء آمن اليهود بتفسيرهم هذا أم اتخــذوه وسيلة لدعم عقيدتهم المبتغاة ، وانعاش آمالهم القومية فى أرض الميعاد ، فقــد أصبحت هذه االعقيدة هدى الصهيونية ونبراسها تجمع حولها اليهود وغير اليهود من أصحاب الديانات السماوية ليؤمنوا بهــا ايمانهم بتعاليم دينهم والا مس الزيغ قلوبهم ان لم يؤمنوا بحقيقة من حقائق دينهم ، الا أن الصهيونية قد بنت عقيدتها على تفسير خاطىء لآيات الكتاب المقدس وتخريج باطل لنصوصه حتى غدا اليهود أنفسهم ضحايا هذا الوهم المقدس •

ولسنا فى مجال مناقشة ما تضفيه التوراة من قداسة على بقعة من بقاع فلسطين أو على فلسطين جميعا وما حواليها فهى أرض الأنبيــاء والرسل ما فى ذلك مراء وهى منتجع الناصرى ومثواه ومهبط رســالته وهى القبــلة الأولى للمسلمين وأرض الاسراء والمعراج فيها كنيسة القيامة والمسجد الأقصى وهى الارض التى قدستها الاديان السماوية جمعاء •

ولكننا نناقش مدى الأثرة فى دعوى الصهيونية وهى أن تكون

الارض المقدسة لهم دون غيرهم وطنا ودولة وانها أرض الميعاد لما سموه شعب الله المختار •

ولا ندرى لما وقع الاختيار على اسرائيل (١) دون غيره من أبناء ابراهيم ليكون مختارا ولتكون ذريته شعب الله المختار وقد كان من نسل ابراهيم أنبياء ورسل بل أن ابراهيم هو الأب الاعلى لكل رسل السماء •

فاذا بلغت الأثرة ببنى اسرائيل أن يدعوا لأنفسهم بركة الله واختياره وانهم الأعلون بين أبناء ابراهيم فما كان للمسيحية ولا للاسلام أن يدعيا بعد ذلك من بعث الى الناس كافة وما كان للناس فيهما من حاجة •

فاذا أردنا أن نناقش ما وعد الله به ابراهيم وذريته من حق مقدس فى فلسطين أو أرض الميعاد فأحرى بنا أن نناقش ما جاءت به الكتب المقدسة جميعا عن هذا الوعد المقدس وأن تفسر هذا الوعد المقدس على حقيقته وعلى هدى تطوره التاريخى • فالتاريخ مصداق النبوءة فان جفاها فقد ضلت قداستها والا كان لها من تفسيره برهانا وصدقا •

ولقد صدقت النبوءة حقا ولكن على غير ما يراها بنو اسرائيل ودعاة الصهيونية مما يتناوله هذا البحث •

---

(١) اسرائيل لقب يعقوب • تكوين ٣٢ : ٣٤ ـ ٣٩ •

ولذا كان علينا أن ننظر فى هذه النبوءات جميعا وأن نفسرها تفسيرها الصحيح ، على واقع التاريخ وأيهما أقرب الى مدلول الحقيقة من معناه ٠

فمما يؤخذ على اليهود أنهم عنوا بتفسير التوراة تفسيرا ماديا كأنهم يعقدون صفقة تجارية فهم كما يقول هـ ٠ ج ويلز «يؤمنون بأن الله الرب الاحد للعالمين جميعا ، رب بر وصلاح ، ولكنهم يقولون أيضا أنه رب تاجر ، قد عقد فى أمرهم صفقة مع أبيهم ابراهيم ، وهى صفقة جد رابحة لهم ، يلتزم فيها لهم بأن يرقى بهم فى النهاية الى السيادة على الارض [1] » ٠

وهذا هو جوهر الخلاف بين اليهودية والمسيحية ، فبينا كان اليهود يمجدون من ذاتهم ويعلون من شأن أنفسهم بأنهم شعب الله المختار وان الله وعدهم بالملك والسيادة على العالمين اذ بالمسيح يسفه من أحلامهم ويبشر بعقيدة تجب آمالهم وأحلامهم فى ملكوت السموات والارض فينادى بأن الله هو أب البشر جميعا وأن الناس أجمعين أخوة وكلهم ابن محبوب لذلك الاب الالهى ، وان مملكة السماء جميعا تظلل كل أتباعه ، وهذا هو ذاته جوهر الخلاف بين اليهودية والأسلام فلم يميز الأسلام أبناء اسمعيل على غيرهم من

---

(1) H.G. Wells : A Short History Of The World ; Teaching Of Jesus.

الامم ولم يجعل لعربى فضلا على عجمى الا بالتقوى وسوى بين الناس جميعا الا حيث يكونون من تقــوى الله ، فقد ارتضى الله الاسلام دينا للناس أجمعين لا دينا قبليا يقوم على الولاء للشعب المختار كاليهودية .

ولا يعنينا فى هذا البحث أن نفند نقاء الشعب المختار الا فيما يعرض له البحث من هذا الجانب فقد أصبح نقاء السلالة والعنصر خرافة لا تصمد أمام الواقع التاريخى الا فى الشعوب المنحطة وهى شعوب لم تصمد فى عزلتها أمام عــوامل الفناء أو الانحطاط التى تنزل بالشعوب التى لاتتجــدد دماؤها بين حقبــة وأخــرى على الدوام كما يقول علماء الوراثة .

وليس للشعب اليهــودى أن يدعى نقاء العنصر والســلالة والا أدركه الفناء من زمن بعيدوحل به الانحطاط البدنى والعقلى مما يخالف تاريخه وما عرف عنه من ذكاء وفطنة وسلامة بدن فقــد امتزجت دماء اليهود بدماء غيرهم من الشعوب التى اختلطوا بها وان رأى بعض طوائف اليهــود الا يبشروا بدياناتهم لانها جاءت لهم وحدهم فليس لهم أن يدنسوها باعتناق الجوييم لها ، والجوييم فى عرفهم من ليسوا من الشعب المختار . فقد ظلوا على اعتقادهم رغم هجنة دمائهم بأنهم شعب الله المختار ، فاذا كنــا لا نعــرض لنظرية الشعب المختار وهى ما يجب أن تقوم أولا على نقاء العنصر

والسلالة فلأنها غدت خرافة أمام تباين العناصر والسلالات فى الشعب اليهودى .

وسواء كان الاختيار للعقيدة أو للعنصر فان ما يعنينا حقيقة هو مدى هذا الالتزام الالهى لهؤلاء المختارين وهو التزام يقوم على تفسير تلك النبوءات التى تعرض لأرض الميعاد وعلى من تصدق هذه النبوءات أعلى بنى اسرائيل وحدهم أم على بنى عمومتهم من أبناء اسمعيل ، أهى لليهود أم للعرب ؟

الا أننا قبل أن نخوض فى هذا البحث لا بد لنا أن نعرض لتلك الدعاوى العريضة التى يشل بها الصهيونيون تفكير بعض الطوائف المسيحية المتدينة والعوامل النفسية التى تكمن وراءهذه الدعاوى العريضة . وسنرى أنها دعاوى قامت على زيف من حقائق التاريخ وان العاطفة فيها تغلب الحكمة والعقل والحقيقة ، وهى عاطفة زائفة تبرر ما ترتكب اسرائيل من وحشية لتضفى على عملها بطولة المضطهد وحق السليب المغلوب فتستدر الرحمة وتكسب تأييد الغافلين .

ففى وسط هذا الضباب من زيف العاطفة اندفع من أعنتهم الضلالة عن تبين الحقيقة الى تأييد اسرائيل بدعوى تحقيق ماجاء من نبوءات الكتاب المقدس ، أو عطفا لمجرد العطف على شعب شريد مضطهد يدعى بحثا عن الدعة والأمن فى وطن وعد به منذ آلاف السنين ولو على حساب شعب آخر ما دام فى ذلك مصداق

لآيات الكتاب المقدس ، وسنرى لماذا اتجهت الدعاية الصهيونية نحو المسيحيين من غير الكاثوليك والأرثوذكس ولماذا نجحت بينهم فكان الانجايز والأمريكيون أكثر الشعوب عطفا على اليهود •

فحين بدأت الحركة الصهيونية نشاطها لاقامة دولة يهودية فى فلسطين خشيت أن تحرك فى أعماق المسيحيين المتدينين عداوتهم القديمة لليهود ، فتنبعث مرة أخرى دعوة الثأر كما يقولون من «قتلة السيد المسيح» كما انبعثت خلال العصور الوسطى وانطلقت تدفع المسيحيين فى أرجاء أوربا للتنكيل بمعذبى المسيح وقاتليه • كان على دعاة الصهيونية أن يتحاشوا جهد طاقتهم عودة الشك والحذر لدى المسيحيين من عودة اليهود الى امتلاك بيت المقدس وكنيسة القيامة وبيت لحم والناصرة بلدة الناصرى عليه السلام فأقاموا دعوتهم على أساس دينى وأشاعوا بين المسيحيين لا سيما فى أمريكا أن تأسيس دولة يهودية فى فلسطين ليس الا تحقيقا لآيات الكتاب المقدس ومصداقا لنبوءات العهد القديم ، وراحوا يفسرون آيات العهد القديم ويخرجونها على هواهم ليخدعوا بها شعوب الارض وليقضوا بها على كل بادرة تحرك المتدينين فى أوربا وأمريكا ضد الصهيونية ، ونجح الصهيونيون فى بث تلك الفرية التى افتروها على آيات الكتاب المقدس بين كثير من

الهيئات المسيحية الامريكية فخدعت بها وراح بعضها يؤيد الصهيونية فى دعواها • ولا ننسى أن البروتستانتية قد عانت من اضطهاد الكاثوليكية وطوائف الكاثوليك ما جعل البروتستانت يجفون التعصب الدينى الذى يجر الى اراقة الدماء ، ثم أن موجة اضطهاد البروتستانتية والتنكيل بدعاتها ومعتنقيها جاءت فى الوقت الذى اجتاحت فيه أوربا موجة العداء المسيحى للطوائف اليهودية وتركت هذه المحنة المشئوكة جذورها العميقة بين البروتستانت وكمنت فى ثنايا عقلهم الباطن وتوارثها أحفادهم دون أن يحسوا دبيبها فى أعماقهم •

ثم أن البروتستانتية ترى فى التوراة كتابها المقدس والمصدر الاصيل للديانة المسيحية وكان هذا هو جوهر الخلاف بينها وبين الكاثوليكية ، فحين بعث المسيح برسالته ظن اليهود أنه المسيح المنتظر الذى يقودهم الى مملكة الارض ، ويعيد لهم مجد أورشليم ومملكة اسرائيل ويخلصهم من ذل الرومان ، ولكن المسيح لم يفجعهم فى آمالهم القومية فحسب بل راح يحطم أسطورة الشعب المختار ، فعن مملكة الأرض قال « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » وعن الشعب المختار يقول ان الله هو أب البشر جميعا وان مملكة السماء تظلل كل أتباعه ، ثم يقول انه ما جاء لينقض الناموس بل ليكمله • فكأن المسيح لم يأت بثورة تجب من عقيدة اليهودية وتنكرها بل جاء يصلح من شأنها ويردها الى الطريق القويم من

تعاليمها الأصيلة تلك التعاليم التى حورها اليهـود لتبرر نزعتهم العنصرية وامتيازهم على البشر ، وضاق اليهود بالمسيح فوصموه بالكذب وأنه تابع «بعزبول» الشيطان يدين بأمره ويتلقى المعجزة والوحى منه • ثم أئتمروا به حتى صلبوه فراح حواريوه ينشرون كراهية اليهود ومقتهم بين أتباعهم ولكنهم لم ينكروا التوراة أو يجبوا أحكامها وان اتهموا اليهود بتحريفها وقالوا ان التـوراة تنتهى بكتب موسى الخمسة ، أما ما جاء بعد ذلك من أسفار كسفر أشعيا وأرميا ودانيـال وعاموس حتى ملاخى فهى من وضـع اليهود أنفسهم خلال السبى البابلى أو بعده •

وامتدت الحرب بين المسيحيين واليهـود من يومهـا وحملت الكنيسة الغربية ـ كنيسة الرسـول بولس ـ دون الـكنيسة الشرقية كنيسـة الرسول مرقس ـ عبء الانتقـام من قتـلة المسيح ومعذبيه كما يعتقدون ، فقد آل اليها الحكم والسلطان بعـد أن أصبحت الكاثوليكية المذهب الرسـمى للامبراطورية الرومانية ، بينما انتشر المذهب الارثوذكسى فى الولايات الشرقية للامبراطورية ولم يكن للـكنيسة الشرقية من الجـاه والنفـوذ ما للكنيسةالغربية ، وراحت الـكاثوليكية تشن حربا عوانا على اليهودية واليهود فى كل بقاع الأرض امتدت حتى العصور الوسطى حين شهدت محاكم التفتيش أقسى ما حل باليهود من تعـذيب • وانطوى اليهود طوال ذلك العهد على أنفسهم فى عزلة رهيبة وفى

أحياء خاصة يمارسون فيها طقوسهم الدينية فى أضيق نطاق .

ولم يخرج اليهود من عزلتهم الا بقيام البروتستانتية فى ألمانيا ووقوع الثورة فى فرنسا ، ففى ألمانيا قام « موسى مندلسون » يدعو قومه من اليهود الى الخروج من عزلتهم والتجاوب مع البيئة التى يعيشون فيها والشعب الذى يعيشون بينه فيتكلمون لغته ويحيون حياته ، وكانت العبرية أو « البيدش » التى تكتب بحروف عبرية هى لغة يهود ألمانيا ، وفى فرنسا أعلنت الثورة المساواة بين جميع المواطنين ومن بينهم اليهود لا كشعب وانما كمواطنين فرنسيين ثم بدأوا ينالون حريتهم السياسية والدينية بعد ذلك فى دول أوربا الأخرى .

فالبروتستانتية هى صاحبة الفضل الأول على اليهود ؛ ويفسر هذا ما يجد اليهود من عطف فى البلاد التى تدين بها كأمريكا وانجلترا . فقد قامت البروتستانتية فى الأصل على أساس احياء التوراة والبحث فى تعاليم العهد القديم والمثل العبرانية القديمة ، حين حالت الكنيسة الكاثوليكية فى حربها لليهود بين المسيحيين من شيعتها وبين قراءة التوراة وما فيها من تمجيد لليهود ولعن لمن عاداهم من الأمم . فالتوراة رغم أنها كتاب اليهود المقدس ، لم ينسخها المسيح حين قال « لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس

أو الأنبياء . ما جئت لأنقض بل جئت لأكمل [1] » الا أنه نسخ ما أضفت على اليهود من قداسة وامتيــاز حين قال « ان كثيرين يأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع ابراهيم واسحق ويعقوب فى ملكوت السموات ، وأما بنو الملــكوت فيطرحون الى الظلمة الخارجية [2] » . ومن قبل كان يوحنا المعمــدان قد نسخ عنهم قداستهم حين صاح فيهم « يا أولاد الافاعى ... لا تفتكروا أن تقولوا فى أنفسكم لنا ابراهيم أبا . لأنى أقول لكم ان الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادا لابراهيم [3] » .

وظلت التوراة مصــدر الشريعة المســيحية الا فى الطلاق فقد حرمه المسيح الا لعلة الزنا ، وفى أن ملكوت الله لا يشــمل بنى اسرائيل وحدهم بل يشمل البشر جميعا ممن ينطوون تحت ظله، وان نعمة السماء ليست لأناس دون الآخرين بل هى لــكل من اهتدى وآمن بالخير والمحبة ؛ وبذلك جبت المسيحيةماادعى أبناء اسرائيل من امتياز وفضل على الأمم ، الا أن الكاثوليكية رأت فى قراءة التوراة تمجيدا لليهود الذين يعتقدون أنهم قتلوا المسيح وعذبوه فحرمت قراءتها على العامة حتى لا يختلط الأمر عليهم بين يهود العهد القديم والخارجين عليه ممن قتلوا المسيح وعذبوه

---

(١) متى ٥ : ١٧
(٢) متى ٨ : ١١ ــ ١٢
(٣) متى ٤ : ٨ ــ ٩

واليهود الذين كان عليهم أن ينطووا تحت لواء المسيحية، فالمسيحية لم تنسخ الشريعة اليهودية حقا ولكنها اجتثت كيان اليهود واعتبرتهم فئة مارقة على الدين وعلى رسالة ابراهيم واسحق ويعقوب •

حتى كانت ثورة «مارتن لوثر» على رجال الدين الكاثوليكى واحتكارهم للبركة وملكوت السماء بعد ما حل بالكنيسة الكاثوليكية من فساد ، فقام بحركة الاصلاح الدينى التى رأى فيها بعض المسيحيين المتنورين احياء لتعاليم المسيحية الحقة ودعا الناس الى قراءة التوراة حتى يعلموا حقائق دينهم ويلموا بمصدر شريعتهم •

ولم يرم لوثر الى احياء الهالة التى أضفتها التوراة على بنى اسرائيل فقد قضت المسيحية منذ قيام المسيح بدعوته على ماكان لليهود من امتياز واعتبر الناس جميعا ممن ينطوون تحت ملكوت السماء أصحاب النعمى لا الامتياز ، الا أن اليهود رأوا فى الدعوة الى قراءة التوراة بادرة سانحة لاحياء مجد اسرائيل والتذكير بامتياز الشعب المختار فعملوا على نشرها وحرفوا من آياتها مايضفى هالات المجد والامتياز عليهم حتى أن الكنيسة الكاثوليكية قامت بنشر طبعات صحيحة للتوراة بعد أن انتشرت تلك الطبعات المحرفة وقدمت من وقع فى يديها ممن قاموا بترجمة التوراة الى اللغات الأوربية للمحاكمة بعد أن نسبت اليهم تهمة تحريفها وكان من بينهم أتباع الدكتور « جون ويكليف » وكان قد اعتنق البروتستانتية وقام بترجمة التوراة محرفة الى اللغتين الانجليزية

والفرنسية فأعدموا حرقا بعد أن دانتهم المحكمة بتهمة التحريف ، ولا نعلم هل كان الدكتور ويكليف بروتستانتيا مؤمنا أم اندس على البروتستانتية من بين اليهود •

وذهبت الكنيسة الكاثوليكية بعد ذلك تفرق بين التشريع فى التوراة والقصص الوارد فيهاوقالت بتقديس شرائعهاأماقصصها فليسيت سوى قصص تاريخى عن اليهود كما قالت بقداسةالاناجيل الأربعة التى اعتمدها مجمع خلقدونية روحا ونصا •

غير أن الصراع الذى استشرى بين الكاثوليك والبروتستانت وما حاق بالبروتستانت من تعذيب واضطهاد قد جمع بينهم وبين اليهود كما قلنا من قبل فكان هذا العطف الذى تضفيه الطوائف البروتستانتية على اليهود وكانت تلك الحرية الواسعة التى تمتع بها اليهود بين البروتستانت وكان الحاح اليهود الدائم عليهم بصدق نبوءات العهد القديم والحق المقدس فى أرض الميعاد وأمتياز اليهود على غيرهم من البشر •

وهكذا خرج اليهودمن عزلتهم وانطوائهم على أنفسهم بفضل البروتستانتية• الا أن هناك عاملين آمرين لايصح اغفالهما فيمانال اليهود من حرية وكيان اجتماعى : أولهماأن تلك العزلة التى أحاط بها اليهود أنفسهم قد جعلت الشعوب تنسى عداءها التقليدى لهم وتنسى خبث طويتهم وأطماعهم التى تؤلب عليهم الجماعات التى يعيشون بينها ، وثانيهما أن موجة التعصب الدينى قد بدأت تفتر

وسرت روح من الحرية بين الشعوب ونمى الوعى الانسانى بالاخاء والمساواة بين البشر •

على أن الذى حرك الكاثوليك فى العصور الوسطى وما زال يحركهم على اليهود حرى بأن يحرك غيرهم من الطوائف المسيحية الأخرى فان السيطرة اليهودية فى أمريكا مثلا ستفتح أعين الأمريكى فى النهاية على هذا الاخطبوط الصهيونى الذى يعتصرهم ويمتص دماءهم كما ستفتح أعين المسيحيين الشرقيين على هذا الخطر الذى يتهددهم لا سيما وقد أراقت الصهيونية دماء العرب من مسيحيين ومسلمين مما تجفوه طبيعة تلك الطوائف البروتستانتية التى عانت من اضطهاد الكاثوليكية من قبل •

وقد تنبه بعض اليهود الى هذا الخطر القادم ، خطر انبعاث العداء التقليدى لليهود عند المسيحيين وخشوا أن يحرك الطمع الصهيونى مكامن العداء والتراث القديم المليء بالحذر والشك من خبث اليهود وعنصريتهم وتعصبهم المقيت الذى يملأ قلوبهم بالحقد والبغضاء وكراهية الجنس البشرى الذى لا يمت الى شعبهم المختار ، فراحوا ينبهون قومهم اليه •

ومن بين الذين نبهوا قومهم الى الخطر الذى يهدد اليهود من وراء الصهيونية الكاتب الامريكى «الفريدليلنتال» فهو يقول فى مقدمة كتابه « ثمن اسرائيل » (١) « ان فى الولايات المتحدة مجالا

---

(١) Alfred Lilienthal : What Price Israel, Int., P. 3

فسيحا لأية جماعة تتكتل وتعمل بحرية لغاية معينة ، ولكن هذا التسامح الأمريكى يتلاشى تماما اذا ثبت أن عمل هذه الجماعة ينافى مصلحة أمريكا » .

ونجد فى هذه العبارة أن الرجل قد لمس كبد الحقيقة فان السياسة التى تسير فيها الصهيونية فى أمريكا ستدفع بالشعب الأمريكى فى النهاية الى الثورة والتمرد على السيطرة اليهودية التى تحكمهم وتسخرهم لأهوائها ، لا سيما وأن آثار هذه السيطرة الصهيونية على كثير من نواحى القوة فى الولايات المتحدة تكاد تعلن عن نفسها كل يوم .

واذا انبعث الغضب الأمريكى على اليهود ـ وأمريكا هى حصن الصهيونية العالمية ـ فانه سيحيى فى تياره موجة العداء المسيحى لمن يرون أنهم عذبوا المسيح وقتلوه ، والشعب الأمريكى السمح المتدين لا يلهيه الدين أبدا عن حقيقة مصالحه ومصالح بلاده ولا ينسى أنه فى الأرض الجديدة التى نزح اليها قد حمل معه مأثورات وتقاليدا ترعرعت فى بلاد رحبة فسيحة لا تحد من حرية الفرد أو نشاطه أو أثرته القومية ، فاذا لمس ما يحد من حريته أو نشاطه أو رأى من بعض طوائفه ولاء لغير أمريكا ، ثارت ثورته واندفع فى ثورته الى لون من الغضب تفقد فيه العاطفة حكمة العقل .

ويعرف يهود أمريكا هذه الحقيقة عرفانا تاما ، الا أن موجة الصهيونية الحادة قد جرفت أمامها كل بادرة للاعتدال عند اليهود ،

فلم يعد هناك يهودى لا يشايع الصهيونية سرا أو علنا ، فالذين نسميهم بالمعتدلين من اليهود ليسوا فى الواقع الا من غلاة الصهيونيين ولكنهم يرون فى اعتدالهم وقاء لغلاتهم، فاذا انحرفت الموجة بالغلاة قاد المعتدلون السفينة فى موج هين لاتنوشه الأعاصير التى أثارها الغلاة والمتطرفون ، فيجنبون قضيتهم ما يحتمل أن يعتورها من خطر الحملة عليها والتحزب ضدها .

الا أن اصرار الصهيونية والحاحها فى تحقيق أهدافها لا يدع للهوادة أو التريث مكانا فى سلوك المعتدلين ، فتطغى الموجة الجارفة للمتعصبين وتعلو صيحة الغلاة لتغطى على كل ما عداها . والصهيونية فى ذاتها وأسلوبها حركة حادة ذات حيوية جارفة لاتنفك ملحة فى تحقيق هدفها الكبير ــ احياء دولة يهودا والعودة الى أرض الميعاد ــ وهى فى سبيل ذلك تسلك سبلا شتى حتى ولو جفت الخلق القويم وامتهنت تفكير الناس ، فليس من يعلو على براعة اليهود فى تزييف الحقائق والباس الباطل ثوب الحق ، وليس مثلهم من يزدرى انسانية البشر من غيرهم، فهم حين يملكون يذهبون فى اذلالهم للناس الى أبعد مما يتصوره العقل لا يرعون فى ذلك خلقا ولا دينا أو مثلا انسانية بل ان فى تعاليمهم التلمودية ما يبرر ارتكاب كل معصية وكل مين مع من هم من غير ملتهم . وهم حين يستخذون يذهبون أذلة مساكين يستجدون عدالة البشر وفى

شخصية شيلوك التى أبدعها شيكسبير فى تاجر البندقية ما يصور خلق اليهود على مر العصور أبلغ تصوير •

وفى أيامنا هذه وقد بلغت الصهيونية أوج مكانتها فى البلاد الأمريكية نراها حريصة أشد الحرص على رعاية تلك المكانة والابقاء عليها ما وسعتها الحياة والجاه والنفوذ • فكل ما يؤيد عقيدتهم ومذهبهم وآمالهم القومية شرع مباح ، وواجب لا يتحلل منه أى يهودى فى أمريكا أوخارج أمريكا،ولكنهم يرون فى أمريكا اليوم ماكانوا يرونه فى بريطانيا من قبل فقد آلت اليهاز عامة العالم الغربى وهم فيها كثرة ومال ، يسخرون كثرتهم ومالهم لتحقيق حلم صهيون القديم فألقوا اليها بثقلهم من جهدودعاية تقوم على أسس علمية ونفسية مدروسة وسيطروا بدعايتهم على الرأى العام الأمريكى سيطرة لم يشهد لها الشعب الامريكى مثيلا من قبل وبلغوا من براعتهم فى الدعاية أن هذا الشعب الأمريكى لا يدرك أنه مخدوع مضلل تحت وقر الدعاية الصهيونية البارعة •

ويتحرز الصهيونيون فى دعايتهم فهم يخشون أن يدرك الشعب الأمريكى حقيقة ما يتردى فيه من خداع الصهيونية فنراها تخضع دعايتها لعاملى المرونة والوقت فالدعاية تتلون وتتغير حتى تلابس الرأى العام ويختار لها الصهيونيون أنسب الأوقات التى تلائمها•

ولعلنا ندرك ما فى هـذه الدعاية من مرونة ومراعاة للوقت

ما يستثيره ظلم غير متواتر ، بل ربطوا بينها وبين الجنس فقالوا انها اضطهاد آرى للسامية .

ونجحت الصهيونية فى تأليب العالم لا سيما أمريكا على نزعة العداء للسامية حتى غدت عداوةالسامية نزعة لايقبلها ضمير متمدين وتبنى الأمريكيون حماية السامية من مضطهديها ، فقد بلغ من براعة التضليل الصهيونى أن صرف أذهان الناس عن فكرة الاضطهاد الدينى لليهود الى الاضطهاد العنصرى لهم ، فبالرغم من أن الاضطهاد الدينى قد غدا نزعة بالية وغدت حرية العقيدة حقا لكل فرد الا أنهاتثير فى أعماق اليهود ألوانا من مركب النقص القديم وتحملهم فى الوقت ذاته علىاغفال كل ما يذكر بالعداء بين المسيحية واليهودية فى الوقت الذى يدعون فيه المسيحيين الى الايمان بنبوءات العهد القديم وحق العودة الى فلسطين .

وهكذا سارت الدعاية الصهيونية قبل أن يحتل الصهيونيون فلسطين على أشلاء العرب الساميين ، حتى اذا احتلوها أدركوا أنهم يجمعون بين نقيضين : الحملةعلىعداوة السامية، ثم العدوان على السامية. لذلك نراهم يحورون دعايتهم تحويرا بارعا يبرر هذا التناقض ويخفيه ، ثم يؤكدون كما كانوا يؤكدون من قبل حقهم فى العودة الى أرض فلسطين تحقيقا لنبوءات الكتاب المقدس ، ثم يقولون انهم ذهبوا الى فلسطين تحقيقا للنبوءات ولكن العرب المعتدين ينفسون عليهم هذا الحق ويصدونهم عن وطنهم الأول

وأرض ميعادهم الحبيبة وانهم لا يرفضون أن يعوضوا العرب عن أملاكهم التى تركوها طواعية واختيارا ولا يذكرون اطلاقا أنهم حملوا العرب تحت الحديد والنار والارهاب الصهيونى القاتل الى ترك ديارهم وان لم يتخلوا عنها ، ثم يقولون غير ذلك انهم يحملون التمدين والحضارة الى تلك الصحارى التى أهملها العرب فغاض خيرها وأمحلت أرضها وجف زرعها وضرعها ، يعـودون ليحيوا مواتها ويبعثوا الحياة فى أرضها والنضرة فى جـدبها ؛ ثم انهم يعودون اخوة متحابين ينشدون السلام مع أبناء عمومتهم ولـكن العرب المعتدين يكرهونهم ويتجمعون على قتلهم والثأر منهم !!.

هذا هو لب الدعاية الصهيونية بعد احتلال فلسطين فى التوفيق بين النقيضين فنراها تتهم العرب الساميين بالحملة على السامية واضطهادهم ما كانت تتهم به النازية من قبل فتبقى فكرة اضطهاد السامية التى لابستهم والتى أفادوا ويفيدون منها لاجل الفائدة حية فى الأذهان وتبرز عداوة العرب لهم على أنها بدورها عداوة للسامية.

الا أن الصهيونية مهما طورت دعايتها وحورت فيها لا تمس أبدا فكرة الوعد المقدس ونبوءة أرض الميعاد بأى تطوير أو تحوير فهى الفكرة الخالدة التى تلهب خيـال اليهود بالارض الموعودة وتزكى أفئدة المؤمنين بالعهد القديم مما يحملنا على مناقشة تلك العهود وبحثها بحثا علميا تاريخيا من نفس نصوص الكتاب المقدس لنرى مدى الصـدق فى ادعاء اليهـود لها ونصيبهم منها ، وهو موضوع هذا الكتاب .

المناسب اذاعرفنا تطورها وتغيرها من وقت لآخر ثم عرفنا مدى نجاحها بالرغم مما فيها من متناقضات بارعة .

فلقد أقام الصهيونيون دعواهم ودعايتهم فى البداية على مبدأين التزم بهما كل يهود العالم وقادهما الصهيونيون قيادة بارعة مرنة محكمة .

وأول هذين المبدأين استثارة الايمان الدينى فى أعماق المتدينين من طوائف المسيحيين أوالبروتستانت بالذات ممن يؤمنون بتفسير لآيات العهد القديم يختلف عن تفسير الكاثوليك والأرثوذكس ويقترب الى حد بعيد من تفسير اليهود له ، فالعودة الى فلسطين هى فى تفسيرهم مصداق لآيات العهد القديم ، فان كانوا يؤمنون بدينهم فأحرى بهم أن يؤمنوا بعودة اسرائيل وقيام دولة يهودا .

ويقوم المبدأ الثانى على استثارة عطف العالم المتمدين على اضطهاد النازية لليهود وقد اختاروا لذلك أنسب وقت وأبرع تخريج ، فبدأوا حملتهم ضد اضطهاد النازية لليهود فى الوقت الذى وقعت فيه النازية فى صراع عالمى تألب العالم فيه عليها ثم أعقب هذا الصراع حرب مدمرة تألبت فيها الكثرة الهائلة من دول العالم على النازية . وحين قاموا بحملتهم هذه لم يربطوا بينها وبين الدين اطلاقا حتى لا تلتبس بالنزعة الدينية المسيحية نزعة الانتقام من قتلة المسيح ومعذبيه أو تختلط فى الاذهان بتواتر اضطهاد اليهود فتعتبر تكرارا لموجات شبيهة من قبل فلا تستثير من الحماس

الفصل الأول

العبريون والهلال الخصيب

فى فجر التاريخ

« فى ذلك اليوم قطع الرب مع ابرام ميثاقا قائلا لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات ، القينيين والقنزيين والقدمونيين والحيثيين والفرزيين والرفائيين والأموريين والكنعانيين والجرجاشيين واليبوسيين [1] » .

وبذلك وسعت أرض الميعاد ضمن ما وسعت تلك الساحة التى تعرف ببلاد الهلال الخصيب وكان ذلك الميثاق الذى قطعه الرب مع ابرام أصل تلك العبارة المنقوشة على أبواب الكنيست الاسرائيلى شعارا لدولة اسرائيل « من النيل الى الفرات » فالهلال الخصيب كما تجرى رواية التوراة هو أرض الميعاد التى وعد بها ابراهيم فى عبوره من أور الى أرض كنعان بأمر الرب لتشمل أيضا

(١) تكوين ١٥ : ١٨ ـ ٢٠

كل ما يقع شرقى نهر النيل • أما فلسطين فهى بعض أرض الميعاد وليست كل أرض الميعاد ارتبطت فى أذهان اليهود بأورشليم والهيكل ومملكة دواد وبالعهد الذى أبرمه الرب مع ابراهيم بعد مولد اسمعيل وخص به أرض كنعان لتكون ملكا أبديا لنسله ولم يكن له نسل حينذاك الا اسمعيل « وأقيم عهدى بينى وبينك وبين نسلك من بعدك وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكا أبديا وأكون الههم [1] » وكان العهد لاسماعيل أب العرب فلم يكن اسحق أب اسرائيل قد ولد بعد كما نقص عليك من أمرهما •

وجاء السبى البابلى فألهب خيال الاسرائيليين بالعودة الى أورشليم واعادة بناء الهيكل الذى دمره نبوخذنصر ومن ثم كانت الدعوة الصهيونية بالرغم من أنها دعوة سياسية ومذهبية جديدة كل الجدة ، تضرب فى أغوار الماضى بجذور دينية وعنصرية عميقة لاترجع الى النبوءة بقدر ما ترجع الى الأمل الجامح بعودة مملكة اسرائيل وملك داود •

أما النبوءة فقد حقت لا لنسل ابرام من اسحق ولكن لنسله من اسمعيل ، فملك الاسماعيليون أو العرب كل الهلال الخصيب ودانت لهم شعوبه • وأما بنو اسرائيل فذهبوا بددا فى الأرض ولم

---

(١) تكوين ١٧ : ٧ — ٨

تقم لهم دولة فى فلسطين أو فى أية بقعة أخرى من بقاع الهلال الخصيب الا هونا من الزمن .

وسنرى من سياق هذا البحث لمن كان عهد الرب فى التوراة والانجيل والقرآن وعلى من صدقت نبوءة ابراهيم فى رواية التاريخ، تاريخ الهلال الخصيب منذ فجره الاول حتى يومنا هذا .

فالهلال الخصيب هو مسرح الاحداث فى تاريخ بنى اسرائيل. فما هو هذا الهلال الخصيب وكيف كان فى فجر التاريخ وما نصيب بنى اسرائيل فى ملحمته الكبرى ؟

* * *

على امتداد الصحراء العربية نحو الشمال يرتكز سهل من الأرض الخصبة على شكل قوس عظيم تتجاوز الصحراء طرفيه وتتعمق فى قلبه ، بينما تحيط به الجبال من ورائه على شكل قوس ، فيبدو كالهلال المقلوب مما دعا العلامة المصريولوجى « برستد » لان يطلق عليم اسم الهلال الخصيب (١) فيعرف بذلك من بعد وتصبح هذه التسمية علما عليه .

وينتهى الطرف الغربى للهلال الخصيب فى جنوب شرق البحر الأبيض المتوسط بينما يرتكز طرفه الشرقى على الخليج العربى

---

(١) J.H. Breasted : Ancient Times. C. IV.

وبذلك تقع العراق فى نطاقه الشرقى حيث أينعت حضارة سومر وازدهرت مملكتا بابل وأشور على مدى قرون من تاريخ العالم القديم فى حين تحتل سوريا قلبه حيث قامت حضارتا الآراميين والحيثيين وامتد ملكهما حتى طوى الجزء الاكبر من بلاد سوريا الحديثة . أما فى نطاقه الغربى فتقع لبنان فى الشمال حيث قامت حضارة الفينيقيين وفلسطين فى الجنوب حيث استقر الكنعانيون والفلسطينيون فى الزمن القديم .

وكان الهلال الخصيب وما زال الى اليوم منطقة صراع عنيف بين سكان الصحراء وسكان الجبال يتنازعون عليها كل يريد امتلاك ما يسد حاجته منها ، تلك الحاجة التى دفعتهم من قلب الصحراء أو حافتها أو من سفوح الجبال لانتجاع تلك الارض الخصبة المليئة بالخير والمرعى (١) .

وكثيرا ما كان يستقر هؤلاء النازحون فى الارض الجديدة فيقيمون ملكا حتى تنزوا عليهم أفواج أخرى من سكان الصحراء أو الجبال فيجلونهم عن أماكنهم أو يشاركونهم الاقامة والانتجاع .

وليس تاريخ هذه المنطقة الا تاريخا للصراع الحاد بين سكانها وسكان الصحراء والجبال ، بل أن هذا الصراع ليشكل طورا من أطوار الحياة الانسانية فى هذا الاقليم ان لم يكن أهم أطوارها

---

(١) برستد وترجمة أحمد فخرى : انتصار الحضارة ص ١٠١

جميعا،فان هذا الصراع وان كان صراعا على الماء والمرعى الا أنه كان فى كثير من الاحيان صراعا بين مذاهب وعقائد وأديان وثقافات وحضارات طبعت الحياة الانسانية فى هذا الاقليم بطابع فريد كان له أعظم الاثر فى سير الحضارة العالمية وتطورها . ففى هذا الاقليم التقت الاديان السماوية الثلاثة اليهودية والنصرانية والاسلام كما التقت حضارات التاريخ الاولى .

وكثيرا ما كان هذا الصراع يتخذ شكلا آخر فليس هو صراعا على الماء والمرعى أو بين الموجات البشرية المندفعة من حافة الصحراء أو من قلبها وبين سكان السهل بل هو صراع بين حضارتين وقوتين كان الهلال الخصيب مركز الصدام بينهما فحضارة مصر القديمة وحضارة سومر وبابل وأشور تلاقت جميعا فوق أديمه كما تلاقت حضارات الفرس والاغريق والرومان والعرب ، وكان هذا اللقاء بين الحضارات العديدة يترك آثارا بعيدة المدى فى حياة الاقليم لا تقل عنفا عما تركه الصدام العسكرى بين هذه الدول المتجاورة على أرضه وبين شعوبه من الناحيتين الاجتماعية والسياسية .

فمن الناحية الاجتماعية لا نجد فى هذا الاقليم منذ أبعد عصور تاريخه حضارة متميزة انفردت بسمات أصيلة كالحضارة الفرعونية أو الهيلينية أو الرومانية ، بل كان كل ازدهار حضارى فى هذا الاقليم يستقى ينابيعه من الحضارات المجاورة وكل ما انفرد به سكان الهلال الخصيب من سمات أصيلة هو احتفاظهم الى حد

ما ببعض تقاليدهم وعباداتهم وأسلوب حياتهم القبلية القديمة بل أن عبادتهم كثيرا ما تأثرت بالطقوس والعبادات المجاورة فمما لا ريب فيه أن الشريعة الموسوية قد تأثرت الى حد كبير بشريعة حمورابى وان الديانة اليهودية تنم عن أصل صحراوى [1] وان طقوسها قد شابها كثيرا من الطقوس الفرعونية والبابلية وانها كانت تمتص على الدوام من مراسم الديانات التى جاورتها وعقائدها فأخذت فكرة المسيح المخلص عن الزراداشتية وفكرة المعبد عن البابلية وفكرة الخلود والبعث والعالم الآخر عن الفرعونية اذلم تشر اليها التوراة من قبل ، وتشربت بعض فلسفة الاغريق والرومان ، هذا بالرغم من أنها ديانة محافظة ، الا أنها كانت تمتاز على كل تلك الديانات بفكرة الاله الواحد تلك الفكرة التى تبلورت فى عبادة آتون فى اخيناتون أو تل العمارنة على يد الفرعون اخناتون أو امنحتب الرابع .

س ومن الناحية السياسية لم تقم فى هذا الاقليم أمة موحدة متماسكة تصهر فى أتونها هذه القبائل أو الشعوب العديدة ، ولم يقم كيان سياسى لدولة استطاعت أن تعيش طويلا أو أن تسيطر على بقاعه سيطرة كاملة لأكثر من جيل أو جيلين ، بل عاشت هذه الشعوب فى وحدات شبه سياسية لم تعد أن تكون دويلات صغيرة ظلت تحتفظ بطابعها القبلى القديم رغم ما بلغته من حضارة وازدهار . ولم يحدث أن توحدت بلاد الهلال الخصيب الا فى ظل العرب وفى

(١) فؤاد حسنين على . دكتور : التوراة عرض وتحليل ص ٩

نطاق الدولة الاسلامية الكبرى مما يعد مصداقا لعهد الرب لنبيه ابراهيم بأن يرث نسله تلك الأرض من نهر مصر الى نهر الفرات فالعرب هم ورثة تلك الساحة وهم أصحابها وهم نسل ابراهيم .

وينتسب سكان هذا الاقليم منذ أقدم العصور الى الجنس السامى ، وكان هؤلاء الساميون قد أخذوا يفدون من الصحراء الى الهلال الخصيب فى منتصف الألف الرابع قبل الميلاد (١) تقريبا، وكان السومريون قد سبقوهم الى انتجاع الطرف الشرقى من الهلال الخصيب قبل ذلك بعدة قرون ، ومن المحتمل أنهم قدبدأوا فى تجفيف المستنقعات حول رأس الخليج العربى قبل موجة النزوح السامى بخمسمائة عام (٢) ولا يعرف على التحقيق أصل هؤلاء السومريين ولكنهم ليسوا من الجنس السامى ، وجاءت نسبتهم الى البلاد التى كانت لهم السيادة عليها من أرض الرافدين والتى عرفت باسم سومر وتحدثت عنها التوراة باسم سهل «شنعار» وعرفت فيما بعد باسم بابل (٣) . ومن المحقق أن أقدم حضارات الهلال الخصيب هى الحضارة السومرية . ولم يكون السومريون دولة متحدة بل كونوا عدة دويلات قوية تجاورت واقتتلت فلم

(١) جواد على ، الدكتور : تاريخ العرب جـ١ ص ١١
(٢) انتصار الحضارة ص ١٥٨ وما بعدها
(٣) المصدر السابق ص ١٥٧

تتمتع بالأمن والسلام الا فترات قصيرة من تاريخها ، غير أن أصولها وتقاليدها ودياناتها وحضاراتها كانت واحدة .

وجاءت هزيمة السومريين على يد فاتح سامى اسمه «سرجون» قاد رجاله الآكديين المسلحين بالقسى من جبال عيلام الشرقية فى القرن السادس والعشرين ق.م . وحل بهم على الدويلات السومرية فتغلب عليها وجعل من نفسه سيدا على سهل شنعار بأكمله [١].

وكان سرجون أول زعيم سامى وأول حاكم يؤسس ملكا كبيرا فى غرب آسيا ، امتد من عيلام فى الشرق الى البحر الابيض المتوسط فى الغرب والى أعالى الرافدين .

وقد اختلط هؤلاء الآكديون الساميون بالسومريين فاقتبسوا حضارتهم وعاشوا بينهم وكان نتاج هذا الاختلاط تكون أمة جديدة عرفت باسم «سومر وآكد» ازدهرت حضارتها تحت زعامة مدينة « أور » لثلاثة قرون تلاها قرنان من التدهور والخمول . والحضارة البابلية هى ثمرة هذا الامتزاج بين الحضارتين السومرية والآكدية وتعد أعظم مظهر لتطور حياة الانسان فى سهل شنعار .

ولم ينس الناس روعة هذه الحضارة ولا عظمة مدينة « أور » فيما بعد ، فحين أخذ العبريون بأسباب الاستقرار والحياة فى فلسطين كانوا يفخرون بأن أباهم ابراهيم عاش فى مدينة أور قبل أن ينحدر منها بأمر الرب الى أرض كنعان [٢] .

---

(١) المصدر السابق ص ١٧٧
(٢) تكوين ١٢ : ١ ـ ٦

وقضت دولة « سومر وآكد » حين غزاها ساميون جدد فى نهاية القرن الثالث والعشرين ق٠م ، عندما اجتاح العيلاميون المدن السومرية من الشرق وأسروا آخر ملوك «أور» واجتاح العموريون بلاد آكد من الغرب وتمكن أحد زعمائهم من أن ينصب نفسه ملكا على بابل فى منتصف القرن الحادى والعشرين ق٠م ، وأديل من مدينة أور الى مدينة بابل فى السيادة على سهل شنعار القديم الذى عرف منذ ذلك الوقت باسم بلاد بابل وكان ذلك حين تمكن «حمورابى» من أن يقهر الحاكم العيلامى الذى كانت له السيادة والزعامة على مدن سومر وآكد فى الجنوب ٠

وبلغت حضارة بابل أوجها تحت حكم حمورابى ، وكان حمورابى حاكما قويا ومشرعا عظيما ، فظل ذكره يتردد فى بقاع الهلال الخصيب الى مابعد موته بألف عام وبقيت شريعته الى يومنا هذا علما عليه كأقدم شريعة تنظم علاقات البشر وأحوالهم ومعاملاتهم ٠

ولم تعمر بابل طويلا بعد حمورابى فقد تعرضت لموجة بشرية جديدة جاءت اليها من الشرق من جانب قوم عرفوا بالكاسيين ، وقد أخذ هؤلاء الكاسيون ينطلقون فى دفعات متعاقبة الى أرض بابل لم يستطع البابليون دفعها ، وعلى خلاف هجرة الكاسيين الذين استقروا فى بابل نجد غارة أخرى تندفع اليها من الشمال الغربى يقوم بها الحيثيون ، نهبت بابل وسلبتها وغنمت ما فيها وعادت الى بلادها بعد أن قضت على آخر ملك من نسل حمورابى ،

ولم يجد الكاسيون بعد ذلك جهـدا فى فرض سيادتهم على بابل فهوت وانحدرت الى الزوال حتى ظهرت كلديا على مسرح التاريخ.

ونجد مركز الثقل فى الهلال الخصيب ينتقل بعد سقوط بابل الى الشمال الشرقى حيث قامت دولة أشـور ، وفى تلك البقاع الشمالية من الهلال الخصيب يظهر على مسرح الحوادث الى جوار الساميين أقوام غير ساميى الاصـل ممن اصطلحنا على تسميتهم بالشعوب الهندو أوربية وهم الذين انحدروا الى أوربا فيما بعد ووصلت موجاتهم التى قامت من الهنـد الى الجزر البريطانية . وكانت أشور هى مركز الالتقاء بين الساميين وهؤلاء الأقوام غير الساميين ، فالى الشمال نرى أن المراكز الأمامية المتقدمة للأجناس الهندواوربية كانت فى مملكة خيتا فى آسيا الصغـرى وفى بلاد الميتانى فى أعالى الفرات بينما وصـل الساميون فى توسعهم الى الحوض الشرقى للبحر الابيض المتوسط وشمال أفريقيا وبعض جهات أوروبا الجنوبية الغربية وبذلك سار التوسع السامى والآرى فى خطين متوازيين مع بعضهما على وجه التقريب .

وكان على دولة أشور أن تواجه خطر القوى المجاورة التى تحول بينها وبين التفوق والظهور. وكان أعظم مايهددها منها دولة الميتانى فى الفرات وخيتا فى آسيا الصغرى ومصر التى مدت ذراعيها الى الهـلال الخصيب واشتبكت مع خيتـا فى صراع عنيف على امتلاكه ، كما كان عليها أن تواجه خطر قوى جديدة نجمت عن

موجة أخرى من موجات النزوح السامى فى غرب آسيا فالى الغرب من أشــور كان الآراميون قد بدأوا ينزحون الى سهل البقــاع الخصيب وما وافى القرن الثانى عشر ق٠م حتى رأيناهم قد أسسوا عددا من المدن الزاهرة فى سوريا استطاعت أن تتمثل كثيرا من سمات الحضارتين المصرية والحيثية ، والى الجنوب من ســوريا وفدت القبائل العبرية وأخــذت تحتل الارض وتتوطنها وأخذ الاثنان يقيمان سدا منيعا أمام تقدم الأشوريين الى البحر ، وكانت القوتان الغربيتان ــ مصر وخيتا ــ قد انسحبتا من الميدان عام ١١٥٠ ق٠م بعد أن انتابهما الضعف ولم تقو دولة الميتــانى على البقاء فانتهى أمرها قبل ذلك بزمن ولم يبق فى الميدان غير أشور لترث ملك الشرق ٠ فما أن أهل القرن التاسع ق٠م حتى أخذت القوات الأشورية تشق طريقها الى الغرب فسقطت دمشــق عام ٨٣٢ ق٠م وبعد ذلك بعشر سنوات سقطت السامرة حاضرة مملكة اسرائيل الشــمالية بعد حصــار دام ثلاث سنوات [1] ٠ ثم نزل الأشوريون على المدن الفينيقية فما لبثت أن تهاوت واحدة بعد الاخرى أمامهم وأخذوا يتقدمون جنوبا الى مصر فاجتاحهم وباء الملاريا فى وادى الأردن وحال بينهم وبين التقــدم الى وادى النيل ، وهو الوباء الذى اجتاح قوات اللنبى بعــد ذلك بسبعة

---

(1) H. Wheeler Robinstien : The History of Israel, C. IV. P. 98

وعشرين قرنا عند عبورها لوادى الأردن لمهاجمة شرق الأردن بعد استيلائها على بيت المقدس ، كما اجتاح من قبل جيش نابليون الذى كان يحارب فى تلك البقاع وارتد أمام عكا وهو الوباء الذى أشارت اليه التوراة فيما نزل بجيش سنحاريب بقولها « ان ملاك الرب خرج وضرب من جيش أشور مائة ألف وخمسة وثمانين ألفا ، ولما بكروا صباحا اذ هم جميعا جثث ميتة [1] » .

ولم تنج بابل من فتك الأشوريين واستمرت تقض مضاجعهم بثوراتها ولم يجد سنحاريب بأسا من أن يمحوها من الوجود ففتح عليها مياه القنوات لتغمر أطلالها بعد أن فر عنها أهلها ، أما مصر فقد اجتاحها حفيده بعد أن عزت على جده فأصبح لفترة من الزمن سيد النيل الادنى [2] .

وما أن أهل القرن السادس ق.م حتى كان الأشوريون سادة الهلال الخصيب على أنه لم يمض جيل واحد حتى سقطت أشور تحت ضغط الكلدانيين من الجنوب والميديين من الشمال عام ٦١٢ ق.م ، وورث الكلدانيون سادة بابل الجدد ملك الأشوريون وأصبح الهلال الخصيب بأسره تحت امرتهم واكتفى الميديون وهم

---

(١) الملوك الثانى ١٩ : ٣٥

(٢) انتصار الحضارة ص ٢١٦

من الأقوام الهندوأوربية بحكم الجبال الشمالية ، وأعاد الكلدانيون بناء بابل وأفسح نبوخذ نصر أعظم ملوك الكلدانيين فى مساحتها وبنى لحراستها الأســوار والبروج الحصــينة وجعل منها أعظم مدن الهلال الخصيب •

وقد هزم نبوخذنصر جيوش الغرب المتحالفة ضده فى معركة «قرقميش» عام ٦٠٥ ق•م ثم قام بحملات تأديبية على البلاد التى ثارت عليه انتهت بالقضاء على مملــكة يهودا وتحطيم أروشليم وتدمير الهيكل ، وحمل اليهود سبايا الى أرض بابل عام ٥٨٦ ق•م•

ولم تعمــر دولة بابل طــويلا فمـــا أن مات نبوخذنصر عام ٥٦١ ق•م حتى انحدرت البلاد الى مهاوى الضعف والاضمحلال وأخذت تفسح مكانها لظهور أقوام جدد لم يكونوا من الساميين فى هذه المرة وانما كانوا من العناصر الهندوأوربية التى بدأت تعلو وتظهر فى الشرق والغرب وتسود العناصر السامية فى غرب آسيا لألف سنة جديدة لم تنته الا بظهور العرب على مسرح التاريخ فى القرن السابع بعد الميلاد فأعادوا سيطرة الجنس السامى على الهلال الخصيب واكتسحــوا فى طريقهــم غــربا وشرقا تلك العناصر الهندوأوربية وتوســعوا على حسابها فقــامت الدولة الاسلامية وامتدت من سد الصين فى الشرق الى سيف الأوقيانوس وجزر الآزور فى الغرب وطوت تحت ظلها كثيرا من الشعوب الهندوأوربية التى اعتنقت الاسلام وشاركت فى بناء الحضارة الاسلامية وبلغت ما لم تبلغه دولة الاغريق أو الرومان قديما وما لم تصل حتى اليه الامبراطورية البريطانية أو الروسية فى العصر الحديث • وتحققت

فيهم لاول مرة نبوءة ابراهيم بأن يكون من نسله أمم وملوك منه يخرجون وأن ترث ذريته أرض الهلال الخصيب .

سقطت بابل عام ٥٣٨ ق.م تحت ضربات الفرس الذين ساروا بقيـادة ملكهم كورش أول فاتح عظيم من الجنس الهندوأوربى يجتاحون غرب آسيا ويحاربون أبناء عمومتهم الهندوأوربيين فى ليديا وبلاد الاغريق ويقضون على سيادة الجنس السامى فى بابل ومصر والهلال الخصيب .

وعندما قام الاغريق ومن بعدهم الرومان فى الغرب اشتبكوا فى صراع مريرعلى احتلال مراكزالصدارة فى العالمالقديمكالصراع الذى قام من قبل بين الشعوب السامية لنفس السبب .

ولم ينته هذا الصراع بين الشعوب الهندواوربية الا بقيـام العرب الساميين ليوجهوا قوتهم الفتية ضد الفرس والرومان فى وقت واحد .

هذا هو تاريخ النزوح السامى الى الهلال الخصيب واستقرار الشعوب السامية فى أرضه وما صحب هذا الاستقرار من صراع عنيف على العيش وآخر على السيادة والملك ، هذا الصراع الذى شكلته البيئة ودفعت اليه طبائع الحياة فى اقليم كالهلال الخصيب وما زالت بذور هذا الصراع كامنة فى تربته يورى ضرامها فى زمننا هذا انحدار اليهود الى بقاعه حالمين بعودة مملكة يهودا .

ومن تاريخ الشعوب السامية فى الهلال الخصيب لا نجد للعبريين الا خطا ضئيلا يرد فى ثنايا سطوره بينما يكتب العرب ملحمته الرائعة •

فأين هم العرب والعبريون من تاريخ الهلال الخصيب وأين هم من العناصر السامية وكيف كان كل منهما من الآخر •

هذا هو موضوع الفصل التالى •

الفصل الثانى

العرب والعبريون فى التاريخ

من نسل ابراهيم كانت العرب العدنانية التى تمثلت بطـون العرب الأخرى وصهرتها فى بوتقتها ومن ذريته كان العبريون الذين تمثلتهم على مر التاريخ شعوب عديدة وصهرتهم فى بوتقتها حتى لم يعد يربطهم باليهود القدامى غير الديانة اليهودية وأسفار التوراة.

ففى المتناثر من الروايات أن العرب ينتهى نسـبهم كما ينتهى نسب العبـريين الى سام بن نوح والى سـام بن نوح نسب «شلوتسر» (١) هذه المجموعة من الشعوب التى أطلق عليها اسم الشعوب السامية والتى يرى الدكتور جواد على أن يطلق عليها اسم الشعوب العربية بدلا من السامية لدلالة هـذا المصطلح ودقتـه العلمية فى التعريف بها (٢).

---

(١) 1—August Ludwig Schlôzer

(٢) جواد على . الفصل الثالث من الجزء الاول

فالسامية مصطلح حديث قد سبقه الى الوجود مصطلح العربية وهو الاسم الذى عم وشاع للدلالة على هــذه الشــعوب التى ينتهى نسبها الى سام بن نوح اذا أخذنا برواية التــوراة أو التى كانت تتكلم لغات أو لهجات يبدو أنها مشتقة من أصل واحد اذا أخذنا بطرائق البحث العلمى فى الاستقراء والتعريف •

وقد أدى استعمال هــذا المصطلح ــ مصطلح السامية ــ الى خطأ وقع فيه علماء الأجنــاس حين تكلموا عن السامية كجنس له خصائصه ومميزاته البدائية وأخذوا يفرقون بينه وبين الجنس الآرى على هذا الاعتبار بينما أن شلوتسر لم يقصد ذلك مطلقا بل كان يعنى به شــعوبا تتكلم لغات متقــاربة تنتهى الى أصل لغوى واحد كما تنتهى اللغــات الاوربيــة الحديثة الى اللغــة اللاتينية ، وسواء اعتبرنا الســامية دلالة لغــوية أو جنسية فمن المسلم به أن نسبتها الى سام بن نوح يعنى أن هــذه الشعوب تنتهى نسبا اليه أما اذا فضلنا أن ننسبها الى مهدها وهو الجزيرة العربية فنقول الشعوب العربية بدلا من الشعوب السامية فمعنى ذلك أننا نأخذها بالنسبة الى وطنها الأصلى ولا نشذ عن المتعارف والمتداول منذ ألفى عام حتى الآن حين أخــذ لفظ عربى وعربية يعم ويطوى ما عداه من أسماء الشعوب والقبائل التى عاشت فى الجزيرة العربية أو فى الهلال الخصيب وأصبح علما على قومية متميزة بلغتها وسماتها العقلية والبيئية وقدر لهذه القومية بعــد

حقبة امتدت الى ألف عام منـــذ بدأ لفظ عربى يعم ويشـيع أن تتأصل وتمتد الى رحاب أبعد مدى من الجزيرة العربية والهلال الخصيب حين بدأت موجة الفتوح العربية والاسلامية تكتسح ما أمامها من سدود وحدود فتتوطن قبـائل عربيـة بأكملها بقاعا جديدة فى شمال افريقيا وتصبح تلك الساحة من بلاد الرافدين الى شواطىء الأقيانوس وطن العرب وأرض العروبة •

وتهدينا هذه الحقيقة الى حقيقة أخرى ظلت مطوية فى غمـار الجهل وهى أن هذه الشعوب التى أطلق عليها اصطلاحا اسم الشعوب السامية كالأشوريين والبابليين والفينيقيين والآراميين والكنعانيين والكلدانيين والعبريين والمصريين ليست فى الاصل الا من سلالة واحدة هى السلالة العربية لها سماتها الجنسـية والحضـارية المشتركة ان تباينت قليلا أو كثيرا فلتباين البيئات الاقليمية ولدواعى العزلة التى كانت عاملا هاما من عوامل الانفصال والتباين فهـذه العزلة الاقليمية هى التى تحمـل على الظن أن تلك الشـعوب العديدة فى مصر والهلال الخصيب هى غير الشعوب العربيـة التى تقطنها اليوم •

ويكشف لنا هذا عن صفحة مطوية أو مجهولة من صفحات القوميـة العربية وتطـورها على الزمن تطـورا له مقوماته وسماته المشتركة •

فالعرب اذن هم أصحاب هذه السـاحة الواحـدة التى تعرف

بالوطن العربى أو وطن الأمة العربية منذ أبعد عصور التاريخ .

والعربية هى اللغة الكبرى التى تتمثل المجموعة اللغوية السامية قديمة كانت أم حديثة وهى أوسع لغة سامية باقية على وجه الارض .

أما العبريون فهم جيران العرب وأبناء عمومتهم الأقربون ، ففلسطين أقرب بقاع الهلال الخصيب الى الجزيرة العربية وان كانت الجزيرة العربية والهلال الخصيب اقليما جغرافيا واحدا ، فأرض الرافدين والبادية ليست الا امتدادا طبيعيا لجزيرة العرب ، وهم أقرب الشعوب نسبا الى العرب ، كما أظهر البحث العلمى الحديث أن أصول الديانة اليهودية تنم عن أصل صحراوى .

واذا جارينا التوراة فى رواية الأنساب لقلنا ان العرب والعبريين هم على رأيها من سلالة سام بن نوح وهو ما يعنينا فى بحثنا هذا عن نبوءات التوراة ودعوى اليهود فى فلسطين أو ادعاء أرض الميعاد .

وتعترف التوراة (١) بنسبة العرب القحطانية الى سام بن نوح فهم أبناء يقطان بن عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام وهم بذلك أقدم عهدا من الاسرائيليين كما تعترف بأن اسمعيل جد الاسماعيليين هو الابن الأكبر لابراهيم من هاجر المصرية ومن نسل اسمعيل

---

(١) تكوين ١٠ : ٢١ — ٣١

كانت العرب العدنانية ومن نسل اسحق ولده من سارة كان بنو اسرائيل • وكان القحطانيون أصحاب حضارة ومدنية يعيشون فى المدن فى الوقت الذى كان فيه الاسرائيليون بدوا أعرابا يتجولون فى البادية قبل أن يستقر بهم الترحال فى فلسطين ويعيشوا على فلاحة الأرض •

وتذكر التوراة (١) زوجة لابراهيم دعتها قطورة تزوجها بعد وفاة سارة وولدت له ستة من البنين هم زمران ويقشان ومدان ومديان ويشباق وشوما ، ومن أبناء يقشان شبا وددان ومن أبناء مديان عيفة وعفر وحنوك وأبيداع والدعه • وبنو ددان هم أشوريم ولطوشيم ولأميم ومن بطون أولاد ابراهيم لقطورة خرج ست عشرة قبيلة يقول علماء التوراة انها قبائل عربية (٢) وليس لهذه القبائل ذكر عند النسابين ولم يردعنها شىء فى بحوث المستشرقين وعلماء التوراة الا اننا نستطيع أن نقول ان قبيلة مدين التى أصهر اليها موسى هى من ولد مديان بن ابراهيم من زوجته قطورة •

وينتهى نسب ابراهيم الجد الأعلى للعرب العدنانية ولبنى اسرائيل الى سام فهو ابراهيم بن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج ابن عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام بن نوح ويكون عابر آخر

---

(١) تكوين ٢٥ : ١ — ٤

(٢) Hitti : History of The Arabs : P. 40

جدتتلاقى فيه القحطانية والعدنانية وبعد عابر ينفصلان فمن يقطان ولد عابر ينحدر القحطانيون ومن فالج ولد عابر ينحدر العدنانيون على ما يقول النسابون وتجرى رواية التوراة •

وابراهيم أو ابرام أحدأخوة ثلاثة من أبيهم تارح هم غير ابرام ــ ناحور وحاران ــ ولد فى أور الكدانيين فى جنوب العراق لالقى عام ق٥م ــ على ما يقال ــ وينتمى آل ابراهيم الى عشيرة بدوية انحدرت من الجزيرة العربية وأخذت تتنقل شمالا وجنوبا لفترة من الزمن فى أرض حاران شمال العراق [1] وفى التوراة أن تارح نزح بأبرام ابنه ولوط بن حاران وساراى كنته امرأة ابنه ابراهيم من أور يريد أرض كنعان فعرجوا على حاران وأقاموا بهاوفى حاران مات تارح عن مائتى وخمس سنين من عمره [2] •

ومن حاران نزح ابرام بأمر الرب الى أرض كنعان ومعه ذخائره وعبيده وماشيته واختار مقامه من شكيم الى بلوطة ممرا حيث تقوم مدينة نابلس الآن [3] ثم نقل من هناك الى الجبل شرقى بيت ايل ونصب خيمته وله بيت ايل من المغرب وغاى من المشرق [4] • ثم كانت مجاعة فارتحل الى مصر وحل بها زمنا ثم ارتحل عنها

---

(1) Learsi Rufus : Israel. P. 3
(2) تكوين ١١ : ٢٧ ــ ٣٢
(3) العقاد : أبو الانبياء ص ١٨ هامش
(4) تكوين ١٢ : ٥ ــ ٨

عائدا الى حيث أقام خيمته بين بيت ايل وعاى وكان برفقته لوط ابن أخيه حاران الذى صحبه الى مصر • وشاء ابرام أن يفترق عن لوط فترك له الخيار فى الارض التى يسكنها « اذا ذهبت شمالا فأنا يمينا وان يمينا فأنا شمالا » وارتحل لوط شرقا ونقل خيامه الى حبرون عند بلوطات ممرا حيث أقام مذبحا للرب [1] •

ولا ندرى أكانت تتغير أرض الميعاد فيما لو اختار لوط الرحيل غربا وأقام فى أرض كنعان وترك الشرق لابرام أم أن الأرض المقدسة هى كل ما انتجع ابرام وذووه سواء كانت له أو للوط فانا نجد ابرام يتشفع لأهل سدوم لمقام لوط بينهم «فتقدم ابراهيم وقال أفتهلك البار مع الاثيم • عسى أن يكون خمسون بارا فى المدينة • افتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين بارا الذين فيه • حاشا لك أن تفعل مثل هذا الامر أن تميت البار مع الأثيم فيكون البار كالأثيم » [2] •

ثم نجد موسى يحذر قومه من العدوان على أرض أدوم فى خروجهم الى أرض كنعان « أنتم مارون بتخم اخوتكم بنى عيسو الساكنين فى سعير فيخافون منكم فاحترزوا جدا • لاتهجموا عليهم لانى لا أعطيكم من أرضهم ولا وطأة قدم لانى لعيسو قد اعطيت جبل سعير ميراثا [3] •

---

(١) تكوين ١٣ : ٨ – ١٣ – وحبرون هى الخليل الحالية
(٢) تكوين ١٨ : ٢٣ – ٣٣
(٣) تثنية ٣ : ٤ – ٥

ولما لم تلد ساراى دفعت زوجها ابرام للدخول بجاريتها المصرية هاجر فولدت له اسمعيل فكان أكبر أبنــائه رزق به وقد بلغ من العمر ستا وثمانين سنة، وفى التاسعة والتسعين من عمره وكان اسمعيل ابن ثلاث عشرة سنة عقد الرب مع ابرام عهد الختان وفيــه دعى بابراهيم ودعيت ساراى بسارة وبشر بابنه اسحق من سارة واختتن ابراهيم وجميع آل بيته من ذكر وليد البيت والمبتاع بفضه وكان اسمعيل أول من ختن من نسل ابراهيم (١)

وانتقل ابراهيم من مقامه جنوبا وأقام بين قادش وشور وتغرب فى جرار (٢) وولدت سارة اسحق وقد أوفى ابراهيم على المائة وختن اسحق ابن ثمانية أيام (٣) .

وغضبت سارة على هاجر «فقالت لابراهيم : اطرد هذه الجارية وابنها لأن ابن الجارية لا يرث مع ابنى اسحق فقبح الكلام جدا فى عينى ابراهيم » (٤) .

« وقال الله لابراهيم لا يقبح فى عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك فى كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها . لانه باسحاق يدعى لك نسل وابن الجارية أيضا سأجعله أمة لانه نسلك (٥) ».

(١) تكوين ١٧ : ٢٣ ـ ٢٧
(٢) تكوين ٢٠ : ١
(٣) تكوين ٢١ : ٢ ـ ٤
(٤) تكوين ٢١ : ٩ ـ ١١
(٥) تكوين ٢١ : ١٢ ـ ١٣

« فبكر ابراهيم صباحا وأخذ خبزا وقربة ماء وأعطاهما لهاجر واضعا اياهما على كتفها والولد وصرفها . فمضت وتاهت فى برية بئر سبع . ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت احدى الأشجار . ومضت وجلست مقابله بعيدا نحو رمية قوس . لأنها قالت لا أنظر موت الولد . فجلست مقابله ورفعت صوتها وبكت . فسمع الله صوت الغلام . ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها مالك ياهاجر . لاتخافى لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو . قومى واحملى الغلام وشدى يدك به لأنى سأجعله أمة عظيمة . وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء . فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام . وكان الله مع الغلام فكبر ، وسكن فى البرية ، وكان ينمو رامى قوس . وسكن فى برية فاران وأخذت أمه له زوجة من أرض مصر[١] » .

ولم تعرض التوراة لذكر اسمعيل بعد ذلك الا فى موضعين حين ذكرت وفاة ابراهيم فدفنه ابناه اسحق واسمعيل [٢] . وحين ذكرت بنى اسمعيل بأسمائهم حسب مواليدهم « نبايوت بكر اسمعيل وقيدار وأدبئيل ومبسام ومشماع ودومة ومسا وحدار وتيما وبطور ونافيش وقدمة . هؤلاء هم بنو اسمعيل وهذه أسماؤهم بديارهم وحصونهم اثنى عشر رئيسا حسب قبائلهم[٣] » .

---

(١) تكوين ٢١ : ١٤ ــ ٢١
(٢) تكوين ٢٥ : ٨ ــ ٩
(٣) تكوين ٢٥ : ١٢ ــ ١٦

ولا نحب أن نعرض لرواية التــوراة عن الارض التى نزلت هاجر بابنها اسمعيل ولا عن زوجه المصرية التى زوجته أمه هاجر فان القرآن والتاريخ يقص من أمرهما ما يختلف فى تفاصيله مع رواية التوراة فان ابراهيم قد خلف هاجر وولدها فى واد يبعــد كثيرا عن برية بئر سبع نحو الجنوب وكان نبع زمــزم فى ذلك الوادى البعيــد ولــكن هل كانت برية بئر سبع تمتد حينــذاك فتشمل كل بلاد العرب الشمالية ؟ وليس فى ذلك غرابة اذ أن برية بئر سبع هى الامتداد الطبيعى نحو الشمال للصحراء العربية وفى هذا الطريق المار بمكة وبرية بئر سبع كانت ترتحل قوافل التجارة بين الشمال والجنوب •

ومن ولد اسمعيل كانت العرب العدنانية ومن نسل اسحق كان بنو اسرائيل وقد ولد لاسحق توأمان « خرج الأول أحمر كلــه كفروة شعر رأسه فدعوا اسمه عيسو • وبعــد ذلك خرج أخوه ويده قابضة بعقب عيسو فدعى اسمه يعقوب [1] » •

ونال يعقوب بركة أبيه اسحق دون أخيه عيسو • وارتحــل يعقوب الى فدان آرام بالعراق ليتزوج من بنى خؤولته وفى عودته من العراق بعد عشرين عاما وفى بعض وحــدته خرج عليه انسان « وصارعه حتى طلوع الفجر • ولما رأى أنه لايقدر عليه ضرب حق

---

(١) تكوين ٢٥ : ٢٥ ــ ٢٦

فخذه فانخلع حق فخذ يعقوب فى مصارعته معه . وقال أطلقنى لانه قد طلع الفجر فقال لا أطلقك أن لم تباركنى . فقال ما أسمك فقال يعقوب فقال لايدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل اسرائيل لانك جاهدت مع الله والناس وقدرت » [1] .

وأصبح يعقوب يدعى اسرائيل فكانت نسبة بنى اسرائيل اليه ومسماهم بعد ذلك . أما عيسو فأصهر الى بنى اسمعيل واخذمحلة بنت اسمعيل بن ابراهيم أخت نبايوت زوجة له على نسائه ومن نسل عيسو كان الأدوميون سكان جبل سعير شرقى العربة التى سميت بأدوم [2] .

فابراهيم اذن هو الجد الأعلى للأسماعيليين والقطوريين والاسرائيليين وقد نزح ابراهيم كما قلنا من أور الكلدانيين الى أرض كنعان فدعى بالعبرى أى الذى جاء عبر الفرات [3] ودعى آله بالعبريين وفى تعليل آخر أن عبرى معناها ساكن البادية أو الصحراء [4] وجاءت فى مدونات تل العمارنة بمعنى القبائل الرحل وكان منها من يحترف الجندية ويصبح من الجنود المرتزقة [5]

وعلى ذلك نستطيع أن نقول أن العبريين هم أحد الفروع

---

(١) تكوين ٣٢ : ٢٤ — ٢٨
(٢) قاموس الكتاب المقدس ١ — ٥٣
(٣) Learsi, Rufus : P. 4
(٤) اسرائيل ولفنسون : تاريخ اللغات السامية ص ٧٧
(٥) العقاد : أبو الانبياء ص ١٦٢

العربية التى نزحت الى الهلال الخصيب فى أزمنة متفاوتة وان نسب كل من هذه الفروع العربية النازحة التى استقرت وتحضرت الى أقرب أبائها أو للمناسبة التى نزحت فيها أو للمدينة التى سكنتها فعرفوا بهذه الأسماء العديدة التى تطالعنا للقبائل والشعوب العربية فى الهلال الخصيب أو فى الجزيرة العربية ذاتها فان هذا لا يغير من حقيقة أنها كلها تنتسب الى أصل واحد وانها انحدرت جميعا من الجزيرة العربية وان لم يطلق عليها مسمى عرب فلأن كلمة عرب لم تكن تطلق الا على الأعراب أو سكان البادية ولو كانت تطلق بالمعنى الشامل الذى تطلق به الآن لعرفت هذه الشعوب كلها كما تعرف اليوم باسم العرب ولأصبحت كلمة عرب دليلا على المعنى القومى الذى يراد لها الآن •

والعبرى واليهودى كلمتان لا تعنيان أصلا واحدا ، فاليهودية نسبة الى اليهود وتعنى الذين يدينون باليهودية كدين وهى فى الأصل نسبة الى دولة يهودا وكان الفرس أول من أطلقها على الاسرائيليين حين نسبوهم الى دولتهم وليس الى يعقوب الذى سماه ملاك الرب اسرائيل ومن صلبه خرج الاسباط الاثنتى عشرة كل سبط أصبح أصلا لقبيلة من قبائل اسرائيل والعبرية من عبرى ولا تعنى كاليهودية دينا كما لا تعنى جنسية معينة وقد أطلقها الكنعانيون على ابراهيم وذويه ثم أصبحت تعنى من يدين باليهودية كما تعنى اللغة التى يتكلمها الاسرائيليون ، الا أن اللغة العبرية لم تكن فى الأصل لغة ابراهيم بل كانت لغة الكنعانيين • فقد كان

ابراهيم يتكلم لغة يقال انها السريانية حتى غدت العبرية لغة اليهود مقدسة تثير فى نفوسهم من ذكريات الماضى البعيد ما تثيره أرض الميعاد وأورشليم والمعبد فيحفظون تراثها ويحيون آدابها ويربطون بينها وبين ماضيهم ويصبح احياء اللغة العبرية كالعودة الى أرض الميعاد أمل اليهود المقدس ولب الدعوة الصهيونية فى خرافة القومية اليهودية •

فالعرب والعبريون أبناء عمومة ينحدرون من صلب واحد صلب سام بن نوح ومن صلب ابراهيم وأبنائه انحدرت شعوب عربية كثيرة كما انحد بنو اسرائيل أحفاد يعقوب •

وما يجرى على اسرائيل من وعود الرب يجرى على غيرهم من أبنائه وأحفاده فاذا تحيف اليهود على التوراة وقصروا وعود الرب عليهم فهو اجتراء على تفسير الوعود بغير ما قصدت ومارمت اليه واذا كان لبنى اسرائيل ميزة على أبناء عمومتهم العرب فهى الميزة التى كانت لسارة ولولدها اسحق لدى ابراهيم وهى الميزة التى اغتصبها يعقوب وكانت حقا لعيسو عند أبيهما اسحق فقد كان فى نية اسحق أن يخلف ابنه عيسو وكان يؤثره على يعقوب ولكن حب أمهما ليعقوب جعلها تحتال له لينال بركة أبيه بدل عيسو • ونرى ان المرأة لعبت دورها فى كلا الحالين على غير هوى الرجل فسارة هى التى حملت ابراهيم على طرد هاجر وابنها اسمعيل ورفقة زوجة اسحق هى صاحبة الحيلة التى احتال بها يعقوب على أبيه والايثار كان لحمل الدعوة والسير بالنبوة ولم يكن ايثارا بالارث والملك والزعامة •

الفصل الثالث

الوعد المقدس

ابراهيم أب العرب وأب الانبياء جميعــا ، وهو ابرام قبل أن يدعى ابراهيم بأمر الرب[1] ، ولد فى أور الكلدانيين ونشأ بها ونزح منها مع أبيه وابن عمه لوط الى حاران حتى عبر منها بأمر الرب الى كنعان[3] فدعى بالعبرى ودعى قومه بالعبريين وظل ابراهيم يتجول فى أرض كنعان غريبا فيها وانحدر منها الى مصر حين أصابت البلاد مجاعة ونال فيها خيرا « فصار له غنم وبقــر وحمير واماء وأتن وجمال[4] » ثم صعد من مصر الى أرض كنعان الى حيث أقام مذبح الرب ونصب خيمته فى البداية بين بيت ايل وعاى[5] .

---

(١) تكوين ١٧ : ٥
(٢) تكوين ١١ : ٢٧ — ٢٩
(٣) تكوين ١١ : ٣١ ، ١٢ : ١ — ٩
(٤) تكوين ١٢ : ١٦
(٥) تكوين ١٣ : ٣

وكان أول وعد الرب لابراهيم حين أمر بالعبور الى كنعان « وقال الرب لابرام اذهب من أرضك وعشيرتك ومن بيت أبيك الى الأرض التى أريك • فاجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك • وتكون بركة• وأبارك مباركيك ولاعنك ألعنه• وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض[1] » •

وحق وعد الله فكان من نسل ابراهيم أمة هى أمة العرب كما كان بنو اسرائيل بعض نسله ، وكان منه الأنبياء والرسل ، وبورك اسمه فى كل دين ، ومن رسالته أهلت كل رسالات السماء ، اليهودية والنصرانية والاسلام •

ولم يلعن من آل ابراهيم غير اليهود فقد ضلوا هديه ، وامتهنوا رسالته ، وحوروها عنصرية هوجاء ماكرة ، فاستباحوا فيها كل فضائل البشر •

ثم كان وعد الرب لابراهيم بالارض التى هو عليها وكانت أرض كنعان ، فلسطين ، وكان هذا أول وعد بأن تكون فلسطين لذرية ابراهيم • « وظهر الرب لابرام وقال لنسلك أعطى هذه الارض • فبنى هناك مذبحا للرب الذى ظهر له[2] » •

والمعنى واضح فى « نسلك » فانها تشمل كل نسل ابراهيم لا بعضه كما يريد اليهود لها أن تكون •

---

(١) تكوين ١٢ : ١ — ٢
(٢) تكوين ١٢ : ٧

وكان هذا الوعد قبل أن يرزق ابراهيم ولدا أو ذرية ولم يكن اسماعيل واسحاق قد ولدا بعد •

وتكرر الوعد قبل مولدهما أيضا وكان ذلك حين اعتزل ابراهيم أخاه لوطا واختار لوط لنفسه كل دائرة الاردن وارتحل شرقا • واعتزل كلاهما الآخر • أبراهيم سكن فى أرض كنعان ولوط سكن فى مدن الدائرة ونقل خيامه الى سدوم « وقال الرب لابرام بعد اعتزال لوط عنه • ارفع عينيك وانظر من الموضع الذى أنت فيه شمالا وجنوبا وشرقا وغربا • لان جميع الارض التى انت ترى لك أعطيها ولنسلك الى الابد • واجعل نسلك كتراب الارض • حتى اذا استطاع أحد أن يعد تراب الارض فنسلك أيضا يعد • قم امش فى الارض طولها وعرضها لانى لك اعطيها • فنقل ابرام خيامه وأتى وأقام عند بلوطات ممرا التى فى حبرون • وبنى هناك مذبحا للرب [1] » •

وفى هذا الوعد تخرج كل دائرة الاردن شرقا من أرض الميعاد ويقف الوعد بأرض الميعاد عند حدود الارض التى يراها ابراهيم فى جهاتها الاربع •

وحين بشر ابراهيم بالارث لنسله ولمن «يخرج من أحشائه [2]»

---

(١) تكوين ١٣ : ١٤ ــ ١٨
(٢) تكوين ٢٥ : ٤

كان اسمعيل أول من ولد له بعدماطلبت منه زوجه سارة أن يدخل بجاريتها هاجر حتى يكون له منها نسل بعد أن ظلت عقيما ، وجاء الوعد بهذا الارث محددا « فى ذلك اليوم قطع الرب مع ابرام ميثاقا قائلا . لنسلك أعطى هذه الارض من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات. القينيين والقنزيين والقدمونيين. والحيثيين والفرزيين والأموريين والكنعانيين والجرجاشيين واليبوسيين [1] ».

واقتران الوعد هنا بمولد اسمعيل أو البشرى بمولده وبالارث لابراهيم من صلبه يعنى أن الوعد كان لاسمعيل والارث له فاذا عم الارث أبناء ابراهيم جميعا فمعنى ذلك أنه ليس لاسحق أو لنسله من يعقوب أو (اسرائيل) وحدهم بل هو للعرب أيضا وهم نسل ابراهيم .

وفى رواية التوراة مصداق ذلك وتوكيد له ففى الكثرة التى يشير بها الرب الى نسل ابراهيم ما ينطبق على نسل اسمعيل دون نسل اسحق ، فقد أصهر أبناء اسمعيل الى أبناء أخيه اسحق حين تزوج عيسو شقيق يعقوب وابن اسحق من محلة ابنة اسمعيل أما يعقوب فقد أصهر الى أبناء خؤولته من الكلدانيين وبعدت نسبة الارث من ابراهيم اليه بينما اقتربت بزواج عيسو بن اسحق من محلة ابنة اسمعيل .

واجتمع فى نسلهما أكثر أبناء براهيم وكانوا هم الكثرة وأبناء

---

(1) تكوين ١٥ : ١٨ – ٢٠

يعقوب وهو اسرائيل القلة وكانت كثرتهم مصداق ما بشر به الرب ابراهيم « وقال ابرام أيضا انك لم تعطني نسلا وهو ذا ابن بيتى وارث لى . فاذا كلام الرب اليه قائلا . لا يرثك هذا . بل الذى يخرج من أحشائك هو يرثك . ثم أخرجه الى خارج . وقال انظر الى السماء وعد النجوم ان استطعت أن تعدها . وقال له هكذا يكون نسلك (١) » .

ثم دخل ابراهيم بهاجر لتلد له بكره اسمعيل ويقترن هذا الوعد بمولده ويكثر أبناءه حتى يصبحوا عدد نجوم السماء كما وعد الرب وتكون منهم أمة العرب التى امتدت وملأت بقاع تلك الساحة الرحيبة التى تعرف بالعالم العربى اليوم ، وذهب أبناء اسحق من الاسرائيليين قلة ، بددا فى كل صقع من أصقاع الارض .

وكان عهد الختان ، ختان اسمعيل ، ولم يكن اسحق قد ولد بعد ، ولا يمكن أن ترتبط النبوءة بمن كان فى ضمير الغيب لا يعلم عنه أبوه شيئا ولا تعلم أمه سارة ان الله سيفك عسرتها ويأسو عقمها لتلد اسحق وقد نيف اسمعيل على الثالثة عشر من عمره « ولما كان ابرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لابرام وقال له أنا الله القدير . سر أمامى وكن كاملا . فاجعل عهدى بينى وبينك وأكثرك كثيرا جدا . فسقط أبرام على وجهه . وتكلم الله معه

---

(١) تكوين ١٥ : ٣ — ٥

قائلا . أما أنا فهو ذا عهدى معك وتكون أبا لجمهور من الامم . فلا يدعى اسمك بعد أبرام بل يكون اسمك ابراهيم ، لأنى اجعلك أبا لجمهور من الأمم . وأثمرك كثيرا جدا واجعلك أمما وملوك منك يخرجون . وأقيم عهدى بينى وبينك وبين نسلك من بعدك فى أجيالهم عهدا أبديا لأكون الها لك ولنسلك من بعدك . وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكا أبديا ، وأكون الههم (١) » .

ثم يعاهده الله على الختان « هذا هو عهـدى الذى تحفظونه بينى وبينكم وبين نسـلك من بعـدك . يختن منكم كل ذكر . فتختنون فى لحم غرلتكم ، فيكون علامة عهد بينى وبينكم . ابن ثمانية أيام يختن منكم كل ذكر فى أجيالكم ، وليد البيت والمبتاع بفضه من كل ابن غريب ليس من نسلك . يختن ختانا وليد بيتك والمبتاع بفضتك ، فيكون عهدى فى لحمكم عهدا أبديا . وأما الذكر الأغلف الذى لا يختن فى لحم غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها . انه قد نكث عهدى (٢) » .

وفى عهد الختان هذا ، يبشر الله ابراهيم بحمل سارة ومولد اسحق « وقال الله لابراهيم سارای امرأتك لا تدعو اسمها سارای بل اسمها سارة . وأباركها وأعطيك أيضا منها ابنا . أباركها فتكون أمما وملوك شعوب منها يكونون (٣) » .

(١) تكوين ١٧ : ١ — ٨
(٢) تكوين ١٧ : ١٠ — ١٤
(٣) تكوين ١٧ : ١٥ — ١٦

ونرى من سياق الوعود والغهود ، أن الوعد بأرض كنعان لنسل ابراهيم قد سبق بشراه تعالى لابراهيم بحمل سارة ومولد اسحق ، ثم كان عهده بعد ذلك لأبناء سارة « أباركها فتكون أمما وملوك شعوب منها يكونون » مايؤكد أن عهد الختان كان لاسمعيل وحده والا ما كان هناك عهد جديد لاسحق اذا كان عهد الختان يشمل ذرية ابراهيم جميعا من ولد ومن لم يولد بعد من هاجر أو سارة أوقطورة ، وان كانت كلمة نسل لاتعنى التحديد والتخصيص بل الجمع والشمول .

ولا يمكن القول بأن ولادة اسحق قد مست حق اسمعيل أو أن ارتحال هاجر بولدها اسمعيل عن أرض كنعان نحو الجنوب قد حرمه من ارث النبوءة أو الوعد أو نسخ عهد الختان ، فان كان الرب قد استجاب لسارة ففى التفريق بينها وبين هاجر لا فى حرمان اسمعيل من ارث أبيه ابراهيم « ورأت ساره ابن هاجر المصرية الذى ولدته لابرهيم يمزح ، فقالت اطرد هذه الجارية وابنها ، لان ابن هذه الجارية لا يرث مع ابنى اسحق ، فقبح الكلام جدا فى عينى ابراهيم لسبب ابنه . فقال الله لابراهيم لا يقبح فى عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك . فى كل ما تقول لك ساره اسمع لقولها . لأنه بأسحق يدعى لك نسل . وابن الجارية أيضا سأجعله أمة لأنه نسلك » (١) .

---

(١) تكوين ٢١ : ٩ ــ ١٧

ويغفل العهد القديم بعد ذلك ذكر اسمعيل الا أنه لايذكر فى أي سفر من أسفاره بعد ذلك ما يفيد أو يشير الى حرمان اسمعيل أو ذريته من عهد الرب مع ابراهيم كما لا يذكر العهد القديم بعد ذلك أيضا ما يفيد حرمان اسمعيل من عهد الرب مع ابراهيم وكل اشارة الى اسرائيل بأرض الميعاد جاءت قرينة العهد الذى عاهد الرب عليه أباهم ابراهيم فقد كانت كلها من قبيل التذكير بوعد الرب لابراهيم وذريته وكانت جميعا قاصرة على أرض الكنعانيين وجيرانهم من الحيثيين والفرزيين واليبوسيين [1] ونم يرد مايشير الى تخوم أرض الميعاد وامتدادها من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات الا اشارات مبهمة تصعد حينا الى لبنان وأحيانا الى قادش والأردن وبحور وأنهار مجهولة وحين أشير الى نوع من الحدود كانت تلك الحدود من « بحر سوف الى بحر فلسطين ومن البرية الى النهر » [2] وهى حدود لا شك غامضة .

ولا نجد فى سفر التكوين ما يشير الى وعد من الرب لاسحق بأرض الميعاد بل حين ظهر له الرب بعد سنين من وفاة ابراهيم لم يمنحه غير البركة « فظهر له الرب فى تلك الليلة وقال أنا اله ابراهيم ابيك . لا تخف لانى معك وأباركك واكثر من نسلك من أجل ابراهيم عبدى » [3] ولميزد الوعد ليعقوب عن الارض التى هو

(١) خروج ٣٣ : ١ ـ ٢
(٢) خروج ٢٣ : ٣١
(٣) تكوين ٢٦ : ٢٣ ـ ٢٤

مضطجع عليها « فخرج يعقوب من بئر سبع وذهب نحو حاران • وصادف مكانا وبات هناك لأن الشمس كانت قد غابت • وأخذ من حجارة المكان ووضعه تحت رأسه فاضطجع فى ذلك المكان • ورأى حلما واذا سلم منصوبه على الأرض ورأسها يمس السماء • وهوذا ملائكة الله صاعدة ونازلة عليها • وهوذا الرب واقف عليها فقال أنا الرب اله ابراهيم ابيك واله اسحق • الأرض التى أنت مضطجع عليها لك ولنسلك • ويكون نسلك كتراب الارض وتمتد غربا وشرقا وشمالا وجنوبا • ويتبارك فيك وفى نسلك جميع قبائل الأرض [١] » •

ولا يفيد الامتداد غربا وشرقا وشمالا وجنوبا نوعا من التملك بل قد لا يعدو معنى الرحيل ، أما كثرة النسل فهى كثرة نسبية فان الاسرائيليين كانوا على الدوام قلة اذا قيسوا بذرية ابراهيم من اسماعيل ومن أبنائه الآخرين الذين أصهروا الى الاسماعيليين ، وليس لمسيحى أو مسلم ان ينكر بركة اسرائيل فقد تقدس ابراهيم وكل ذريته فى المسيحية والاسلام •

ويتكرر الوعد مرة أخرى ليعقوب فى صورة تكادتكون محددة ولكنها لا تعنى حرمان غيره من ذرية ابراهيم من ارث أبيهم « وقال له الله أنا الله القدير أثمر وأكثر • أمة وجماعة أمم تكون منك •

---

(١) تكوين ٢٨ : ١٠ — ١٤

والمعنى واضح فى ثبوت حق الغلامين قبل ابراهيم فكل منهما سيكون له نسل ينسب الى أبيهما ابراهيم أما اسمعيل فقد تميز بأن سيكون من نسله أمة وتعنى الجمع أو الكثرة ثم نسبة هذه الأمة الى ابراهيم لأنه نسله ، وأما كلمة النسل فتعنى التحديد أو القلة، وقد كان من اسمعيل أمة هى أمة العرب وكان من اسحق نسل هم بنو اسرائيل •

ولا تعرض اشارة الرب فى تلك الآيات الى أرض الميعاد التى وعد الرب بها ابراهيم من قبل بل ولا يتكرر الوعد بعد ذلك فيما تلا من حياة ابراهيم ، وظل عهد الختان جماع الوعد المقدس بأرض الميعاد •

وقد ادعى الاسرائيليون من أبناء اسحق بعد ذلك أن ذرية ابراهيم تعنيهم وحدهم مع أن الختان الذى عقد عليه العهد بين الرب وابراهيم كان ختان اسمعيل ، لا اسحق •

ولم يحدث تفريق بين اسمعيل واسحق حين مات ابراهيم فقد اشتركا معا فى دفنه « ودفنه اسحق واسمعيل أبناه فى مغارة المكفيلة فى حقل عفرون بن صوحر الحثى الذى أمام ممرا » (١) • ولما ذكر سفر التكوين أبناء اسمعيل ذكر بعدهم أبناء اسحق (٢)

---

(١) تكوين ٢٥ : ٩
(٢) تكوين ٢٥ : ١٢ — ٢٦

وملوك سيخرجون من صلبك • والأرض التى أعطيت ابراهيم واسحق لك أعطيها • ولنسلك من بعدك أعطى الأرض[1] » فان يعقوب تفسه حين حضرته الوفاة لم يسو بين أبنائه فى نوال بركته وجعل لكل منهم وهم الذين عرفوا بأسباط اسرائيل الاثنتى عشر من بركته على قدر ما رأى فيهم[2] •

وحين اختار الله موسى نبيا لبنى اسرائيل ليقودهم من مصر الى أرض كنعان وهو من نسل لاوى من يعقوب ، وكان يعقوب قد حرم ابنه لاوى من بركته « شمعون ولاوى اخوان • ألات ظلم سيوفهما • فى مجلسهما لاتدخل نفسى • بمجمعهما لا تتحد كرامتى لأنهما فى غضبهما قتلا انسانا وفى رضائهما عرقبا ثورا • ملعون غضبهما فانه شديد وسخطهما فانه قاس • أقسمهما فى يعقوب وافرقهما فى اسرائيل[3] » • ولا نجد تفسيرا لحرمان لاوى من بركة أبيه ثم تكون الرسالة بعد ذلك فى عقبه أما وأبا • « وذهب رجل من بيت لاوى وأخذ بنت لاوى • فحبلت المرأة وولدت ابنا[4] » وكان هذا الولد موسى كما تجرى الرواية بذلك ، ولانجد تفسيرا لحرمان لاوى من بركة يعقوب ثم

---

(١) تكوين ٣٥ : ١١ — ١٢
(٢) تكوين ٤٩ : ١ — ٣٣
(٣) تكوين ٤٩ : ٥ — ٧
(٤) خروج ٢ : ١ — ٢

انتهاء البركة اليه بولادة موسى ، الا أن يكون بعض ما جاء على لسان يعقوب قد حرف تحريفا شديدا ، بل أن هناك من يقول أن وعد الرب ليعقوب بوراثة ابراهيم واسحق كان لتبرير اغتصاب يعقوب بحيلة أمه لحق أخيه عيسو •

ثم أن موسى نفسه فى رحيله الى مدين (مديان) فارا من وجه فرعون قد أصهر الى كاهنها يثرو وهو رجل عربى عرف فى التوراة باسم « يثرون » وفى القرآن باسم شعيب والى يثرو يعزى أكثر ما نال موسى من نجاح • فاذا كانت هناك بركة لاسرائيل أو ارث، فقد شارك فيهما عربى من غير اسرائيل بل لعله من ذرية ابراهيم أولاد قطورة الذين ارتحلوا جنوبا أو من نسل مديان بن ابراهيم من قطورة بالذات •

ولما تجلى الرب لموسى فى طور سيناء وحمله رسالة الخروج باسرائيل من أرض مصر الى أرض كنعان لم يرد فى كلام الرب مايفيد أن الصعود الى أرض كنعان كان يعنى ملكيتهم لها ، بل كان الصعود للتحرر من استعباد المصريين لهم والخلاص من ظلمهم « أما موسى فكان يرعى غنم يثرون حميه كاهن مديان • فساق الغنم الى وراء البرية وجاء الى جبل الله حوريب • وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط عليقة • فنظر واذا العليقة تتوقد بالنار والعليقة لم تكن تحترق • فقال موسى أميل الآن لأنظر هذا المنظر العظيم • لماذا لا تحترق العليقة • فلما رأى الرب أنه مال لينظر

ناداه الله من وسط العليقة وقا لموسى موسى • فقال هأنذا • فقال لا تقترب الى ههنا • اخلع حذاءك من رجليك • لأن الموضع الذى أنت واقف عليه أرض مقدسة •

ثم قال أنا اله أبيك ابراهيم واله اسحق واله يعقوب ، فغطى موسى وجهه لأنه خاف أن ينظر الى الله • فقال الرب انى قد رأيت مذلة شعبى الذى فى مصر وسمعت صراخهم من أجل مسخريهم • انى علمت أوجاعهم • فنزلت لأنقذهم من أيدى المصريين وأصعدهم من تلك الأرض الى أرض جيدة وواسعة • الى أرض تفيض لبنا وعسلا • الى مكان الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين (١) » ٥

---

(١) خروج ٣ : ١ ــ ٨

ــ لعل من المناسب فى هــذا المقــام أن نذكر ما جرت به آيات القرآن عن ذلك : ــ

« وهل أتاك حديث موسى . اذ رأى نارا فقال لأهــله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هــدى . فلما آتاها نودى يا موسى . انى أنا ربك فاخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى . وأنا اخترتك فاســـتمع لما يوحى . اننى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى . ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى . » (طه : ٩ ــ ١٥)

فإذا تتبعنا ما جاء من تذكير الرب لموسى وقومه بأرض الميعاد نجد أن المعنى يختلف عما أراد بنو اسرائيل من تفسير الوعد تفسيرا ماديا يقوم على التملك والارث ولا شيء سواهما ، بينما الدلالة بينة على معنى آخر ، هو القداسة والكهانة وطاعة الرب والارث للطاعة وليس الارث لمن يضل كائنا ما كان شأنه فى بنى اسرائيل • فالقداسة هي قداسة الله الواحد الأحد والكهانة هى خدمة الله فى محاريبه والقيام على وصاياه وتعاليمه والارث فى نعم الله هى لمن يطيع الله فى أوامره ونواهيه ، وقد كانت الرسالة لابراهيم فى ذريته ومات عنها وبركته مشاع بين بنيه ، فلما حملها اسحق من بعده كان يحب أن تكون بركته لبكره عيسو دون يعقوب، ولكن أمهما رفقة وكانت تحب يعقوب أكثر مما تحب عيسو احتالت حتى تحل البركة فى يعقوب بدل عيسو « وحدث لما شاخ اسحق وكلت عيناه عن النظر أنه دعا عيسو ابنه الأكبر وقال له يا بنى • فقال هأنذا • فقال اننى قد شخت ولست أعرف يوم وفاتى • فالآن خذ عدتك جعبتك وقوسك واخرج الى البرية وتصيد لى صيدا • واصنع لى أطعمة كما أحب وائتنى بها لآكل حتى تباركك نفس قبل أن أموت •

وكانت رفقة سامعة اذا تكلم اسحق مع عيسو ابنه • فذهب عيسو الى البرية كى يصطاد صيدا ليأتى به • وأما رفقة فكلمت يعقوب ابنها قائلة انى سمعت أباك يكلم عيسو أخاك قائلا ائتنى

بصيد واصنع لى أطعمة لآكل وأباركك أمام الرب قبل وفاتى . فالآن يا بنى اسمع لقولى فيما أنا آمرك به . اذهب الى الغنم وخذ لى من هناك جديين جيدين من المعزى . فأصنعهما أطعمة لأبيك كما يحب . فتحضرها الى أبيك ليأكل حتى يباركك قبل وفاته [1] »

وتمضى الرواية فتقول ان يعقوب خشى أن يكشف أبوه حيلته فتحل به اللعنة بدل البركة ولكن رفقة شجعته وطمأنته وأعدت له من ثياب عيسو ما يخفيه ومن سمة التنكر ما يجعله شبيها بعيسو ، ودخل يعقوب على أبيه فى هيئته الجديدة فأطعمه ونال بركته ولم يكن عيسو قد آب من صيده [1] .

فالارث هو ارث البركة أو الرسالة وليس ارث الأرض ، والأرض للمؤمنين من عباد الله والاختيار لمن اختارهم الله لعبادته ، وقد اختار الله بنى اسرائيل من ذرية ابراهيم لتكون رسالة اسحق ويعقوب وموسى اليهم ، حتى اذا حلت الرسالة فى المسيح عيسى ابن مريم نسخت ميزة الاختيار عن اسرائيل وأصبحت الرسالة للناس كافة وأضحى ملكوت الله لكل من عبد الله على الأرض من ذرية ابراهيم أو غير ذريته ، ومريم هى ابنة عمران وينتهى نسب عمران الى ابراهيم أيضا ، ثم كانت رسالة محمد للناس كافة

---

(١) تكوين ٢٧ : ١ — ١١
(٢) تكوين ٢٧ : ١٢ — ٣٨

فنسخت الى الأبد حق الاختيار والميزة التى كانت لذرية ابراهيم على غيرهم ولم يعد لعربى فضل على عجمى الا بالتقوى ، ومحمد من ذرية ابراهيم ينتهى نسبه الى اسمعيل .

فاذا كان بنو اسرائيل هم شعب الله المختار فقد كان هذا حين كانت رسالة الأنبياء اليهم وحدهم ،وحين عمت الرسالة انسحب الاختيار الى كل من آمن بالله واليوم الآخر اسرائيليا كان أم مسيحيا أم مسلما . والمختار هو المختار للرسالة وليس للتميز أو التفضيل على البشر .

أما ابراهيم وذريته فقد ظل ارث البركة أو الرسالة فيهم وحدهم حتى محمد آخر الأنبياء وأصبحت أرض البركة أو أرض الرسالة أو أرض الميعاد وهى قدس الأديان السماوية جميعا ، هى ارث المؤمنين من عباد الله لا ارث اسرائيل وحدها ، وحين خص الله بها بنى اسرائيل على غيرهم من الكنعانيين والحيثيين والأموريين واالفرزيين والحويين واليبوسيين فلأنهم هم وحدهم من خصهم الله بعبادته فى ذلك الوقت ولم يرد الله لأرض قدسه أن تكون لغير المؤمنين فأصعد اليها بنى اسرائيل لتكون لهم أرضا وسكنا بدل شعوب أو قبائل تعبد الأصنام من دونه تعالى ، وحرم عليهم عشرة أهلها حتى لا تعدو عليهم الوثنية بعد عبادة الله ، « لا تقطع معهم ولا مع آلهتهم عهدا . لا يسكنوا فى أرضك لئلا يجعلوك تخطىء

الى • اذا عبدت آلهتهم فانه يكون لك فخا [1] »

وأوصاهم الرب بطاعته والخضوع لشريعته فمن ضل منهم يقطع من شجرته ويذهب ملعونا فى الأرض « أحفظ ماأنا موصيك اليوم • ها أنا طارد من قدامك الأموريين والكنعانيين والحيثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين • احترز من أن تقطع عهدا مع سكان الأرض التى أنت آت اليها لئلا يصيروا فخا فى وسطك• بل تهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم وتقطعون سواريهم • فانك لا تسجد لاله آخر• لأن الرب اسمه غيور • اله غيور هو• احترز من أن تقطع عهدا مع سكان الأرض • فيزنون وراء آلهتهم ويذبحون لآلهتهم فتدعى وتأكل من ذبيحتهم • وتأخذ من بناتهم لبنيك • فتزنى بناتهم وراء آلهتهن ويجعلن بنيك يزنون وراء آلهتهن [2] • وفى اللاويين « بكل هذه لا تتنجسوا لأنه بكل هذه قد تنجس الشعوب الذين أنا طاردهم من أمامكم • فتنجست الأرض • فأجتزى ذنبها منها فتقذف الأرض سكانها • لكن تحفظون أنتم فرائضى وأحكامى ولا تعملون شيئا من جميع هذه الرجسات لاالوطنى ولاالغريب النازل فى وسطكم •لأن جميع هذه الرجسات قد عملها أهل الأرض الذين قبلكم فتنجست الأرض فلا تقذفكم

(١) خروج ٢٣ : ٢١ – ٢٣
(٢) خروج ٣٤ : ١١ – ١٨

الأرض بتنجيسكم اياها كما قذفت الشعوب التى قبلكم . بل كل من عمل شيئا من جميع هذه الرجساب تقطع الأنفس التى تعملها من شعبها . فتحفظون شعائرى لكى لا تعملوا شيئا من الرسوم الرجسة التى عملت قبلكم ولا تتنجسوا بها . أنا الرب الهكم [1] » .

واذا كان الله قد أنعم عليهم وفضلهم على العالمين فان نذيره اليهم بالعذاب شديد ان خالفوا وصاياه ، وضلوا عهده . « لكن ان لم تسمعوا لى ولم تعملوا كل هذه الوصايا وان رفضتم فرائضى وكرهت أنفسكم أحكامى فما عملتم كل وصاياى بل نكثتم ميثاقى فانى أعمل هذه بكم . أسلط عليكم رعبا وسلا وحمى تفنى العينين وتتلف النفس وتزرعون باطلا زرعكم فيأكله أعداؤكم . واجعل وجهى ضدكم فتنهزمون أمام أعدائكم ويتسلط عليكم مبغضوكم وتهربون وليس من يطردكم [2] » .

ويستمر نذير الرب فيقول « واذا كنتم بذلك لا تسمعون لى بل سلكتم معى بالخلاف . فأنا أسلك معكم بالخلاف ساخطا وأؤدبكم سبعة أضعاف حسب خطاياكم . فتأكلون لحم بنيكم . ولحم بناتكم تأكلون . وأخرب مرتفعاتكم وأقطع شمساتكم وألقى جثثكم على جثث أصنامكم وترذلكم نفسى . وأصير مدنكم خربة ومقادسكم موحشة ولا أشتم رائحة سروركم . وأوحش الأرض

---

(١) لاويين ١٨ : ٢٤ — ٣٠
(٢) لاويين ٢٦ : ١٤ — ١٧

فيستوحش منها أعداؤكم الساكنون فيها • وأذريكم بين الأمم وأجرد وراءكم السيف فتصير أرضكم موحشة ومدنكم خربة ••• والباقون منكم ألقى الجبانة فى قلوبهم فى أراضى أعدائهم فيهزمهم صوت ورقة مندفعة فيهربون كالهرب من السيف ويسقطون وليس طارد • ويعثر بعضهم ببعض كما من أمام السيف وليس طارد ولا يكون لكم طارد ولا يكون لكم قيام أمام أعدائكم • فتهلكون بين الشعوب وتأكلكم أرض أعدائكم • والباقون منكم يفنون بذنوبهم فى أراضى أعدائكم • وأيضا بذنوب آبائهم معهم يفنون [1] »

فوعد الرب لم يكن مطلقا من كل قيد أو شرط بل العهد على الايمان والمحبة وطاعة الله واتباع سواء السبيل ، فلما ضلوا حل عليهم العذاب وحاقت بهم اللعنة فتاهوا فى البرية سنين عددا وحل بهم القحط والوباء « فى هذا القفر تسقط جثثكم جميع المعدودين منكم حسب عددكم من ابن عشرين سنة فصاعدا الذين تذمروا على • لن تدخلوا الأرض التى رفعت يدى لأسكنكم فيها ما عدا كالب بن يفنة ويشوع بن نون • وأما أطفالكم الذين قلتم يكونون غنيمة فانى سأدخلهم فيعرفون الأرض التى احتقرتموها • فجثثكم أنتم تسقط فى هذا القفر • وبنوكم يكونون رعاة فى القفر أربعين سنة ويحملون فجوركم حتى تفنى جثثكم فى القفر • كعدد الايام التى تجسستم فيها الأرض أربعين يوما للسنة يوم تحملون ذنوبكم أربعين سنة فتعرفون ابتعادى • أنا الرب قد تكلمت لأفعلن هذا

---

(١) لاويين ٢٦ : ٢٧ – ٣٣ ، ٣٦ – ٤٠

بكل هذه الجماعة الشريرة المتفقة على • فى هذا القفر يفنون وفيه يموتون [1] » •

فأرض الميعاد هى لمن آمن بالله واليوم والآخر والارث فيها للمؤمنين ، والاختيار هو للأرض وليس للشعب • والأرض هى الأرض المقدسة لا تنصب فيها أزلام أو أنصاب لعبادتها من دون الله ، وقد اختار الله من ذرية ابراهيم ليسكنوا تلك الأرض المقدسة لأن الرسالة كانت لابراهيم ثم للمختارين من ذريته ، ولأن الله أراد لتلك الأرض أن تكون مطهرة طهورا ، فاختار لها المطهرين ولم يكن غير بنى اسرائيل فى تلك الحقب من حظوا برسالة الرب ، حتى اذا انتقلت الرسالة الى غيرهم من بطون ابراهيم انتقلت اليهم الحظوة وأصبحوا هم المختارين ، وقد ادعى اليهود الاختيار لأنفسهم فقالوا انهم شعب الله المختار وكان ذلك حقا حين لم يكن غيرهم من يعبد الله ولكن الاختيار كان للايمان برسالة الله ، أما الاختيار الأبدى فهو للأرض المقدسة ، تلك الأرض التى غدت قدسا ومحرابا لكل أديان السماء •

وقد وعد الله ألا يدخل الى الأرض المختارة من بنى اسرائيل الا كل من آمن واتقى وعمل صالحا أما المرتدون فقد أفناهم قبل أن تطأها أقدامهم ، بل ان غضب الرب الذى لحق بهم قد لحق

---

(١) عدد ١٤ : ٢٩ — ٣٥

بموسى نفسه فلم يدخل الأرض المختارة ومات وهو على أبوابها .
« وغضب الرب على بسببكم وأقسم أنى لا أعبر الأردن ولا أدخل الأرض الجيدة التى الرب الهك يعطيك نصيبا . فأموت أنا فى هذه الأرض . لا أعبر الأردن . وأما أنتم فتعبرون وتمتلكون تلك الأرض الجيدة . احترزوا من أن تنسوا عهد الرب الهكم الذى قطعه معكم وتصنعوا لأنفسكم تمثالا منحوتا صورة كل مانهاك عنه الرب الهك . لأن الرب الهك هو نار آكله اله غيور [1] » .

فاختيار اسرائيل كان اختيارا موقوتا بالرسالة فلما خرجت الرسالة منهم زال الاختيار عنهم ، وليس فى عبارة « لك أعطيها ولنسلك الى الأبد [2] » وهى التى يستند اليها الاسرائيليون دليلا على أبدية ملك اسرائيل ، ما يفيد معنى الأبدية أو الاستمرار فكلمة « أولام » العبرية لا تعنى الى الأبد وانما تحمل معنى القدم وتعنى الزمن الطويل ، هذا اذا أخذنا بتفسير الاسرائيليين لوعد الرب المقدس ، وانه لاسرائيل من دون ذرية ابراهيم وليس لكل ذرية ابراهيم .

وثمة حقيقة أخرى تبرز من ثنايا المقارنة بين ما وعد الله به ابراهيم فى عهد الختان وبين ما وعد الله به يعقوب وموسى من أنبياء اسرائيل ، ففى عهد الختان تمتد أرض الميعاد من « نهر مصر الى

---

(١) تثنية ٤ : ٢١ ـ ٢٤
(٢) تكوين ١٣ : ١٥

النهر الكبير نهر الفرات » بينما لم يزد الوعد ليعقوب وموسى وأنبياء اسرائيل على أرض كنعان وما حواليها من أراضى الحيثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين مما يقع على ضفتى الأردن أو يمتد أحيانا ليضم بقاعا من لبنان وفلسطين وبعض بلاد سورية ولكنه لا يشمل كل هاتيك البقاع كاملة. فقد انتشر أبناء ابراهيم وذريته فى كل تلك البقاع قبل أن يصعد الاسرائيليون الى أرض كنعان الى الغرب من الأردن ، فارتحلت هاجر بولدها اسمعيل الى الجنوب من برية فاران وتكاثر نسل اسمعيل فكانت منه العرب العدنانية ، وسكن أولاد قطورة فيما يبدو الى الجنوب من فلسطين والى أحد بطونهم أصهر موسى ، أما أبناء عيسو فكان من نسلهم الأدوميون سكان جبل سعير ، غرب العربة أو بلاد العرب ، ولم يبق غير بنى اسرائيل من ذرية ابراهيم بعيدا عن الأرض التى وعد الله بها أباهم ابراهيم ، فقد ارتحلوا الى مصر بأبيهم يعقوب ليقيموا فى حمى أخيهم يوسف بعد أن أمنه فرعون مصر على خزائنه وأمواله وأقوات شعبه وأصبح له من الجاه والسلطان فى حمى فرعون ما لفرعون نفسه. وأقام بنو اسرائيل فى مصر زمنا ، اثنتى عشر سبطا لأبيهم يعقوب أو اسرائيل ، وطاب نسلهم وتكاثرت ذريتهم ، ثم استرقهم المصريون وساموهم سوء العذاب ، حتى كتب الله لهم الخلاص على يد موسى فصعد بهم الى الأرض التى وعد الله بها أباهم ابراهيم ، أرض كنعان التى « تفيض لبنا وعسلا » ، ليجتمع

فى أرض الميعـــاد كل ذرية ابراهيم فلا يبقى منهم نزيل فى أرض غريبة ، وليكون وعد الله حقا على المؤمنين •

وقد قسمت الأرض على أسباط بنى اسرائيل (١) كما لو كانت أرض انتفاع يقيمون فيها ويزرعونها ويعيشـــون على خيرها ولم يكن لأى سبط منها حق على أرض غيره من الأسباط الآخرين ، بل أن التقسيم كان بقصد الانتجاع والاستقرار كما استقرت ذرية ابراهيم الآخرين فى بقاع أخرى ، ولم يكن فى هذا الانتجاع والاستقرار ما يعنى اقامة دولة أو ملك فقد عاشت اسرائيل عيشة قبلية حتى بعد أن اختاروا لأنفسهم ملوكا من بينهم ، ولم يحـــدث أن ملكت اسرائيل كل أراضى كنعان أو الفلسطينيين ولم يتح لملك اسرائيل أن يمتد ليسع بعض هذه البقاع الا فى عهد داود وسليمان فقـــد وصل ملك داود الى دمشق وعقد معاهدة صداقة مع حيرام ملك صور • وقبل أن ينتهى عهد سليمان أخذ ملكه فى التقلص وعادت البلاد الى أهلها وظل ملك اسرائيل يتهاوى حتى لم يبق من مملكة سليمان الا بضع مئات من الأميال المربعة حول بيت المقدس استولى عليها البابليون عام ٥٨٦ ق•م•

فصعود اسرائيل الى أرض كنعان كان اتماما لوعد الرب حتى تجتمع ذرية ابراهيم فى صعيد واحد من أرض الميعـــاد وليكون

---

(١) يشوع من ١٣ الى ٢٣ -

لاسرائيل ما كان لأبناء عمومته من نصيب فى الأرض المقدسة .
وليس هناك ما يدعو الى احتمال الظن بأن الصعود ببنى اسرائيل الى أرض كنعان كان حقا لهم بالاختيار والتميز والتفضيل وانما كان حقا لهم للخلاص من ربقة فرعون واسترقاق المصريين وللمساواة بأبناء عمومتهم الذين استقروا ببعض تلك البقاع من قبل، لذلك حذر الرب اسرائيل فى صعودها الى أرض كنعان من التعرض لأرض سعير التى يسكنها أبناء عمهم عيسو ولأرض مؤاب التى أعطاها الرب لبنى لوط [١] ، ولم يعرض التحذير لأراضى الاسماعيليين فقد كان مسارهم بعيدا عنها ، مما يؤيد أن الأرض كانت للانتفاع لا لاقامة دولة أو ملك ، فلو كانت الأرض لاقامة دولة أو ملك لما قسمت من قبل على أبناء ابراهيم ولما قسمت أرض اسرائيل بين أسباطهم ، وحين قام ملك اسرائيل واختاروا من بينهم ملكا كان ذلك منهم بقصد التشبه بغيرهم من الشعوب الأخرى [٢] وكان ملك اسرائيل حتى فى عهد داود وسليمان أشبه بزعيم قبيلة منه بملك على أمة .

وتقص التوراة أن ملك اسرائيل خرج من بنى سليمان عقابا له على معصية الرب ، ولم يبق لرحبعام بن سليمان غير سبط واحد من أسباط اسرائيل هو سبط يهوذا يملك عليه فى أورشليم ، أما بقية أسباط اسرائيل فملك الرب عليها يربعام عبد سليمان [٣] .

(١) تثنية : ٤ ـ ٢٥
(٢) صموئيل الاول ٢ : ٤ ـ ٦
(٣) الملوك الاول ١١ : ٢٦ ـ ٤٣

وخرج كل من رحبعام ويربعام على مشيئة الرب وعبدا الأوثان .

« وأما رحبعام بن سليمان فملك فى يهوذا . وكان رحبعام ابن احدى وأربعين سنة حين ملك وملك سبع عشرة سنة فى أورشليم المدينة التى اختارها الرب لوضع اسمه فيها من جميع أسباط اسرائيل . واسم أمه نعمة العمونية . وعمل يهوذا الشر فى عينى الرب وأغاروه أكثر من جميع ما عمل أباؤهم بخطاياهم التى أخطئوا بها . وبنوا هم أيضا لأنفسهم مرتفعات وأنصابا وسوارى على كل تل مرتفع وتحت كل شجرة خضراء . وكان أيضا مأبونون فى الأرض . فعملوا حسب كل أرجاس الأمم الذين طردهم الرب من أمام بنى اسرائيل [1] » .

وحاق باسرائيل ما حاق بيهوذا بعد أن ضلوا وضللهم يربعام « ويضرب الرب اسرائيل كاهتزاز القصب فى الماء ويستأصل اسرائيل عن هذه الأرض الصالحة التى أعطاها لآبائهم ويبددهم الى عبر النهر لأنهم عملوا سواريهم وأغاظوا الرب . ويدفع اسرائيل من أجل خطايا يربعام الذى أخطأ وجعل اسرائيل يخطىء [2] » .

ويؤيد انقسام اسرائيل الى مملكتين ، حقيقة ما يعنيه الوعد الالهى لابراهيم بأرض الميعاد ، فلو أن الوعد كان لاسرائيل وحدها دون ذرية ابراهيم لما أراد الله لبنى اسرائيل أن يتفرقوا فيكون منهم عشرة أسباط فى مملكة اسرائيل أوسمارايا أوالسامرة وسبط

(١) الملوك الاول ١٤ : ٢١ — ٢٤
(٢) الملوك الأول ١٤ : ١٥ — ١٦

وبعض السبط فى يهوذا ولما أراد الله أن تقع الحرب وتمتد بين المملكتين حتى يقضى عليهما واحدة بعد الأخرى ، ولما أراد الله أن يقضى على هذه الأسباط العشرة فلا يقص التاريخ عنها خبرا بعد ذلك ، فقد شتتهم سرجون الأشورى بعد سقوط السامرة عام ٧٢١ ق٠م وحمل يهود السامرة أو الاسرائيليين الى بقاع شتى من مملكته ونقل اليها غيرهم ولم تعد السامرة الاذكرى عابرة فى تاريخ اليهودية ، أما يهوذا فقد غزاها نبوخذنصر البابلى عام ٥٨٦ ق٠م وحمل اليهود سبايا الى بابل وخرب الهيكل فلم يذره الا حطاما وأطلالا ولم تستطع المملكتان حتى وهما فى أوج عزهما أن تستوليا على كل فلسطين [١] ٠

وكان ذلك ختا مما كان لاسرائيل من نصيب فى الوعد الالهى لابراهيم كما يقص علينا تاريخهم وان ظل حلم العودة الى أرض الميعاد يراودهم ، الا أنه كان حلما شابته عواطف هى خليط من التعصب العنصرى والقومى والدينى نمتها الغربة وأذكاها ذل السبى ومرارة الاستعباد وترانيم الشعراء ٠ وظهرت ترنيمة لشاعر مجهول بقيت الى الأبد تلهب عواطفهم المكبوتة وتورى حمى قسوتهم وأنانيتهم وكراهيتهم للبشرية جمعاء وكانت فى عذوبتها وعمقها رجع الصدى لنفوسهم الكليمة فظلت فكرة الدولة اليهودية وحلم

---

(١) جواد على : جـ٢ ص ٣٦٠.

العودة الى أرض الميعاد حيةفى ترنيمةهذا المزمور كما يقول مؤلف كتاب « ثمن اسرائيل » (١)

« على أنهار بابل جلسنا ، وبكينا عندما تذكرنا صهيون »
« على الصفصاف فى وسطها علقنا أعوادنا ، لأنه هناك »
« سألنا الذين سبونا كلام ترنيمة ، ومعذبونا سألونا »
« فرحا قائلين : رنموا لنا من ترنيمات صهيون »
« كيف نرنم ترنيمة الرب فى أرض غريبة »
« ان نسيتك يا أورشليم تنسى يمينى » (٢)

ويتعلل بنو اسرائيل فى العودة الى أرض الميعاد بحلم نبى من أنبيائهم يصور اسرائيل يعود مطهرا وقد خلص من دنسه وأرجاسه ففى حزقيال « هكذا قال السيد الرب . هأنذا آخذ بنى اسرائيل من بين الأمم التى ذهبوا اليها وأجمعهم من كل ناحية وآتى بهم الى أرضهم . وأصيرهم أمة واحـدة على الأرض على جبال اسرائيل وملك واحـد يكون ملكا عليهم كلهم ولا يكونون بعـد أمتين ولا ينقسمون بعد الى مملكتين . ولا يتنجسـون بعد بأصنامهم ولا برجاساتهم ولا بشىء من معاصيهم بل أخلصهم من كل مساكنهم التى فيها أخطأوا وأطهرهم فيكونون لى شعبا وأنا أكون لهم الها» (٣) .

ويلح عليهم الحلم فيتخيلون اله اسرائيـل وقد عاد بهم الى

---

(١) Alfred Lilienthal : C. I, P. 1
(٢) المزامير ١٣٧ : ١ ــ ٤
(٣) حزقيال ٣٧ : ٢١ ــ ٢٣

أورشليم المدينة المقدسة ، بفرحة النصر ومثوبة الخلاص ، كما فى اشعياء « استيقظى استيقظى ألبسى عــزك يا صهيون ألبسى ثياب جمالك يا أورشليم المدينة المقدســة لأنه لا يعود يدخلك فيما بعد أغلف ولا نجس • انتفضى من التراب قومى واجلسى يا أورشليم انحلى من ربط عنقك أيتها المسبية ابنة صهيون • فانه هكذا قال الرب مجانا بعتم وبلا فضة تفكون » ثم يقول « تطهروا يا حاملى آنية الرب • لأنكم تخرجون بالعجلة ولا تذهبون هاربين • لأن الرب سائر أمامكم واله اسرائيل يجمع ساقتكم [1] »

وفى ارميا «وأنت فلاتخف ياعبدى يعقوب ولاترتعب يااسرائيل لأنى هأنذا أخلصك من بعيدونسلك منأرض سبيهم فيرجع يعقوب ويطمئن ويستريح ولا مخيف • أما أنت ياعبدى يعقوب فلاتخف لأنى أنا معك لأنى أفنى كل الأمم الذين بددتك اليهم • أما أنت فلا أفنيك بل أؤدبك بالحق ولا أبرئك تبرئة [2] »

ويأملون فى بعث المسيح المخلص الذى يفك اسارهم ويعــود بهم الى أرض الميعاد فيراه اشعياء رجل أحزان وأوجاع يحمل كل أوزار اسرائيل «لكن أحزاننا حملها وأوجاعنا تحملها ونحن حسبناه مصابا ومضروبا من الله ومذلولا • وهو مجروح لأجل معاصينا مسحوق لأجل آثامنا تأديب سلامنا عليه وبجبره شفينا [3] » ويراه زكريا

---

(١) أشعياء ٥٢ : ١ — ٣ ، ١١ — ١٢
(٢) ارميا ٤٦ : ٢٧ — ٢٨
(٣) أشعياء ٥٣ : ٤ — ٦

ملكا وديعا عادلا منصورا يجيء راكبا على حمار وعلى جحش ابن أتان فيقول «ابتهجي جدا ياابنة صهيون اهتفى يا بنت أورشليم • هو ذا ملكك يأتي اليك هو عادل ومنصور وديع وراكب على حمار وعلى جحش ابن أتان • وأقطع المركبة من افرايم والفرس من أورشليم وتقطع قوس الحرب • ويتكلم بالسلام للأمم وسلطانه من البحر الى البحر ومن النهر الى أقاصى الأرض • وأنت أيضا فانى بدم عهدك قد أطلقت أسراك من الجب الذى ليس فيه ماء • أرجعوا الى الحصن يا أسرى الرجاء • اليوم أيضا أصرح أنى أرد عليك ضعفين [1] » ويتخيله حزقيال ملكا من نسل داود « وداود عبدى يكون ملكا عليهم ويكون لجميعهم راع واحد فيسلكون فى أحكامى ويحفظون فرائضى ويعملون بها • ويسكنون فى الأرض التى أعطيت عبدى يعقوب اياها التى سكنها آباؤكم ويسكنون فيها هم وبنوهم وبنو بنيهم الى الأبد وعبدى داود رئيس عليهم الى الأبد • وأقطع معهم عهد سلام فيكون معهم عهدا مؤبدا وأقرهم وأكثرهم وأجعل مقدسى فى وسطهم الى الأبد • ويكون مسكنى فوقهم وأكون لهم الها ويكونون لى شعبا • فتعلم الأمم أنى أنا الرب مقدس اسرائيل اذ يكون مقدسى فى وسطهم الى الأبد [2] ».

ولا نستطيع أن نرقى بهذه الأحلام والأمانى الى مقام العهد

---

(١) زكريا ٩ : ٩ — ١٢
(٢) حزقيال ٣٧ : ٢٤ — ٢٨

الالهى لابراهيم أو الوعود المقدسة لاسحق ويعقوب وموسى صلوات الله عليهم فقد كانت النبوة فى اسرائيل أمرا مألوفا وكان أنبياء اسرائيل كقديسى المسيحيةوفقهاء الاسلام يتميزون بالصلاح والتقوى والاجتهاد فتارة ينكشف عنهم الحجاب كبعض المتصوفة فيلهمون الصواب أو تغلق قلوبهم فيضل تفكيرهم ويخطىء تقديرهم • وقد أشار العهد القديم اليهم ففى التثنية على لسان الرب الى موسى يقول « أقيم لهم نبيا من وسط أخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به • ويكون أن الانسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطالبه • وأما النبى الذى يطغى فيتكلم باسمى كلاما لم أوصه أن يتكلم به أو الذى يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبى • وان قلت فى قلبك كيف نعرف الكلام الذى لم يتكلم به الرب • فما تكلم به النبى باسم الرب ولم يحدث ولم يصر فهو الكلام الذى لم يتكلم به الرب بل بطغيان تكلم به النبى فلا تخف منه (١) » ومعنى هذا أن النبوة كانت أمرا مألوفا فى اسرائيل ليحفظ هؤلاء الأنبياء شعائر الرب وهم فى هذه الصورة أشبه بفقهاء الاسلام أو بعض المتصوفة والنساك من أولياء الله المسلمين أو قديسى المسيحية ، وقد قال صلوات الله عليه « علماء أمتى كأنبياء بنى اسرائيل (٢) » •

ومصداق ما يقول أنبياء اسرائيل صدق قولهم ومعنى ذلك أن

---

(١) تثنية ١٨ : ١٨ ــ ٢٣

(٢) راجع عبقرية المسيح للعقاد ص ١٥ ــ ١٩

كلامهم ليس حجة ولا يمكن أن يرقى الى قدر العهود أو الوعود المقدسة ولا يعدو كونه حلما جميــلا أو أمنية عذبة ، لم تتحقق وما دامت لم تتحقق فهى ليست من كلام الرب كما جاء فى العهد القديم . أما اذا قال البعض أن بعض هذه النبوءات قد تحقق بعودة اليهود من الأسر البابلى الى أورشليم وبناء المعبد من جديد فليس فى هذا ما يدل على تكرار العودة أو أن لاسرائيل عودة أخرى الى أرض الميعاد يحققها الرب ويرعاها فلم يشر الأنبياء الى عودة أخرى غير العودة من الأسر البابلى والنبوة لا تتكرر أكثر من مرة [1] .

أما الوعد الالهى لابراهيم فقد تحقق فى المسيحية وفى الاسلام وكان فيهما اختتام النبوءة ومصداق العهد الالهى كما ندلل عليهما فى الفصول التالية .

(١) بروفسور جيليوم : الصهيونيون والتوراة ص ٨ .

الفصل الرابع

المسيحية والوعد المقدس

وصدق وعد الله فكان من ابراهيم أمة وكان من أعقابه نسل كعدد نجوم السماء وانتشرت ذريته شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، سكن الاسماعيليون أبناء اسماعيل بن ابراهيم أو العرب العدنانية كما يعرفون عند مؤرخى العرب فى شمال الجزيرة العربية واتصلوا بأبناء عمومتهم العرب القحطانية فأصهروا اليهم وصاهروهم وقيل عن الاسماعيلية أنهم العرب المستعربة أى الذين استعربوا أو أصبحوا كالعرب سكان الجزيرة الأصليين وتكلموا احدى اللهجات المنتشرة حينذاك فى شبه الجزيرة العربية فأصبحت لغتهم وهى اللهجة التى تطورت على مر الزمن فكانت لهجة عدنان التى تبلورت فأصبحت لغة قريش وعمت حتى غلبت على غيرها من اللهجات العربية الأخرى فى الجزيرة العربية قبل ظهور الاسلام ببضع مئات من السنين .

ومن الثابت أن ابراهيم حين نزح بأمرأته هاجر وابنه اسماعيل

الى الجنوب وتفجرت بئر زمزم قد أقام بيتا للرب الى جوار البئر كالبيت الذى أقامه للرب فى بيت ايل « ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون» .

ويبدو أن دين ابراهيم قد عم بين سكان الجزيرة العربية فقد أقام ابراهيم البيت على محط للرواحل بين الشمال والجنوب ولعله فى اختياره لتلك البقعة كان يقصد أن يكون البيت منتجع قبائل العرب ومهوى أفئدتهم وأن تنتشر دياناته بين العرب من قاصدى البيت أو المارين به . فالمعروف أن الكعبة قبل ظهور الاسلام بزمن طويل قد أصبحت بيتا مقدسا لدى العرب أجمعين ، وكان لكل قبيلة عربية وثن أو صنم يقيمونه فيها ويتقربون بأقامته الى الله فى رحابها . وليس غريبا أن تتسرب الوثنية الى دين ابراهيم فقد تسربت أيضا الى اسرائيل فأقام الاسرائيليون الأنصاب والأزلام فى الهيكل وقربوا لها القرابين وسجدوا لها من دون الله كما هو ثابت فى أسفار العهد القديم بل انهم اتخذوا من سبائك الذهب عجلا عبدوه وهم فى التيه حين غاب عنهم موسى فى صعوده الى الجبل لمناجاة الله [1] .

ومن ولد ابراهيم أيضا أبناؤه من قطورة وهم آباء ستة عشرة قبيلة يقول علماء التوراة أنها قبائل عربية خالصة [2] . ويقال أن

---

(١) خروج ٣٢ : ١ ـ ٦

(٢) جواد على : جـ ١ ص ٢٨٣

قطوراهم قطوراء فى رأى النسابين وهم أبناء عم جرهم ، أقبلوا ظعنا من اليمن وأقاموا بمكة ، على جرهم مضاض بن عمرو وعلى قطوراء السميدع ، واتصلوا بالعدنانيين أبناء اسماعيل وعاشوا بينهم ، الا أننا لانجد فيما ذكره النسابون ما يدل على أصل قبيلة قطوراء وان ذكر ابن خلدون أن قطورا هى بنت يقطان ، وفى سيرة ابن هشام أن قطوراء هو أول من تكلم بالعربية عند تبلبل الأفكار .

ويقال أن سدانة الكعبة كانت لجرهم قبل أن تنتزعها منهم خزاعة وتنتقل من خزاعة الى قريش . وجرهم هذه هى جرهم الثانية وقد ظهرت بعد هلاك جرهم الأولى ، وفى جرهم الثانية هذه نشأ اسماعيل ، خلفه أبوه بينهم بعد أن قام ببناء الكعبة وآب الى أرض كنعان .

ولعل تلك الصلة الجديدة بين ابراهيم وجرهم هى التى أدت الى زواج ابراهيم من ابنة عمهم قطورة . ويبدو أن القبائل التى تنسب الى أبناء ابراهيم من قطورة قد انتشرت فى شمال الجزيرة العربية وامتد هذا الانتشار أحيانا الى بادية الشام وطور سيناء كما يظهر ذلك فى المدونات الأشورية وغير الأشورية التى تشير اليهم ، وأنهم كانوا يقيمون على طريق الرواحل بين اليمن والشام ، وهناك من يقول كالعلامة «جليسر» [1] أن كلمة قطورة تعنى البخور مما يؤيد أنهم كانوا يقيمون على طريق الرواحل التى تحمل البخور

---

(1) Glaser. Skisse 2. P. 449

ويرجع علماء التوراة أصل قبائل شبا وددان ومدين الى قطورة ومن المعروف أن موسى أصهر الى يثرون كاهن مدين فى ابنته صفوره مما يؤيد اتصال نسب اسرائيل بقطورة •

أما ولدا ابراهيم من سارة ـ عيسو ويعقوب ـ فقد انقسما على بعضهما فارتحل عيسو الى جبل سعير وهو مرتفع من الأرض بين برية « صين » الى الغرب وبلاد العرب الى الشرق ويشمل كل تخوم كنعان الجنوبية من البحر الميت الى خليج العقبة ويعرف ببلاد «أدوم» (١) واليها ينسب الأدوميون أبناء عيسو وكانت لهم مملكة تداولها ملوكهم قبل أن يكون لاسرائيل مملكة بزمن طويل (٢)• وظلوا سادة الطرق التجارية بين الجنوب والشمال حتى أديل منهم الى النبط •

وقد اتصلت كراهية عيسو لشقيقه يعقوب فيهم فوقفوا دون عبور اسرائيل الى فلسطين وحالوا بينهم وبين المرور فى أراضيهم «فقال له أدوم لا تمر بى لئلا أخرج للقائك بالسيف • فقال له بنو اسرائيل • فى السكة نصعد واذا شربنا أنا ومواشى من مائك أدفع ثمنه • لا شيء • أمر برجلى فقط • فقا لا تمر • وخرج أدوم للقائه بشعب غفير وبيد شديدة • وأبى أدوم أن يسمح لاسرائيل بالمرور فى تخومه فتحول اسرائيل عنه » (٣)

(١) جواد على : جـ٢ ص ٣٥٧
(٢) تكوين ٣٦ : ٣١
(٣) عدد ٢٠ : ١٨ ـ ٢١

وامتدت عداوة أدوم لاسرائيل حتى وقعت الحـرب بينهما فى عهد « شاءول » ومن جاء بعـده ، بالرغم من أن الاسرائيليين قد جهدوا دون جدوى فى ارضاء الأدوميين والظفر بمودتهم فكانوا يذكرونهم بما بينهما من قـربى وان أباهما واحـد الا أن لهيب العـداوة فى نفس الأدوميين للعبريين ظل حاميا فحالفوا أعداءهم عليهم .

ولا يبقى بعد هؤلاء من ذرية ابراهيم غرباء مشردين لا يملكون أرضا غير بنى اسرائيل وكان وعد الرب لابراهيم أن يكون نسله كعدد نجوم السماء وان تملك ذريته تلك الأرض التى تمتـد من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات وأن يكون منهم أمم وملوك . فاذا كان الوعـد بالارث للأرض وليس للرسـالة أو البـركة ــ رسالة ابراهيم وبركته ــ فقد ملكت ذرية ابراهيم أكثر هـذه الأرض ولم يكن لاسرائيل مبرك بعير فيها كما رأينـا ، فاذا أراد الله لاسرائيل أن تخرج من مصر وتصعد الى أرض كنعان فلكمال الوعد . وليجتمع نسل ابراهيم فى صـعيد واحد . وكان وحى الرب لموسى وأنبياء اسرائيل من بعده بالصعود الى أرض كنعان وامتلاكها تحقيقا لاكتمال العهد ، الا أن بنى اسرائيل قد جهـدوا عبثا أن يملكوا أرض كنعان فما استطاعوا حتى بعـد أن وصل ملكهم فى عهد داود وسليمان الى أقصى مداه ، مما يؤيد أن الوعد بالارث لم يكن للأرض وانما كان للبركة والرسالة فحيثما آمنت ذرية ابراهيم برسالته حلت فيهم البركة وحق لهم الوعد ، وحيثما

جحدوها وتنكروا لها لم يكن لهم فى بركته نصيب وأصبحت أرض الميعاد حراما عليهم ، وفى أسفار العهد القديم مايشير الى أن الله قد شرد بنى اسرائيل وشتتهم بين شعوب الأرض أذلاء مستضعفين حتى لا ينجسوا أرض ميعاده وبيته المقدس . « ولكن ان لم تسمع لصوت الرب الهك لتحرص أن تعمل بجميع وصاياه وفرائضه التى أنا أوصيك بها اليوم تأتى عليك جميع هذه اللعنات وتدركك . ملعونا تكون فى المدينة وملعونا تكون فى الحقل . ملعونة تكون سلتك ومعجنك . ملعونة تكون ثمرة بطنك وثمرة أرضك نتاج بقرك واناث غنمك . ملعونا تكون فى دخولك وملعونا تكون فى خروجك . يرسل الرب عليك اللعن والاضطراب والزجر فى كل ما تمتد اليه يدك لتعمله حتى تهلك وتفنى سريعا من أجل سوء أفعالك اذ تركتنى . يلصق بك الرب الوباء حتى يبيدك عن الأرض التى أنت داخل اليها لكى تمتلكها . يضربك الرب بالسل والحمى والبرداء والالتهاب والجفاف واللفح والذبول فتتبعك حتى تفنيك . وتكون سماؤك التى فوق رأسك نحاسا والأرض التى تحتك حديدا . ويجعل الرب مطر أرضك غبارا وترابا ينزل عليك من السماء حتى تهلك . يجعلك الرب منهزما أمام أعدائك فى طريق واحدة تخرج عليهم وفى سبع طرق تهرب أمامهم وتكون قلقا فى جميع ممالك الأرض [1] »

---

(١) تثنية ٢٨ : ١٥ ــ ٢٥

« ويبددك الرب فى جميع الشعوب من أقصاء الأرض الى أقصائها وتعبد هناك آلهة أخرى لم تعرفها أنت ولا آباؤك من خشب وحجر • وفى تلك الأمم لا تطمئن ولا يكون قرار لقدمك بل يعطيك الرب هناك قلبا مرتجفا وكلال العينين وذبول النفس ، وتكون حياتك معلقة قدامك وترتعب ليل نهار ولا تأمن على حياتك ، فى الصباح تقول يا ليته المساء وفى المساء تقول يا ليته الصباح من ارتعاب قلبك الذى ترتعب ومن منظر عينيك الذى تنظر • ويردك الرب الى مصر فى سفن فى الطريق التى قلت لك لا تعد تراها فتباعون هناك لأعدائك عبيدا واماء وليس من يشترى (١) »

وفى أرميا « ولم يستطع الرب أن يحتمل بعد من أجل شر أعمالكم من أجل الرجاسات التى فعلتم فصارت أرضكم خربة ودهشا ولعنة بلا ساكن كهذا اليوم (٢) » •

فاو كان الوعد بالارث للأرض وليس للرسالة والبركة لما كان هناك قيد أو شرط لامتلاك الأرض أما الأرض ، أرض البركة والرسالة ، فلابد وأن تكون لمن يمتازون بالبركة والرسالةمنذرية ابراهيم ، ولعل فى اختيار ذرية ابراهيم بالذات مايقصد به اعلاء شأن الرسالة والنبوة ، وقد كانت النبوة فى اسرائيل حتى قام بها

---

(١) تثنية ٢٨ : ٦٤ ـ ٦٨
(٢) ارميا ٤٤ : ٢٢

المسيح عيسى بن مريم عايه السلام فنسخ حق اسرائيل فى البركة والرسالة معا • ثم كان محمد صلى الله عليه وسلم فصدق بابراهيم وموسى وعيسى وختم رسالة السماء وحلت فيه بركة ابراهيم ورسالته •

والاختيار للأرض وليس للشعب فالأرض هى الأرض المباركة التى قدستها اليهودية والمسيحية والاسلام على السواء وقد اختار الله تلك الأرض وسطا فى دنيا العالم القديم ، حيث شعت أولى حضارات التاريخ وأشرقت شمس المدينة ، وهى اليوم كما كانت بالأمس ملتقى الحضارات والأفكار وهى على الطريق من عالمنا الحاضر ترد اليها وتصدر عنها كل تيارات العالم السياسية والفكرية وتتلاحم على أديمها كل صنوف الأمم •

وكان اختيار الله لتلك الأرض التى باركها وقدسها لتكون قدس أنبيائه وموطن رسالته الى البشر ، حتى تكون رسالته الى كل العالمين طرا فليس هناك من مكان يتوسط العالم كفلسطين حيث يمكن للرسالة أن تجتاز أربعة أركان الدنيا وتعم البشر أجمعين •

وما دام الاختيار الالهى قد وقع على تلك الأرض لتصدر عنها رسالات السماء ــ اليهودية والمسيحية والاسلام ــ فلابد وأن يقع الاختيار أيضا على أولئك الذين يضطلعون برسالات السماء لتكون لهم الأرض دون غيرهم ، وقد حلت بركة السماء فى ابراهيم وذريته فكان منهم الأنبياء والمرسلون ، وكانت الأرض له ولذريته من بعده •

وقد عبر ابراهيم بأمر الرب الى أرض كنعان ووعد بأن تكون له ولذريته تلك الأرض من الفرات الى النيل ولكن ابراهيم مات دون أن يملك شبرا واحدا فى تلك الأرض وحين اختار مكان قبره وقبر ساره زوجته وآل بيته فى مغارة المكفيلة أمام ممرا وكانت على طرف حقل لعفرون بن صوحر الحثى ، ابتاع المكان من صاحبه . ولعله لم يملك فى فلسطين غير سكنه وقبره هذا .

وقد مرت بضع مئات من السنين دون أن يكون لابراهيم أو لأحد من ذريته مكانا فى فلسطين الا أن ذريته من الاسماعيليين والقطوريين والأدوميين قد انتشروا كما رأينا فى بقاع أخرى من أرض الميعاد وملكوا عليها قبل أن يصعد بنو اسرائيل الى فلسطين حتى اذا صعدوا بعد خروجهم من مصر ، أقاموا ملكا لم يسع كل بلاد فلسطين فى يوم من الأيام . ولم تملك ذرية ابراهيم أرض الميعاد الا فى ظل الاسلام فكانت للعرب مقاما وملكا الى يومنا هذا وتحقق فى العرب الاسماعيلية وعد الله لابراهيم كما لم يتحقق فى أحد من ذريته الآخرين وحلت فيهم بركة العهد وبركة الرسالة وكانت لهم أرض الميعاد مصداق ما عاهد عليه الرب نبيه ابراهيم .

وليست فلسطين وحدها هى أرض الميعاد كما يدعى اليهود فى تفسيرهم للتوراة فان عبارة « من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات » تضم بقاعا وتخوما تمتد الى ما وراء فلسطين وما بعدها، هى طور سيناء وما يواجهها شرقا من بلاد العرب الشمالية وكل بادية الشام والأردن وفلسطين ولبنان وسوريا حتى أعالى الفرات

وقد أقام ابراهيم بيتين للرب في أرض ميعاده ، أشارت التوراة الى أحدهما ولم تشر الى الآخر ، بيت ايل في أرض كنعان والبيت المحرم (الكعبة) الى جوار جرهم في العرب الشمالية مما يدل دلالة قاطعة على أن أرض الميعاد ليست هى فلسطين وحدها كما أنها ليست لبنى اسرائيل وحدهم دون البقية من ذرية ابراهيم أو الاسماعيليين على وجه أدق اذا عرفنا أن القطوريين والأدوميين قد اندمجوا فى العرب الاسماعيلية بعد ذلك لطول ما كان بينهم من جيرة وصلات ويقص العهد القديم أن المديانيين كانوا مع الاسماعيليين حين بيع يوسف [1] والمديانيون كما قلنا هم نسل ابراهيم من قطورة ويرى « حتى » أن أرضهم تقع فى بلاد العرب [2] .

والثابت تاريخيا أن الشريعة الموسوية قد تأثرت الى حد بعيد بعبادة أهل مدين أو المديانيين وهى عبادة « يهوه » اله قبيلة مدين وبعض بلاد العرب الشمالية وقد شاعت هذه العبادة بين العبريين [3] وهذا ما يحمل بعض المؤرخين على القول بأن الدين اليهودى ينم عن أصل صحراوى . وليس لدينا من تفسير لذلك الا أن ديانة ابراهيم قد انتشرت فى بعض بلاد العرب الشمالية أو كلها مما يدل على أن بركة ابراهيم ورسالته لم تكن لاسحق وحده وانما كانت لاسمعيل أيضا ، فإذا كان الارث للبركة والرسالة ، فان

(١) تكوين ٣٧ : ٢٧ ــ ٢٨
(٢) Hitti, P. 40
(٣) جواد على جـ٢ ص ٣٥٢

رسالة ابراهيم قد شملت بعض بلاد العرب الشمالية وامتدت الى أرض كنعان بعد نزول بنى اسرائيل اليها مما يقطع بأن أرض الميعاد ليست أرض كنعان وحدها وانما هى تلك البلاد الفسيحة التى تمتد من مصر الى أعالى الفرات ، وينسب العهد القديم قصة فداء يفسرها علماء التوارة أنها لاسحق (١) كما يقص القرآن قصة فداء ينسبها المسلمون لاسمعيل أو أن الفداء كان لكل منهما ويكون فداء اسمعيل قد سبق فداء اسحق فقد اكتمل اسماعيل صبيا حين حمله أبوه الى برية فاران مع أمه ، وكان اسحق طفلا فى فطامه (٢) مما يوحى بأن بركة ابراهيم كانت لاسمعيل واسحق على حد سواء . الا أن عبادة ابراهيم قد تبلورت فى شريعة موسى ورسالته وكانت رسالة موسى الى بنى اسرائيل تمهيدا لرسالة السماء الكبرى فى المسيحية والاسلام ، ففى ظل المسيحية والاسلام ينطوى البشر أجمعين ، من ذرية ابراهيم ومن غير ذريته ، وليس فى قصر رسالة موسى على اسرائيل ما يفيد معنى الاختيار أو التميز فقد كانت رسالة ابراهيم الى أهله وبنيه وكان كل رسول يبعث الى قومه وكانت رسالة موسى الى بنى اسرائيل هى آخر رسالة لنبى الى قوم بعينهم فقد جاءت المسيحية مبشرة بملكوت السماء للبشر جميعا وجاء الاسلام هدى للناس كافة لا فضل فيه لعربى على

---

(١) تكوين ٢٢ : ١ — ١٤
(٢) تكوين ٢١ : ٨ — ٢١

عجمى الا بالتقوى فاذا تميز بنو اسرائيل بالاختيار فهو الاختيار الذى كان لغيرهم من الأقوام التى سبق اليها الرسل والأنبيـاء ، وهو الاختيـار الذى يقوم على الايمان بالرسـالة ولا يقوم على أفضلية العنصر أو الجنس ، وهو الاختيار الموقوت بزمن الرسالة ، فاذا حلت رسالة أخرى محلها فقد زال عنهم الاختيار وما يصحبه من تميز المؤمن على الوثنى لا تميز العنصر على العناصر الأخرى .

وقد جاءت المسيحية لتصحح فهم الاسرائيليين لمعنى الاختيار ولتجدد نقاء اليهودية بعد أن تسربت اليها أباطيل العنصرية والتميز والانحراف عن مبادىء ابراهيم وتعاليمه . فالمسيح عيسى بن مريم عليه السلام هو أحد فروع تلك الشجرة المباركة التى تنسب الى نبى الله ابراهيم عليه السلام ، فهو « يسوع المسيح ابن داود ابن ابراهيم . ابراهيم ولد اسحق . واسحق ولد يعقوب . ويعقوب ولد يهوذا واخوته . ويهوذا ولد فارص وزارح من ثامار . وفارص ولد حصرون . وحصرون ولد أرام . وأرام ولد عمينـاداب . وعميناداب ولد نحشون . ونحشون ولد سلمون . وسلمون ولد بوعز من راحاب . وبوعز ولد عوبيد من راعوث . وعوبيد ولد يسى ، ويسى ولد داود الملك . وداود الملك ولد سليمان من التى لاوريا . وسليمان ولد رحبعام . ورحبعام ولد أبيا . وأبيا ولد آسا . وآسا ولد يهوشافاط . ويهوشافاط ولد يورام . ويورام ولد عزيا . وعزيا ولد يوثام ويوثام ولد أحاز . وأحاز ولد حزقيا . وحزقيا ولد منسى . ومنسى ولد آمون . وآمون ولد يوشـيا .

ويوشيا ولد يكنيا وأخوته عند سبى بابل . وبعد سبى بابل يكنيا ولد شالتئيل . وشالتئيل ولد زربابل . وزربابل ولد أبيهود . وأبيهود ولد الياقيم . والياقيم ولدعازور . وعازور ولدصادوق . وصادوق ولد أخيم . وأخيم ولد اليود . واليود ولد اليعازر . واليعازر ولد متان . ومتان ولد يعقوب . ويعقوب ولد يوسف رجل مريم التى ولد منها يسوع الذى يدعى المسيح . فجميع الأجيال من ابراهيم الى داود أربعة عشر جيلا ، ومن داود الى سبى بابل أربعة عشر جيلا . ومن سبى بابل الى المسيح أربعة عشر جيلا [1] » .

وقد أبرز المسيح منذ البداية أنه ما جاء لينقض دين ابراهيم وشريعة موسى بل جاء ليكمل «لاتظنوا انى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ما جئت لأنقض بل لأكمل . فانى الحق أقول لكم ، الى أن تزول السماء والأرض لايزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يتم الكل [2] » مما يدل على أن رسالة ابراهيم كانت بداية تطور تكمل فى غايته رسالة السماء ، وأن أنبياء اسرائيل ليسوا سوى لبنات فى سلم التطور العام للأديان السماوية وان شريعة موسى ورسالة المسيح لم يكونا سوى مرحلتين من مراحل التطور الهام للرسالة التى بدأت بابراهيم وختمت بمحمد .

---

(١) متى ١ : ١ ــ ١٧
(٢) متى ١٥ : ١٧ ــ ١٨

وفى قول المسيح « ان لم يزد بركم على الكتبة والفريسيين لن تدخلوا ملكوت السموات [1] » دليل هذا التطور فى تعاليم الديانة المسيحية ، فلو لم تأت المسيحية بجديد على شريعة موسى لكانت تكرارا لما قبلها ولو لم تزد المسيحية على تعاليم اليهودية لما كانت هناك حاجة اليها . فعملية التطور والارتقاء قد صاحبت نمو الأديان ، فالصور المادية الساذجة فى أسفار العهد القديم كالتجسد الالهى وظهور الاله والملائكة فى صور بشرية كانت ولا شك توائم مستوى الارتقاء العقلى والفكرى فى عصرها ، وكثير من الطقوس الدينية فى الشريعة الموسوية تستنثير سذاجتها تفكير انسان القرن العشرين ولكنها فى وقتها كانت تمثل مرحلة ارتقاء فى التفكير البشرى ، واذا قارنا تعاليم المسيحية وطقوسها بالتعاليم الموسوية وطقوسها بدت متقدمة عليها من حيث التطور والارتقاء ، ولعل قصة الفداء فى التوراة والقرآن تمثل مرحلة من مراحل تطور العقيدة وارتقائها فالقربان البشرى قد افتدى بقربان من الحيوان بل إن قصة عروس النيل وما كان من موقف عمر بن الخطاب منها حين استشير فى أمرها ، فأشار بأن تبقى الطقوس على حالها وأن تلقى عروس من الطفل بدل العروس البشرية الى النيل هى خير ما يهدينا الى حقيقة هذا التطور فى عقيدة من العقائد . فالثورة على التقاليد البالية قد يحملها الى رجعى بغيضة وتعصب مقيت ، أما

---

(١) متى ٥ : ٢٠

التطور فهو عملية ارتقاء غير محسوس تحقق فى هدوئها مالا تحققه الثورة فى عنفها ، وحين يكتمل التطور ويصبح العقل البشرى معدا لقبول التغيير تغدو الثورة ضرورة حتمية لاتمام التغيير ، والثورة هنا هى مواجهة الواقع فى شجاعة تعوز المترددين ، ففى بعض مراحل التقدم الانسانى تقف مرحلة التطور عند الخوف من التغيير الشامل أو الحذر من الجديد وحينئذ تتمثل الشجاعة فى مواجهة الواقع والتسليم بحكمة التطور ، والثورة هنا ليست قلبا للأوضاع أو زلزلة للنظام الاجتماعى ولكنها جرأة على مواجهة التطور الذى يحسه ويسلم به كل فرد ولكنه لايجرؤ على الجهر به، فمما لا شك فيه أن ظهور المسيح قد صاحب استعدادا عاما لقبول رسالته حين غدا التفكير الانسانى أكثر سعة وشمولا ، وأصبح الانسان أكثر استعدادا لقبول التغيير الجديد .

وتبرز قصة المسيح المنتظر مدى التطور فى العقيدة اليهودية والرجاء الذى كان يعقده اليهود أو بعض طوائفهم بالذات على ظهور النبى المخلص أو الهادى .

فبعد أن سقطت يهودا وحمل اليهود سبايا الى أرض بابل أخذوا يحلمون بقيام ملك من نسل داود يقود الجند ويجتاح بهم مدن أعدائهم ويعيد ملك داود وسليمان وكانوا يسمونه مسيحا لأنهم كانوا يمسحون ملوكهم بالزيت المقدس فيقال له مسيح الرب .

وتجدد أملهم فى المسيح المنتظر بعد أن دالت دول أعدائهم من

البابليين والمصريين وظنوا أن نجم اسرائيل قد آذن بالارتفاع ، ولكنهم وقعوا فى ربقة الدولة الرومانية ففقدوا كل أمل فى مجد القوة وغدا خلصاؤهم والصالحون منهم يأملون الخلاص بالهداية والتطهر أكثر مما يرجون الخلاص فى القوة والسلطان ورأوا فى المسيح المنتظر هاديا ومبشرا بالتوبة والتطهير ، وبعد أن كانوا يصفونه بالقوة والبأس والجبروت وشهوة السلطان والفتح أخذوا يصفونه بالوداعة والرضى والرحمة والحنان يجفو صهوات الجياد ويركب « حمارا ابن أتان »

وكان ظهور يوحنا المعمدان أو يوحنا المغتسل ـ وقد ذكر فى القرآن باسم يحيى بن زكريا ـ بشيرا باقتراب موعد ظهور المسيح المنتظر . وقد أخذ يوحنا يدعو الى التوبة والتطهر من الذنوب ويبشر باقتراب « ملكوت الله » أو ملكوت السماء ، وجاشت بدعوته كل بطاح الأردن وعلى يديه تتلمذ المسيح عيسى بن مريم عليه السلام

فالتطور فى فكرة المسيح المنتظر هو التطور فى العقيدة الدينية ، التطور من عالم المادة الى عالم الروح ومن عالم الحس الى عالم الضمير ومن المراسيم والطقوس الحسية الى الحقائق المعنوية المجردة .

وجاء المسيح مبشرا بملكوت السماء فعلم الناس أن ملكوت الله قائم فيهم وأنه موجود فى كل زمان ومكان ، وجاء بشيرا للناس كافة لا لجماعة بعينها ولا لقوم دون الآخرين . وجاء يدعو الى

المحبة فى عالم اجتاحته الاثرة والانانيـة وحب الذات والاستعلاء واستعباد الضعفاء •

وعاش فى عالم لا حاجة به الى تشريع أو قانون فقـد حجبت التشريعات الرومانية كل تشريع آخر وانتظم قانونها كل رعاياها ولكنه فى حاجة الى الحب فبشر بالحب ودعا اليه، فكانت المسيحية رسالة المحبة والغفران والسمو بالنفس الانسانية الى أعلا عليين ، وخطت بذلك أعظم خطوات التطور الدينى نحو الكمال المطلق فى الاسلام وبذا ختمت رسـالة السماء التى بدأت بابراهيم وانتهت بمحمد ، فاكتملت صورة الوحدانية وحد الفاصل بين الخير والشر والثواب والعقات والفضيلة والرذيلة وعرفت موازين الخلق وحدود الشرائع وقومت الحياة الانسانية خير تقويم يتفق وواقع الحياة وخير البشر وصلاحهم •

ولا حاجة بنا فى هذا المقام الى تفصيل مراحل هذا التطـور الدينى وبيان صـوره فان كل ما يعنينا أن الأديان السماوية كل متكامل فى هذا الوجود الانسانى تطورت بتطـوره ونمت الى الكمال بنماء هذا الوجود الانسانى نحو الكمال ، ولا يعنى هذا أن تطور الفكرة الدينية قد وقف عند رسالة محمد عليه الصـلاة والسلام فان مظاهر الاسلام مازالت تقبل التأويل والتفسير لتساير تطور الوجود الانسانى نحو الكمال ، ومعجزة الاسلام أنه دين يساير كل زمان ومكانو ويتطور بتطور الفكر الانسانى وتقدمه ، وكل ما يقف عنده الاسـلام فلا يقبل فيه تفسيرا أو تأويلا هـو

الجوهر وليس العرض فالوحدانية هى جوهر الاسـلام لا تقبل تأويلا أو تفسيرا أما المظاهر العامة للعبادات والتشريعات الاجتماعية فهى قابلة للتأويل والتفسـير وقد تناولها المجتهدون منذ البداية بتفسيرات شتى ووضعوا لها حدودا متباينة ولكنها فى تباينها لا تمس جوهر العقيدة أو تلمسها بتفسير أو تأويل ، وقد ظن علماء الاسلام أن باب الاجتهاد قد أقفل على الأئمة الأربعة حتى ظهر «ابن تيمية» ففتح باب الاجتهاد من جديد وجاء بعده مجتهدون آخرون منهم من أخذ بسنة السلف ومنهم من جدد وكان الشيخ الامام محمد عبده آخر المجددين فى هذا المضمار .

فاذا كانت الأديان السماوية كلا متكاملا تتصل بهذا الوجود الانسانى فى تكاملها فان قصر عقيدة منها على أمة أو شعب أو عنصر دون الآخرين هو افتئات على جوهر العقيدة وشذوذ فى وحـدة الوجود الانسانى .

وقد بعث موسى الى بنى اسرائيل كما بعث صالح الى ثمود وشعيب الى مدين وهود الى قوم عاد ، ولا يمكن أن نعد فى هذا الرعيل الأول من الأنبياء ، أنبياء اسرائيل بعد موسى فقد كانوا كما قلنا من قبل كأولياء الله فى الاسلام والقديسين فى المسيحية ، وكان ذلك حين كانت رسالة كل نبى الى شعبه حتى اذا عمت الرسالة نسخت حق هؤلاء الأنبياء جميعا بما فيها الديانة اليهودية ، اذا أراد بنو اسرائيل أن تكون رسالة موسى لهم وحدهم لا يشاركهم فيها غيرهم ولا يبشرون بها لغيرهم كما جرت سنتهم ، أما اذا أرادوها

رسالة للبشر عامة وبشروا بها بين الناس فان ذلك ينسخ دعواهم فى التميز والاختيار على غير ما يريدون ويدحض ما يدعونه من حق فى أرض الميعاد على غير مايحبون ، وهم على هذه الوتيرة من تأويل الوعد المقدس لابراهيم ، ينسخون فى الوقت ذاته دعواهم فى أرض الميعاد بظهــور المسيح المنتظر الذى بشروا به من قبل ، فقد جاء المسيح كما بشر به النبى زكريا بقوله « ابتهجى جدا يا ابنة صهيون اهتفى يا بنت أورشليم هو ذا ملكك يأتى هو عادل ومنصــور وديع وراكب على حمار وعلى جحش ابن أتان [1] » وحين صعد المسيح الى أورشليم صعد اليها كما قال زكريا على ظهر « حمار ابن أتان » ــ « ولما دنوا من أورشليم وجاءوا الى بيت فاجى عند جبل الزيتون حينئذ أرسل يسوع تلميذين قائلا لهما . اذهبا الى القرية التى أمامكما فللوقت تجــدان أتانا مربوطة وجحشا معها فحلاها وأتيا لى بهما ، وان قال لكما أحد شيئا فقولا الرب محتاج اليهما . فللوقت يرسلهما . فكان هذا كله لكى يتم ما قيل بالنبى القائل . قولوا لابنة صهيون هوذا ملكك يأتيك وديعا راكبا على اتان وجحش ابن أتان . فذهب التلميذان وفعلا كماأمرهما يسوع . وأتيا بالأتان والجحش ووضعــا عليهما ثيابهما فجلس عليهما . والجمع الأكثر فرشوا ثيابهم فى الطريق . وآخرون قطعوا أغصانا من الشجر وفرشوها فى الطريق . والجموع الذين تقدموا والذين

---

(١) زكريا ٩ : ٩

تبعوا كانوا يصرخون قائلين أوصنا لابن داود • مبارك الآتى باسم الرب • أوصنا فى الأعالى • ولما دخل أورشليم ارتجت المدينة كلها قائلة من هذا • فقالت الجموع هذا يسوع النبى الذى من ناصرة الجليل [1] » •

فالأمل الذى راود بنى اسرائيل بظهور المسيح المنتظر قدتحقق بقيام عيسى عليه السلام برسالته ثم ان قدومه الى أورشليم فى الصورة التى تخيلوها قبل مجيئه لا شك يحقق أملهم فيه فليس هو المسيح القادر القاهر الذى يقود الجند ويحطم الدساكرويجتاح القلاع والحصون يخضع له الملوك وتدين الأمم لسلطانه كماصوره أوائلهم ، وليس هوالمسيح الذى ينزله الرب نقمة على أعدائهم كما دعوا كورش ملك الفرس عندما خلصهم من السبى البابلى وردهم الى أورشليم « هكذا يقول الرب لمسيحه لكورش الذى أمسكت بيمينه لأدوس أمامه أمما وأحقاء ملوك أحل لأفتح أمامه المصراعين والأبواب لا تغلق [2] » وليس هو المسيح المحتقر المخذول من الناس رجل الأوجاع والأحزان كما ذكر أشعياء وليس هو زربابل والى يهودا من قبل دارا ملك الفرس لأنه أعاد بناء الهيكل فقالوا عنه المسيح المنتظر وانما هو المسيح العادل المنصور الوديع الذى يجفو صهوات الجياد ويركب « حمارا ابن أتان » •

جاء المسيح عليه السلام الى أورشليم وبشر برسالته فى

---

(١) متى ١١ : ١ ــ ١١
(٢) أشعياء ٤٥ : ١

بنى اسرائيل ولم يأت لينقض بل جاء ليكمل فدعا الى ملكوت السماء وقال ان ملكوت السماء يسع كل من دخل فيه • « أدعو الذى ليس شعبى شعبى والتى ليست محبوبة محبوبة [1] » والى هذا يشير الرسول بولس بقوله « لانه فى المسيح يسوع ليس فى الختان ينفع شيئا ولا الغرلة بل الخليقة الجديدة • فكل الذين يسلكون بحسب هذا القانون عليهم سلام ورحمة وعلى اسرائيل الله [2] » ومعنى ذلك أن الاسرائيليين الحقيقيين ليسوا هم الذين ينحدرون من صلب يعقوب أب الأسباط فحسب بل يشملون جميع المؤمنين المتحدين بالمسيح اتحادا روحيا والحاصلين على نعمة التجديد سواء كانوا يهودا أم أمما •

ويؤيد ذلك ما قلناه من قبل من أن الوعد بالارث ليس للأرض بل للرسالة والبركة وان الاختيار ليس للشعب بل للأرض ، فالأرض هى الأرض المقدسة كما قلنا لم تتجاوزها القداسة الى غيرها أما الرسالة والبركة فقد حلت فيمن وقع عليه الاختيار الالهى ، وكان يسوع المسيح عليه السلام هو الموعود بالبركة والرسالة حينذاك وقد حلت بركته فى كل من اتحد به اتحادا روحيا وهذا ما يعنيه الرسول بولس بقوله « لأن ليس جميع الذين من اسرائيل هم اسرائيليون • ولا لأنهم من نسل ابراهيم هم جميعا أولاد ،

---

(١) روميه ٩ : ٢٥
(٢) غلاطية ٦ : ١٥ — ١٦

بل باسحاق يدعى لك نسل ، أى ليس أولاد الجسد هم أولاد الله بل أولاد الموعد يحسبون نسلا (١) » .

ويرى كثير من المسيحيين أن الوعود قد تحققت فى تلك البقية التى أشار اليها النبى أشعياء وهى التى أشار اليها الرسول بولس بقوله « فكذلك فى الزمان الحاضر أيضا قد حصلت بقية حسب اختيار النعمة . فان كان بالنعمة فليس بعد بالأعمال . والا فليست النعمة بعد نعمة . وان كان بالأعمال فليس بعد نعمة . والا فالعمل لا يكون بعد عملا . فماذا ، ما يطلبه اسرائيل ذلك لم ينله . ولكن المختارون نالوه (٢) » . فهذه البقية هى المختارة وهى التى اتحدت بالمسيح اتحادا روحيا وتكونت منها كنيسة العهد الجديد ، وهى التى تتسع لتشمل الأمم جميعا كما جاء فى وصية السيد المسيح لحوارييه « فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس (٣) » .

فرسالة المسيح قد نسخت حق بنى اسرائيل فى الاختيار ، حتى لو كان هذا الاختيار لبنى اسرائيل دون الأمم ولم يكن للأرض المقدسة كما تقول ، كما جبت حقهم فى البركة والرسالة بعد أن صارت الرسالة للأمم جميعا وليست لبنى اسرائيل وحدهم ، وحلت

(١) روميه ٩ : ٦ ـ ٨
(٢) روميه ١١ : ٥ ـ ٧
(٣) متى ٢٨ : ١٩

البركة فى عيسى ليضفيها على كل من اتحد به اتحادا روحيا ودخل فى ملكوت الله •

كما نسخ بعثه رؤيا بنى اسرائيل فى قدوم المسيح المنتظر الذى يعيد مملكة داود ويجدد بناء الهيكل ويعيد مجد أورشليم ، فقد قال بأنه المسيح المنتظر « أما يوحنا فلماسمع فى السجن بأعمال المسيح أرسل اثنين من تلاميذه • وقال له أنت هو الآتى أم ننتظر آخر • فأجاب يسوع وقال لهما اذهبا وأخبرا يوحنا بما تسمعان وتنظران • العمى يبصرون والعرج يمشون والبرص يطهرون والصم يسمعون والموتى يقومون والمساكين يبشرون ، وطوبى لمن لا يعثر فى [1] » •

ولم يعد بعد مسيحا منتظرا « حينئذ ان قال لكم أحد هو ذا المسيح هنا أو هنك فلا تصدقوا [2] » ولن تكون عودة المسيح الا يوم الدينونة حين يجتمع الخلق جميعا فى صعيد البعث والنشور • « والوقت بعد ضيق تلك الأيام تظلم الشمس والقمر لا يعطى ضوء والنجوم تسقط من السماء وقوات السماء تتزعزع • وحينئذ تظهر علامة ابن الانسان فى السماء • وحينئذ تنوح جميع قبائل الأرض ويبصرون ابن الانسان آتيا على سحاب السماء بقوة ومجد كثير • فيرسل ملائكته ببوق عظيم الصوت فيجمعون مختاريه من الأربع

---

(١) متى ١١ : ٢ ـ ٦
(٢) متى ٢٤ : ٢٣

الرياح من أقصاء السموات الى أقصاها [1] » ثم يتحدث عن يوم الساعة فيقول ما تتفق عليه المسيحية والاسلام « وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بها أحد ولا ملائكة السماء الا أبى وحده [2] » وهو ما ردده القرآن فى مواضع كثيرة منها « ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت والله عليم خبير [3] » .

ويربط بنو اسرائيل بين بعث المسيح المنتظر وعودتهم الى فلسطين ويشايعهم فى هذا الاعتقاد بعض المسيحيين الذين يتوقعون عودة اليهود الى فلسطين ليؤمنوا بالمسيح حين يعود الى الأرض فيملأها عدلا وبرا وسلاما . وهم اذ يؤمنون بذلك يخطئون فى فهم مدلول الوعد الالهى فان ما يعنيه هذا الوعد هو عودة اسرائيل الروحى لا اسرائيل بحسب الجسد وأنه يشمل كل من يؤمن بالمسيح سواء كان من اليهود أو من غيرهم من الأمم . ولن تكون عودة اسرائيل الروحى الا يوم القيامة كما جاء فى سفر حزقيال « ها أنذا أفتح قبوركم وأصعدكم من قبوركم يا شعبى وآتى بكم الى أرض اسرائيل . فتعلمون انى أنا الرب عند فتحى قبوركم واصعادى اياكم من قبوركم ياشعبى .

---

(1) متى ٢٤ : ٢٩ — ٣٠
(2) متى ٥٤ : ٣٦
(3) لمقان آية ٣٤

واجعل روحى فيكم فتحيون وأجعلكم فى أرضكم فتعلمون أنى أنا الرب تكلمت وأفعل يقول الرب [1] » .

وهو ما يتفق وتعاليم السيد المسيح الى حوارييه عن عودته وعلامات تلك العودة مما سبقت الاشارة اليه ، فليست هناك عودة أخرى للمسيح الا يوم القيامة . وليست هناك عودة بالتالى لاسرائيل الى فلسطين الا عودتهم الروحية يوم القيامة ، أما العودة التى أشارت اليها أسفار العهد القديم فهى عودتهم من السبى البابلى ولا تتكرر العودة مرة ثانية .

وخلاصة ماتقدم أن الارث فى ابراهيم هو ارث البركة والرسالة وأن الاختيار للأرض وليس للشعب مما يدحض أسطورة شعب الله المختار وما يدعيه بنو اسرائيل من حق فى فلسطين أو أرض الميعاد ، وان بركة ابراهيم تحل فيمن يختار للرسالة وأن المختارين هم المختارون للهداية أى من يبعث فيهم نبى أو رسول .

وقد حلت بركة ابراهيم فى أنبياء اسرائيل كما حلت فى غيرهم من الأنبياء الذين بعثوا الى الأقوام الآخرين فالمعروف أن الأنبياء جميعا هم من نسل ابراهيم ، وقد نسخت رسالة المسيح ما قبلها من الرسالات فحلت فيه بركة ابراهيم ورسالته كما نسخت حق اسرائيل فى الرسالة بشيوع رسالة المسيح الى الأمم جميعا من كان من اسرائيل أو من غير اسرائيل .

---

(١) حزقيال ٣٧ : ١٣ ــ ١٤

وأما الأرض فهى الأرض المختارة اختارها الرب فى الأزمنة القديمة لينحدر اليها ابراهيم لأنها بموقعها الذى يتوسط رقعة العالم القديم أصلح مكان لنشر دعوة الايمان والتبشير بها فى العالم الوثنى المحيط ، وخص بها أصحاب البركة والرسل من نسل ابراهيم سواء كان من اسمعيل أو من اسحق ، وقدسها فى كل دين وفى كل زمان ومكان وخصها بالمؤمنين من عباده .

الفصل الخامس

الإسلام والوعد المقدس

وجاء محمد صلى الله عليه وسلم مصدقا لمن قبله من الرسل ، مصدقا بآيات ابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ، لم يجب ما قبله ولم ينسخ ما سبق ولكن أتم مرحلة التطور فى كمال الأديان السماوية . « قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون [1] » ، ولقد ذكر تهذه الأديان السماوية فى القرآن بأنها الاسلام وأن أتباعها ومعتنقيها والمؤمنين بها مسلمون «واذ أوحيت الى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون [2] » وعن ابراهيم عليه السلام « ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين [3] » .

(١) آل عمران آية ٩٣
(٢) المائدة آية ١١٠
(٣) آل عمران آية ٦٦

فالاسلام هو عقيدة السماء منذ بعث الأنبياء على وجه الأرض وكانت رسالة الله الى عباده على لسان أنبيائه منذ نوح حتى محمد عليهم السلام أجمعين « ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل عمـران على العالمين . ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم [1] » وجاء كل نبي مصدقا لمن قبله من الأنبياء والرسل « انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسـلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون [2] » .

وفى لوقا « وقال لهم هذا هو الـكلام الذى كلمتكم به وأنا بعد معكم أنه لا بد أن يتم جميع ما هو مكتوب عنى فى ناموس موسى والأنبياء والمزامير [3] » وفى أعمال الرسل « أيها الرجال الأخوة بنى جنس ابراهيم والذين بينكم يتقون الله اليكم أرسلت هذا الخلاص . لأن المساكين فى أورشليم ورؤساءهم لم يعرفوا هذا . وأقوال الأنبياء التى تقرأ كل سبت تمحـوها اذ حكموا عليه [4] » .

(١) آل عمران آية ٣٢ ـ ٣٣
(٢) المائدة آية ٤٣
(٣) لوقا ٤٤ : ٤٤
(٤) أعمال الرسل ١٢ : ٢٦ ـ ٢٧

فالمسيح عيسى بن مريم قد بعث الى بنى اسرائيل كما بعث الى الناس جميعا لا فرق بين يهودى وأممى « وأن يكرز باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا لجميع الأمم مبتدئا من أورشليم [1] » ، كما بعث محمد الى قومه وعشيرته أولا ثم كانت رسالته الى العالم أجمع « وأنذر عشيرتك الاقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين • فان عصوك فقل انى برىء مما تعملون [2] » •

والاسلام كما ذكر فى القرآن هو دين نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد وكل الأنبياء ومن تبعهم من الناس ، وليس فى التوراة أو الانجيل ما ينقض ذلك • فالاسرائيليون نسبة الى اسرائيل وهو يعقوب وقد دعى باسرائيل أى المجاهد فى سبيل الله تكريما له ، واليهود نسبة الى دولة يهودا وكان الفرس أول من أطلقها على الاسرائيليين حين نسبوهم الى دولتهم فهى لا تعنى دينا وان غدت تعنى كل من يدين بالشريعة الموسوية ، والعبرية من عبرى ولا تعنى كاليهودية دينا كما لا تعنى جنسية معينة وكان الكنعانيون أول من أطلقها على ابراهيم وذريته كما سبقت الاشارة الى ذلك •

والمسيحية هى أيضا نسبة الى المسيح والنصرانية نسبة الى الناصرة حيث ينسب السيد المسيح وقد وردت فى القرآن صفة لاتباع المسيح وشاعت فى اللغة العربية على هذا المعنى ، ويشيع

---

(١) لوقا ٢٤ : ٤٧
(٢) الشعراء آية ٢١٤ ــ ٢١٦

اصطلاح مسيحى ومسيحية فى اللغات الأوربية ولا تعرف هـذه اللغات مصطلح نصرانى ونصرانية ، أما القبطية والأقباط فتطلق على كل من يدينون بالمسيحية فى مصر ، وهم فى الأصل أتباع المذهب اليعقوبى وان تجاوزتهم الى غيرهم من اتباع المذاهب المسيحية الأخرى فى مصر جوازا ، وعلى هـذا القياس نسب الأوربيون الاسلام الى محمد فقالوا المحمدية وقالوا عن المسلمين المحمديين .

ولم يرد فى التوراة مسمى للعقيدة اليهودية وكل ما جاء قريبا من هذا المعنى أنها بركة الرب التى حلت فى ابراهيم وذريته ويبدو أنها بركة الرسالة على ما يظهر من قصة يعقوب وعيسو مع أبيهما اسحق حين أراد اسحق أن تكون بركته لعيسو واحتالت امرأته ليعقوب حتى تكون له بركة أبيه بدل أخيه عيسو . وذكرت فى سفر الخروج على أنها عهد الرب الى بنى اسرائيل « وأخذ موسى الدم ورش على الشعب وقال هوذا دم العهد الذى قطعه الرب معكم على جميع هذه الأقوال (١) » وليس فى هذا ما يدل على صفة أو اسم .

وفى المسيحية أنها ملكوت السموات وملكوت الله وانها العمادة باسم الآب والابن والروح القدس وانها التكريز باسم الرب وكل هذه صفات وليست مسميات ، أما فى الاسلام فقد جاءت التسمية

---

(١) خروج ٢٤ : ٨

صريحة قاطعة للعقيدة فهى الاسلام أوالدين الاسلامى « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » [1] .

فالاسلام ليس دينا جديدا يبشر به محمد صلى الله عليه وسلم وانما هو الدين الذى بعث به ابراهيم وموسى وعيسى ، دين عبادة الله وحده لا شريك له ، الوحدانية المطلقة المنزهة عن كل شرك وهى آخر مرحلة من مراحل التطور فى ادراك حقيقة الله ، تلك المراحل من التطور التى مرت بهارسالة السماء منذ بعث نوح حتى محمد عليهما السلام .

« انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا دواد زبورا [2] »

ففى محمد صلى الله عليه وسلم انتهت بركة ابراهيم ورسالته كما انتهت من قبل الى اسمعيل واسحق ويعقوب وموسى عليهم السلام .

وقد جبت رسالة يسوع كما قلنا دعوى اسرائيل فى التميز والاختيار ونسخت أن تكون الأرض المقدسة أو أرض الميعاد لغير

---

(١) المائدة آية ٣
(٢) النساء آية ١٦٢

المؤمنين بملكوت السموات فاللعنة تحل باسرائيل كغيرهم من الأمم حين يضلون « يا أورشليم يا أوشليم يا قاتلة الأنبيـاء وراجمة المرسلين اليها كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا • هوذابيتكم يترك خرابا ، لأنى أقول لكم أنكم لا ترونني من الآن حتى تقـولوا مبارك الآتى باسم الرب (١) »

واللعنة تلاحقهم فى القرآن بكفرهم وضـلالهم كما لاحقتهم من قبل فى الانجيـل « ورفعنا فوقهم الطـور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت وأخـذنا منهم ميثـاقا غليظا • فبما نقضهم ميثاقهم وكفـرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغـير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا • وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما • وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسـول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفى شك منه مالهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقينا • بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزا حكيما • وان من أهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا • فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصـدهم عن سبيل الله كثيرا •

---

(١) متى ٢٣ : ٣٧ ـ ٣٩

وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما [1] » •

والارث كما قلنا هو ارث البركة والرسالة والاختيار للأرض المقدسة وليس للشعب • ووجه الاختيار للشعب أى شعب أنه اختص بالرسالة كما اختص بنو اسرائيل برسالة موسى والأنبياء ولن تحل فى الشعب المختار بركة العهد وبركة الرسالة ما لم يؤمن ولن تكون له الأرض الموعودة ما لم تحل فيه بركة العهد وبركة الرسالة معا فاذا تجاوزتاه فقد حرم منها الى الأبد ، فاذا اختص بنو اسرائيل بالرسالة فقد حلت فيهم بركة العهد وكانت لهم الأرض الموعودة ماظلوا قائمين على العهد فاذا تجاوزوه وتجاوزتهم الرسالة لم يكن لهم فى الأرض الموعودة نصيب ولن تكون لهم عودة اليها • أما العودة التى أشار اليها أنبياؤهم فقد كانت قبل ظهور المسيح حين خلصهم كورش الفارسى من سبى بابل وعاد بهم الى أورشليم فأقاموا جدرانها وأعادوا بناء الهيكل ولم تشر التوراة الى عودة ثانية لاسرائيل ، الا عودتهم الروحية يوم القيامة وهى التى يشير اليها حزقيال كما تشير اليها آية الانجيل « أنكم لاترونني من الآن حتى تقولوا مبارك الآتى باسم الرب » وكانت تلك الآية حين أخذ المسيح عليه السلام يخبر حوارييه ويتنبأ لهم بعزم اليهود على صلبه؛ وفى هذه العودة يتساوون بغيرهم فهى عودة البعث والنشور •

---

(١) النساء آية ١٥٣ ـ ١٦٠

والى تلك العودة الروحية لاسرائيل يشير القرآن بقوله «وقلنا من بعده لبنى اسرائيل اسكنوا الأرض فاذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا [1] » .

ولقد قلنا من قبل أن الاختيار للأرض المقدسة وليس للشعب وهى الأرض التى باركها الله لتكون قدس أنبيائه واشراقة رسالاته الى العالمين وهى أرض الميعاد ، التى وعد الله بها الصالحين من عباده وآثر بها ابراهيم وذريته من بعده كما آثرهم بالبركة والرسالة حتى تكون الأرض المقدسة طهورا ومن عليها مطهرين. «ونجيناه ولوطا الى الأرض التى باركنا فيها للعالمين [2] » وينقضى هذا الايثار بشيوع الرسالة بين العالمين من كانوا من ذرية ابراهيم أو من غير ذريته ، فالأرض قد باركها الله للعالمين جميعا لا لابراهيم ولا لذريته وحدهم ولكنها الأرض المقدسة عند كل من آمن برسالات السماء « ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره الى الأرض التى باركنا فيها وكنا بكل شىء عالمين [3] » .

وجب القرآن كالمسيحية فى ذلك ما أدعت اسرائيل من تميز على أبناء ابراهيم الآخرين ومن استعلاء على غيرهم من الخلق فكل أبناء ابراهيم أمة واحدة « ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم

---

(١) الاسراء آية ١٠٣
(٢) الانبياء آية ٧٠
(٣) الأنبياء آية ٨٠

فاعبدون [١] » بل صان الدين الاسـلامى أتباعه ومعتنقيه عن التمـايز والاستعلاء « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى . وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم [٢] ، وفسر البيضاوى تلك الآية الكريمة بقوله « أى خلقناكم من أب وأم فالكل سواء فى ذلك فلا وجه للتفاخر بالنسب وقيل الشعوب بطون العجم والقبائل بطون العرب ، ليعرف بعضكم بعضا لا للتفاخر بالأباء والقبائل » .

والاسلام دعوة التوحيد الى الناس كافة لا فرق بين عـربى وعجمى أو أسود أو أبيض ، أو من ذرية ابراهيم أو غير ذريته كقوله تعالى « وما أرسلناك الا كافة للناس بشـيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون [٣] » وقوله عليه السلام « بعثت الى الناس كافة » وقوله « أنا رسول من أدركت حيا ومن ولد بعدى » [٤] . وعن أبى هريرة « قيل يارسول الله من أكرم الناس ، قال أتقاهم ، فقالوا ليس عن هذا نسألك ، فقال فعن معادن العرب تسألونى ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام اذا فقهوا ، وان كان الله تعالى قد حكم بأن الأكرم هو الأتقى ولو أنه ابن زنجية لغية ، وأن العاصى الكافر محطوط الدرجة ولو أنه ابن نبيين [٥] » .

---

(١) الأنبياء آية ٩١
(٢) الحجرات آية ١٣
(٣) يونس آية ٩٨
(٤) الأحاديث فى كتاب الطبقات الكبير لابن سعد جا ص١٢٧ــ١٢٨
(٥) مقدمة كتاب الأنساب لابن حزم الاندلسى ص ١

وقال عليه السلام فى حجة الوداع « يا أيها الناس ان الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وفخرها بالأباء ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، ليس لعربى على عجمى فضل الا بالتقوى » .

والناس فى الاسلام سواء وذلك أسمى ما يصل اليه الارتقاء الانسانى فى سلم التطور الحضارى وما كان الرسول عليه السلام الا ليسوى بين الناس جميعا لايؤثر أحدا على أحد أويتيه بانسان على انسان ، وفى قصة ابن أم مكتوم مايبرز هذا المعنى الجليل فقد أتى رسول الله وعنده صناديد قريش يدعوهم الى الاسلام ، فقال يارسول الله علمنى مما علمك الله ، وكرر ذلك ولم يعلم تشاغله بالقوم ، فكره رسول الله قطعه لكلامه وعبس وأعرض عنه فنزلت هذه الآيات « عبس وتولى ان جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى . أو يذكر فتنفعه الذكرى . أما من استغنى فأنت له تصدى ، وما عليك الا يزكى . وأما من جاءك يسعى وهو يخشى . فأنت عنه تلهى (١) . » فكان رسول الله يكرم ابن أم مكتوم ويقول اذا رآه « مرحبا بمن عاتبنى فيه ربى ! » واستخلفه على المدينة مرتين (٢) .

والاسلام فى شعائره عنوان المساواة التامة بين الناس جميعا فالناس فى الصلاة يقفون صفوفا الى جوار بعضهم البعض كل فى مكانه

---

(١) عبس آية ١ ــ ٥
(٢) تفسير البيضاوى

الذى قدم عليه لاينزعه الى غيره ، ولا يتقدم سوى الامام ومن عساه يكون من رجال العلم ، والناس يوم الحج الأكبر يقفون بعرفةفى أرديةواحدة يدعون ويبتهلون لافرق بين صغيرهموكبيرهم فالكل فى عقيدة السماء سواء •

والتميز الذى أدعاه بنو اسرائيلواتخذوا من آى التوراة دليلا عليه هو تميز الايمان والتقوى لا تميز العنصر أو النسب فهم كعادتهم قد فسروا التوراة تفسيرا ماديا وجعلوا من عهود الرب صفقة تجارية • كما يقول «ويلز» عقدها الرب مع أبيهم ابراهيم لصالحهم• وهو التميز الذى أنكرته المسيحية كماأنكره الاسلام ، بل ان السيد المسيح ليوغل فى دحض هذا التميز والاستعلاء الا فى التقوى ومحبة الله « الحق أقول لكم لم أجد ولافى اسرائيل ايمانا بمقدار هذا ، وأقوللكم أن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع ابراهيم واسحق ويعقوب فى ملكوت السموات • وأما بنو الملكوت فيطرحون الى الظلمة الخارجة [(١)] » •

والانسان بعمله لا بنسبه « على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون • فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه وافعلوه • ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا لأنهم يقولون ولا يفعلون [(٢)] » والناس

---

(١) متى ٨ : ١٠ ــ ١٢
(٢) متى ٢٣ : ٢ ــ ٣

بأعمالهم لا بأقدارهم « وأكبرهم يكون خادما لكم ، فمن يرفع نفسه يتضع ومن يضع نفسه يرتفع [1] » .

فالفضل والتميز اللذين لبنى اسرائيل هما فضل البركة وتميز الرسالة مما لا ينكره الانجيل كما لا ينكره القرآن . «يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين [2] » .
ويزول ذلك الفضل وذاك التميز بانتقال البركة منهم الى غيرهم وتجاوز الرسالة قومهم الى أقوام آخرين ، بل انهما ليزولا عنهم اذا ما ضلوا عن ذكر ربهم وكفروا بأنعمه وخالفوا وصاياه ، بذلك قالت التوراة وبه قال الانجيل والقرآن .

وقد ضل بنو اسرائيل قبل أن يبعث فيهم المسيح وظلوا على كفرهم وبهتانهم بعد أن بعث اليهم وازدادوا كفرا وبهتانا قبل رسالة محمد وبعد رسالته ، بل ان كفرهم وبهتانهم كانا على حياة أنبيائهم ، لم ترعهم المعجزات ولم تزعهم كرامة الأنبياء . « ولقد آتينا موسى الكتاب ، وقفينا من بعده بالرسل ، وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ، ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون [3] » .
ثم يمارون فى الحق ويخدعون ايمانهم « واذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم ، قل فلما تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين .

(١) متى ٢٣ : ١١ ـ ١٢
(٢) البقرة آية ١٢١
(٣) البقرة آية ٨٦

ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون » .

بل انا لنعتقد أن بنى اسرائيل كانوا عبرة للعالمين ضرب الله بهم مثلا وجعل منهم موعظة للناس ، فليس بعد من كرم بالنسب كرامتهم وليس بعد من اختير للرسالة وخص بالبركة قبلهم ولكنهم ضلوا وهم ذرية ابراهيم وكفروا وهم من أرسل اليهم اسحق ويعقوب وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء فكان جزاء ضلالهم عذاب الدنيا والآخرة وكان جزاء كفرهم هوان الحياة طوال الحياة ولهم فى الآخرة جهنم وبئس المصير ، ليكونوا عظة وعبرة لمن لم يشرفوا بنسب ولم يكن لهم فضل الايثار ، فاذا كان الله جلت قدرته قد أنزل عذاب الدنيا والآخرة ببنى اسرائيل وهم ذرية ابراهيم ومن آثرهم الله بنعمة البركة والرسالة فلا ريب من عذاب شديد يحيق بكل من كفر وضل سبيل الله حتى ولو كان ابن نبيين فالناس فى ملكوت السموات سواء ولا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى .

ولقد ضرب القرآن ببنى اسرائيل مثلا فى كثير من السور والآيات فهم من أنعم الله عليهم وفضلهم على العالمين يكفرون بنعمة الله ويقتلون أنبياءهم فتحيط بهم اللعنة وينزل بهم عذاب شديد ، كذلك كان فى التوراة والانجيل حتى لا يكون للناس من بعد عذر فى تقوى الله وطاعته .

ويجمع الانجيل والقرآن على نعت بنى اسرائيل بالنفاق وتحريف الكلم عن مواضعه ففى متى « ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا لانهم يقولون ولا يفعلون »وفى القرآن « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون (١) » •

ومن قبيل هذا التحريف ادعاء أرض الميعاد حقا لهم وميراثا عن أبيهم ابراهيم وادعاء التميز على شعوب الأرض وان الله آثرهم وحدهم بالاختيار بتفسير التوراة على هواهم فمما لا يقبله عقل أو منطق أن يؤثر الله قوما من عباده على آخرين ما لم تكن هناك حكمة فى هذا الايثار ومما لايقبله عقل أو منطق أن يكون الايثار الالهى ماديا بعقار أو جاه تنتفى معه الحكمة والتأويل • فالايثار الذى كان لبنى اسرائيل والذى يجمع عليه القرآن والانجيل هو الايثار الروحى لذرية ابراهيم وهو ايثار البركة والرسالة لا ايثار الصلة والانتماء وأرض الميعاد هى أرض البركة والرسالة وهى لمن حلت فيهم البركة واهتدوا بهدى الرسالة ، وهذا هو ما عنته التوراة وما يعنيه الوعد الالهى لابراهيم •

ولم تشر أسفار العهد الجديد الى هذا العهد الالهى الذى رددته أسفار العهد القديم الا بأنالوعد هو للموعودين بملكوت السموات سواء كانوا من بنى اسرائيل أو من غير بنى اسرائيل •

---

(١) البقرة آية ٧٤

ولم يشر القرآن الى أرض موعودة لبنى اسرائيل يتوارثونها جيلا بعد جيل أبد الآبدين ولم يذكر غير قصة خروجهم من مصر وكيف أرسل اليهم موسى نبيا ورسولا ليخلصهم من ظلم المصريين وليصعد بهم الى الأرض التى « باركنا فيها للعالمين » وكيف عصوا موسى وعبدوا العجل فضرب عليهم التيه فى بيداء سيناء أربعين عاما ثم كيف كان ضلالهم وكفرهم بأنبيائهم فحق عليهم العذاب الموعود. ويضرب القرآن بذلك مثلا لمن بغى وكفر بأنعم الله.

ومن خلال سور القرآن وما أنزل فيه عن ابراهيم وغيره من الأنبياء نرى تلك الصلة الوثيقة بين الرسالة التى بعث بها محمد ورسالات من سبقه من الأنبياء، فمحمد قد بعث ليتم رسالة السماء ويكمل كما قلنا مرحلة التطور فى كمال الأديان السماوية، تلك الأديان التى أشار اليها القرآن باسم الاسلام، وكلمة الاسلام من التسليم لله، والمسلم من كان ايمانه بالله، ولله يسلم بذلك تسليما لا تشوبه شائبة من شك، أو شرك.

ويسهب القرآن فى ذكر من سبق من الأنبياء والرسل وكيف كان كل نبى منهم داعيا الى الايمان بالله وحده لا شريك له وكيف كان كل منهم مسلما لله يدعو قومه الى الاسلام وكيف كان موقف هؤلاء الأقوام ممن بعثوا اليهم من الأنبياء وكيف كان عذاب الله لمن لا يؤمن من هؤلاء الأقوام فلم يكن الله ليمهل تلك الأقوام الى أجل الآخرة، بل يفجأهم بالعذاب الشديد وهم عنه غافلون جزاء

ماأساءوا الى أنبيائه ورسله ، كقوم ثمود وعاد ولوط وبنى اسرائيل أنفسهم « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » .

وترتقى صور هذا العذاب وتتطور بتطور العقيدة الدينية وارتقائها ، فصور العذاب المادى الدنيوى قد انقلبت الى عذاب الآخرة حيث تجزى كل نفس بماكسبت ، فجاءت المسيحية تبشر بالتوبة وغفران الذنوب وجاء الاسلام بالرحمة ، وان رحمة الله تسع كل شىء . وكانت فاتحة الكتاب « بسم الله الرحمن الرحيم » فقد اتخذ الوعد والوعيد قبل المسيحية والاسلام صورا دنيوية خالصة فالوعد بالتملك أو اكثار النسل والبركة فى الحياة الدنيا والانتصار على الأعداء يقابلها الوعيد بالذل والعبودية والجوع والمرض والهزيمة والفناء ولعل ذلك كان سببا فى تفسير اليهود لمرامى دينهم تفسيرا ماديا خالصا ارتبط فى أذهانهم بالتفوق والاختيار والحكم والسيطرة وامتلاك الأرض وقيام الدولة وبناء الهيكل والالتصاق بالأرض التصاقا اختلطت فيه العقيدة الدينية بالآمال الدنيوية .

ولهذا خلا الانجيل وخلا القرآن من تلك الصور المادية للثواب والعقاب الدنيوى وان حفلا وعلى الأخص القرآن بالصور المادية لنعيم الآخرة فان الذهن البشرى لم يكن ليتصور عذابا أو بؤسا أو شقاء الا متصلا بحياته على الأرض وما كان ليتصور النعيم الا فى تلك الصور البراقة التى تراود أحلامه وأمانيه فى حياته القائمة،

ثم ارتقى الذهن البشرى ليدرك أن حياة الأرض هى حيـاة فانية تعقبها حياة مخلدة فانفصلت صور الثواب والعقاب عن تلك الحياة الفانية لترتبط بالحياة المخلدة الباقية وأصبح الثواب ثواب الآخرة والعقاب عقاب الآخرة أيضا وان لبسا تلك الصور المادية للثواب والعقاب الدنيوى فقد أعدت جهنم للـكافرين والجنة للمؤمنين ولا يعدو وصف جهنم والجنـة ما تتصوره من مظاهرهما المادية ، ولعل الذهن البشرى فى ارتقائه الدائب الى الكمال يستطيع أن يفسر تلك الصـور المادية تفسيرا آخر يتفق مع جلالهـا وعظيم خطرها . فالأديان السماوية قد خضعت لناموس التطـور الذى خضعت له الحياة منذ الأزل حتى فى البرهان الذى أيد الله به أنبياءه فبرهان نوح كان فى معجزة الطوفان والوحى اليه ببناء السفينة لينجو ومن معه من المؤمنين من خطر الطوفان ، وبرهان ابراهيم كان فى النار الذى نجاه الله منها فكانت بردا وسلاما عليه وبرهان موسى كان فى عصاه التى تنقلب حية تسعى وفى اليد التى تخرج بيضاء من غير سوء وبرهان عيسى كان فى احيـاء الموتى وابراء المرضى ، أما برهان محمد فقد سما على تلك الظواهر المادية الى خطاب العقل ومناجاة الضمير ، ليرى الانسان وينظر ويفكر بنفسه أين الهدى وأين الضلال ، أين الحقيقة وأين الباطل ، أين وحى العقل وأين وحى الخرافة ، فكان هذا الانتقال من عالم الحس الى عالم الضمير بداية الكمال فى ارتقاء الذهن البشرى .

لهذا كان الخلاف بينا بين التفسير اليهودى للوعود المقدسة وعهود الرب مع ابراهيم وبين كل من التفسيرين المسيحى والاسلامى .

فاليهود قد فسروا تلك العهود تفسيرا ماديا خالصا فعبارة « اعطى هذه الأرض » فسرت بمعنى الحيازة والتملك وكلمة « لنسلك » بمعنى الذات أو سلالة المولد بينما فسرها المسيحيون بمعنى الاتحاد بالمسيح اتحادا روحيا أى كل من آمن برسالة المسيح هم من نسل ابراهيم ، وان أرض الميعاد هى أرض الملكوت وهى لكل من حلت فيهم بركة المسيح وظفروا بنعمة التجديد .

ويأتى الاسلام فلا يذكر عن أرض الميعاد الا أنها الأرض المقدسة التى « باركنا فيها للعالمين » ولا يرد ذكر للارث والتملك أو أى عهد لأبراهيم مع الرب الا عهد البركة والرسالة حتى اذا ذكرت قصة موسى مع بنى اسرائيل نجد مايشير الى الأرض التى كتبت لهم « واذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين . يا قوم أدخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا يا موسى ان فيها قوما جبارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فانا داخلون . قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين . قالوا يا موسى انا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا

قاعدون • قال رب انى لا أملك الا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين • قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين [1] » •

وقد يبدو لأول وهلة أن عبارة « الأرض المقدسة التى كتب الله لكم » تفيد معنى التملك وما يتبع التملك من حقوق التوريث ، ولكن الاستطراد يفيد أنهم حرموا وهم على أبوابها أربعين عاما ضرب عليهم فيها التيه لعصيانهم وضعف ايمانهم حتى أن موسى دعا الله أن يفرق بينه وبين هؤلاء القوم الفاسقين ، فاذا لجوا فى عصيانهم فان ما حرم عليهم لسبب عارض ولزمن معين يحرم عليهم أبد الآبدين اذا ما انقلب هذا السبب العارض سببا جوهريا ، فاذا كان الله قد ضرب عليهم التيه أربعين عاما حرم عليهم فيها دخول الأرض المقدسة لأنهم امتنعوا عن دخولها ، وضعف ايمانهم عن الثقة بنصر الله وخافوا بطش الجبارين ، فما بالك اذا عظم الأثم فانه أولى بمضاعفة الجزاء • واذا أجمعت الكتب السماوية المقدسة — التوراة والانجيل والقرآن — على ضلال بنى اسرائيل وقد أجمعت على ذلك فان حرمانهم مما آثرهم الله به هو قرين آثامهم وعصيانهم لوصايا « الرب » وان اللعنة لتحل بهم أبد الآبدين « لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون • كانوا لا يتناهون عن

---

(١) المائدة آية ٢٠ — ٢٦ •

منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون • ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم ان سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون [1] » •

وان عصيان بنى اسرائيل وكفرهم بأنعم الله وآياته بعد أن آتاهم الكتاب والحكم والنبوة لقمين أن ينقلها عنهم الى غيرهم « أؤلئك الذين أتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين [2] »

ويؤيد ذلك ما قلناه من قبل وهو أن الوعد المقدس هو وعد البركة والرسالة ، وهما فى ذرية ابراهيم نبيا بعد نبى حتى محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه حق لكل من آمن برسالة الأنبياء سواء كان من ذرية ابراهيم أو غير ذريته ، وأن الأرض المقدسة هى للمؤمنين من هؤلاء ، وان ذلك لينسخ دعوى بنى اسرائيل فى التميز والاختيار فلا نجد خلافا حول ذلك فى مدلول الكتب المقدسة وأولها التوراة ، وسنرى أن هذا الوعد الالهى قد تحقق برمنه فى ذرية ابراهيم ، فكانت لهم الأرض المقدسة بغلبة أبناء اسمعيل على ما عداهم وانتشارهم فى تلك البقاع قبل وبعد امتداد الموجة الاسلامية الباهرة الى تلك البقاع وأصبحت الأرض المقدسة حرما مباركا فى كل أديان السماء •

---

(١) المائدة آية ٧٨ ــ ٨٠
(٢) الأنعام آية ٨٩

ويؤكد القرآن ذلك فى صراحة ووضوح فى هذه الآية الكريمة « واذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن ، قال انى جاعلك للناس اماما ، قال ومن ذريتى . قال لا ينال عهدى الظالمين (١) »

فوراثة عهد ابراهيم هى لمن آمن بالرسالة التى بعث بها ، وليس لذريته أن تدعى حق الوراثة فى عهده ما لم يؤمنوا برسالته فاذا امتد الإيمان الى غيرهم كان لهم ما لذريته من حق عليه ، فالايمان لا يمكن أن يكون احتكارا لأمة أو جنس يتوارثه بحكم النسب أو صلات الدم ، وانما الايمان ايمان القلب من رعاه فى أى جيل وفى أى قبيل كان أولى بوراثة العهد من أبناء الصلب وأقرباء النسب . فمن استقام على العقيدة فهو وريثها ووريث بشاراتها وعهودها ، ومن فسق عنها فقد فسق عن عهد الله وزالت وراثته لهذا العهد وما فيه من تكريم وتفضيل وبشارة وتمكين (٢) .

ويسقط هذا كل دعاوى اليهود فى اصطفائهم واجتبائهم لمجرد أنهم ورثة ابراهيم وبنيه لأن هذه الوراثة قد سقطت عنهم بزيغهم وتخليهم عن العقيدة الالهية الخالدة .

ومما يدل على وحدة الدين الالهى من اليهودية الى المسيحية فالاسلام أن القبلة الأولى للمسلمين كانت بيت المقدس حتى تحولوا عنها الى الكعبة ، وليس التحول عنها الى الكعبة لأنها

---

(١) البقرة آية ١٢٤
(٢) سيد قطب فى ظلال القرآن جـ١ ص ٨٤

مقام ابراهيم ومصلاه ولا لأنها البيت الذى شارك فى بنائه اسمعيل أب العرب فيكون أبناء اسمعيل أولى بقبلتهم من قبلة أبناء اسحق، ولكن الحكمة فى اختيار بيت المقدس قبلة أولى للمسلمين حتى يتأكد ذلك المعنى الكريم معنى وحدة الرسالة الالهية منذ بعث بها ابراهيم حتى تمت على يد محمد ، وحتى لا يكون اختيار بقعة بالذات وايثارها بالقداسة والتكريم ايثارا على غيرها فلله المشرق والمغرب ، ولا يكون اختيار بيت المقدس ايثارا لذرية ابراهيم من اسحق واختيار الكعبة ايثارا لذريته من اسمعيل فان كليهما فى عهد أبيهما ابراهيم سواء ، ولعل فى اختيار بيت المقدس أولا ثم التحول عنه الى الكعبة ما يرمز الى تحول البركة والرسالة من ذرية اسحق الى ذرية اسمعيل مع توكيد الوحدة الكبرى للرسالة الالهية فى ابراهيم وانتهائها فى محمد ، فان الله جلت قدرته ، لو لم تكن له فى ذلك حكمة عليا لهدى رسوله الى القبلة التى يختار منذ البداية ، فان جعل لذلك سببا فلأجل أن تبرز تلك الحكمة العليا وتستبين •

وكان هذا السبب حين حاج اليهود محمدا فى مقامه بالمدينة فى حين أن من سبقه من الرسل كانت اقامتهم ببيت المقدس وانه ان يكن رسولا حقا فجدير به أن يصنع صنيعهم وأن يعتبر المدينة وسطا فى هجرته بين مكة وبيت المقدس مدينة المسجد الأقصى • لكن محمدا لم يحتج الى طويل تفكير فيما عرضوا عليه ليعلم أنهم يمكرون به وأوحى اليه الله يومئذ على رأس سبعة عشر شهرا من

مقامه بالمدينة ، أن يجعل قبلته الى المسجد الحرام بيت ابراهيم واسمعيل [1] ونزلت الآية « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره [2] »

وقد لا تغيب تلك الحكمة على ذوى الفطن بعد أن تحول المسلمون بقبلتهم عن بيت المقدس الى البيت الحرام بمكة فانه أول بيت رفع ابراهيم قواعده وذلك قبل بناء هيكل بيت المقدس ببضع مئات من السنين. فلم يكن الهيكل قبل ذلك وفى عهد البداوة غير خيمة اعتقد الشعب أن الله يتجلى فيها للأنبياء والكهان ثم بنيت الخيمة من خشب يفك وينقل فى سنى التيه حتى أقام سليمان الهيكل بديلا من الخيمة ومن المعبد الخشبى [3] . وكان ابراهيم فى تجواله بأرض كنعان حين انحدر من حاران يقيم مذبحا للرب حيثما تجلى له وكان أول ما أقام من هذه المذابح حين تجلى له الرب عندما اجتاز الى « مكان شكيم الى بلوطة مورة [4] » وحين نقل من هناك الى الجبل شرقى بيت ايل نصب خيمته وبنى هناك مذبحا للرب [5] . والى هذا المكان كانت أوبته بعد خروجه من

---

(١) الدكتور هيكل محمد حسين ، حياة محمد . الفصل ١١
(٢) البقرة آية ٤٤
(٣) العقاد ، عباس محمود ــ عبقرية المسيح ص ٣١
(٤) تكوين ١٢ : ٦
(٥) تكوين ١٢ : ٨

مصر . ولما اعتزل أخاه لوطا ونقل خيامه الى « بلوطات ممرا التى فى حبرون » وأقام عندها « بنى هناك مذبحا للرب [١] » ، وكان كل ذلك قبل أن يولد لابراهيم ولد ، ولا يذكر بعد ذلك أن ابراهيم بنى مذابح أخرى للرب ، وقد اندثرت آثارتلك المذابح ولم يعد لبنى اسرائيل غير هيكل بيت المقدس وان لم يكن لابراهيم يد فى بنائه . أما البيت الذى بناه ابراهيم وبقى خالدا على الزمن فهو البيت الذى أقامه حيث أسكن ابنه اسمعيل وتفجرت بئر زمزم وان لم تشر التوراة اليه الا أن تاريخ العرب يؤكده ويذكره القرآن فى مواضع كثيرة . « ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا [٢] » .

والحكمة فى اختيار بيت المقدس قبلة أولى للمسلمين ثم التحول عنه الى الكعبة هى الحكمة فى توكيد هذا المعنى من وحدة الدين الالهى وهو المعنى الذى أشار اليه القرآن وأكده فى أكثر من موضع حين دعا ما سبق من أديان بالاسلام وحين قال ان الأنبياء السابقين كانوا مسلمين وبعثوا برسالة الاسلام ، ومما يؤيد ذلك أن هيكل بيت المقدس قد دعى فى القرآن باسم « المسجد الأقصى » تمييزا له عن المسجد الحرام وهو الكعبة « سبحان الذى أسرى بعبده

---

(١) تكوين ١٧ : ١٨
(٢) آل عمران آية ٩٦ — ٩٧

ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير (١) » .

وترتبط بهذا المعنى أيضا حكمة الاسراء والمعراج ففى الاسراء يسرى محمد بآثار من سبق من الأنبياء فيقف عند جبل سيناء حيث كلم الله موسى ثم يقف مرة أخرى عند بيت لحم حيث ولد عيسى وينطلق بعد ذلك الى بيت المقدس حيث يلقى ابراهيم وموسى وعيسى فيصلى معهم على أطلال هيكل سليمان ، ثم يرتقى المعراج مرتكزا على صخرة يعقوب فيصعد به سراعا الى السموات فيلقى فى طريقه الى سدرة المنتهى آدم ونوحا وهارون وموسى وابراهيم وداود وسليمان وادريس ويحيى وعيسى .

فحكمة الاسراء والمعراج فضلا عن أنها تمثل وحدة الوجود فى غاية كماله وجلاله فانها تمثل أيضا وحدة البركة والرسالة التى تمثلت فى هذا الرعيل من الأنبياء والمرسلين الذين لقى محمد فى اسرائه ومعراجه وهى خير مثال لوحدة هذا الدين الذى بعث به الأنبياء على اختلافهم .

وقصة ابراهيم التى يقص القرآن هى قصة رجل ألهم مالم يلهم غيره من الناس فتبين ضلال قومه بعبادتهم لأصنام يصنعها أبوه ، لا تفقه ولا تعى ، وسأل أباه كيف يعبدها وهى من صنع يده ،

---

(١) الاسراء آية ١

وانصرف يقلب وجهه فى السماء يتأمل جلال هذا الكون وما عسى تكون تلك القوة المبدعة الخلاقة التى سوته وأحسنت صنعه وظنها القمر ثم ظنها الشمس ولكنه رأى القمر والشمس يخضعان لما يخضع له سائر الخلق حتى هداه الله فأسلم وجهه اليه « فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين • فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين • فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم انى برىء مما تشركون • انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين [1] »

ولم ينجح ابراهيم فى هداية قومه فهجرهم بعد أن نجاه الله منهم وارتحل غربا نحو فلسطين ثم نزل منها الى مصر حيث حلت بالبلاد مجاعة ثم صعد الى فلسطين مرة أخرى وقد حمل معه هدايا الملك ومن بينها جارية هى هاجر التى أولدها بكره اسمعيل بعد أن دفعته زوجه سارة الى الدخول بها اذ لم تنجب هى لابراهيم وما أن شب اسمعيل عن الطوق حتى حملت سارة وولدت اسحق •

وشب اسمعيل واسحق سويا يلقيان من عطف أبيهما على حد سواء وأنكرت سارة أن يكون لابن الجارية ما لابنها عند أبيهما ، وأقسمت ألا تساكن هاجر وابنها حين رأت اسمعيل يضرب أخاه ،

---

(١) الأنعام آية ٧٦ ـ ٧٩

ورأى ابراهيم أن العيش لن يطيب للمرأتين معا ، فحمل هاجر وابنها جنوبا حتى انتهى به الرحيل الى واد قفر تجتازه الرواحل شمالا وجنوبا فخلفهما فيه بعد أن ترك لهما بعض ما يتبلغان به وتفذ الماء والزاد وأخذت هاجر تجيل طرفها فيما حولها فلا ترى شيئا فنزلت الى الوادى تلتمس ماء وجعلت تهرول بين الصفا والمروة حتى أتمت الهزولة سبعا عادت بعدها الى وليدها واليأس يجتاحها فوجدت الماء ينبع تحت قدمه فأروته وارتوت ، وحبست الماء عن السيل حتى لا يضيع فى الرمال واستهوى نبع زمزم بعض القبائل فأقامت الى جواره وكانت جرهم أولى القبائل التى أقامت والى جرهم أصهر اسماعيل فاجتمعت فى ذريته دماء العبريين والمصريين وعرب الصحراء فكانوا ذوى بأس وقوة وتمثلت فيهم فضائل العرب والمصريين والعبريين (١) .

ويرفع ابراهيم قواعد البيت الحرام كعادته فى اقامة بيت لله حيثما يحل مثابة للناس وأمنا ويعهد الله اليه والى ابنه اسمعيل أن يطهراه للطائفين والعاكفين والركع السجود ، ويدعو ابراهيم ربه أن يؤمن هذا البلد ويفىء على أهله الخير « واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال انى جاعلك للناس اماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين . واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا

---

(١) هيكل : حياة محمد ف ٢

من مقا مابراهيم مصلى وعهدنا الى ابراهيم واسمعيل أن طهرابيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود • واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر• قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره الى عذاب النار وبئس المصير • واذيرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم • ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم• ربنا وابعث فينا رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم • ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين • اذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين• ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بنى ان الله اصطفى لكم الدين فلاتموتن الا وأنتم مسلمون • أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد الهك واله أبائك ابراهيم واسمعيل واسحق الها واحدا ونحن له مسلمون • تلك أمة قد خلت لها ماكسبت ولكم ماكسبتم ولاتسألون عماكانوا يعملون [1]•

وتقص تلك الآيات البينات رسالة ابراهيم وعهده فتجمل بذلك رأى الاسلام فى العهد الالهى وورثة هذا العهد من ذريته أو من الناس أجمعين ، فان الله تعالى ليبتلى ابراهيم ويجربه فيجتاز التجربة ويتم كلمات الله ويقوم برسالته لم يفتن ولم يغير ولم يجحد فاستحق تلك البشرى وحلت فيه بركة الله فجعله للناس اماما يهديهم

(١) البقرة آية ١٢٥ ــ ١٣٢

الى الله ويكون لهم قدوة ، ويرجو ابراهيم أن يفيء على ذريته ما أفاء الله عليه فتأتيه كلمة الله قاطعة وهى ألا ارث فى عهده فلن يناله الا من آمن بالله واليوم الآخر ولن يكون أبدا للظالمين فليست لهم امامة أو خلافة أو قيادة ولوكانوا من ذريته •

أما البيت الذى رفع ابراهيم واسمعيل قواعده بأمر الله فهو بيت الله الحرام وهو مقام ابراهيم وهو مثابة وأمن للناس جميعا لا يصدهم عنه أحد ولا يروعهم فيه مروع وهو مصلى لهم لا يمنعهم أحد عنه فمن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه فليس البيت لقبيل دون قبيل ولا لأمة دون غيرها وليس ارثا لأناس يمنعونه عمن يريد أو يصدون عنه من تهفو نفسه اليه بل هو للناس جميعا وما لأحد عليه من سلطان •

واذ عهد الله الى ابراهيم واسمعيل « أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود » فهو عهد اليهما أن يقوم بسداتنه وليس لهما فيه من حق غير هذا فالبيت بيت الله وليس ملكا لهما وليس لهما أن يورثاه الى غيرهما •

وتؤكد الآيات التاليات أمن البيت ومن يلوذ به كما تؤكد أن الارث للبركة والرسالة فان ابراهيم يدعو ربه أن يفيء الأمن على بيته وأن يرزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر أما الذين لا يؤمنون فيمهلون قليلا ثم يضطرون الى عذاب النار وليس لهم من فرار •

واذ يرفع ابراهيم واسمعيل القواعد من البيت فانهما ليدعوان

الله ويبتهلان اليه أن يتقبل منهما وأن يفيء عليهما وعلى ذريتهما نعمة الاسلام وأن يبعث فيهم رسولا يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم فتحل فيه بركة الرسالة ، رسالة الاسلام ، وفيمن تبعه بركة الايمان وينتهي اليهم ارث ابراهيم بنعمة الاسلام ، فما كان ابراهيم الا مسلما بأمر ربه اصطفاه الله وذريته لهذا الدين الحنيف الذى بعث عليه الأنبياء جميعا منذ ابراهيم حتى محمد عليهم السلام اجمعين ، وتلك أمة قد خلت لا تربطها صلة بأمة جاءت بعدها وضلت طريقها فلكل منهما ما كسب ، ولا مجال للتعلق بوراثة قد تقطعت أسبابها فلا تسألون عما كانوا يعملون فلكل منهما حساب ولكل منهما طريق •

وهكذا تقطع تلك الآيات البينات بأن عهد ابراهيم هو عهد البركة والرسالة لمن آمن من بعده من ذريته أو من غير ذريته وان كان الله قد كرمه أعظم التكريم فكان كل الأنبياء من نسله أما الايمان فليس وقفا على نسله بل هو للعالمين جميعا ، فلا مكان للاختيار أو التميز أو الاستعلاء فى أمر يتساوى فيه الناس أجمعين ، والأرض أرض البركة وقد كنى الله تعالى عنها بالبيت الحرام هى لله وحده يورثها من يشاء من عباده الصالحين وهى للناس جميعا من كل قبيل ومن كل أمة فان كان الله قد وعد بها ابراهيم فلم يعد بها غير المؤمنين من ذريته •

وهذه هى كلمة الاسلام فى الوعد الالهى لابراهيم ومعنى

هذا الوعد الالهى ومدى ما لذريته من حق فى وراثته لا يختلف ما جاء به الاسلام عما جاءت به المسيحية ولا يختلفان معا عما جاء فى التوراة .

وقد صدق الله وعده فكان من ابراهيم أمة كعدد نجوم السماء وكان منها أنبياء وملوك وورثت تلك الأمة أرض الميعاد كما يقص التاريخ بعد ذلك .

الفصل السادس

مصداق الوعد

ولا نجد كتاريخ بنى اسرائيل مصداقا للوعد المقدس الذى عاهد الله ابراهيم عليه ، ولايعنينا فى هذا الجانب من البحث أن يكون الوعد المقدس هو وعد البركة والرسالة الذى حل فى ابراهيم وفى كل من تبع دينه من بعده كما لايعنينا أن يكون الاختيار للأرض وليس للشعب وانما يعنينا أن نتتبع تاريخ بنى اسرائيل فان تاريخهم هو أبلغ برهان على صدق آيات الله فلو كان ما يعنونه بتفسير الوعد الالهى حقا لما كان هناك تناقض بين مايعنونه وماجرى عليه تاريخهم منذ كان لهم تاريخ حتى اليوم ، ولأصبحوا منذ زمن بعيد سادة الهلال الخصيب بدلا من أن لايكون لهم فيه مبرك بعير، ولكانوا من كثرة العدد والانتشار ما يفوق كل ذرية ابراهيم الآخرين بدلا من تلك القلة التى لا تتجاوز بضعة عشر مليونا ليسوا جميعا من ذرية ابراهيم ، ولغدو من الجاه والسلطان ما يفوق كل جاه أو سلطان لغيرهم بدل أن يكونوا أذلاء مستضعفين فى العالم ، ولتباركت فيهم كل أمم الأرض بدل أن تنبذهم كل أمم الأرض ،

فليس فى تاريخ بنى اسرائيل ما يوحى بأنهم حقا ورثة هذا الوعد المقدس ، والاضل ايماننا بالقدرة الالهية وبصدق وعد الله وحاشا لله أن يمترى وحاشا أن نلغوا بالباطل كما يلغوا به بنو اسرائيل .

ويبدأ تاريخ بنى اسرائيل بيعقوب أب الأسباط وقد عرفنا كيف نال يعقوب بركة أبيه اسحق بدل أخيه عيسو وكيف أصبح يلقب باسرائيل أى الأمير المجاهد فى سبيل الله بعدمصارعة له مع ملاك الرب « فبقى يعقوب وحده وصارعه انسان حتى طلوع الفجر . ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه فانخلع حق فخذ يعقوب فى مصارعته معه . وقال اطلقنى لأنه قد طلع الفجر . فقال لا أطلقك ان لم تباركنى . فقال له ما اسمك فقال يعقوب . فقال لايدعى اسمك فيما بعديعقوب بل اسرائيل لأنكجاهدت مع الله والناس وقدرت . وسأل يعقوب وقال اخبرنى باسمك فقال لماذا تسأل عن اسمى ، وباركه هناك [1] » .

ويعقوب هو الجيل الثالث لابراهيم وقد ولد له من زوجه « لية » رأوبين وشمعون ولاوى ويهوذا وبساكر وزبولون وابنة اسمها « دينة » كما ولد له من جاريتها زلفة ولدان هما « جاد » و « أشير » ، وولدت راحيل « يوسف » و « بنيامين » وولدت جاريتها « بلهة » « دان » و « نفتالى » فيكون جملة أولاده ابنة واحدة واثنتى عشر ولدا هم الأسباط الاثنى عشر .

---

(١) تكوين ٣٢ : ٢٤ — ٢٩

وولد هؤلاء الأبناء جميعا ما عدا بنيامين فى « فدان أرام » حيث خدم يعقوب صهره وخاله « لابان » نيفا وأربعة عشر عاما وفاءا لمهر زوجتيه على ما تقص التوراة أما بنيامين فقد ولد فى مكان بين أفراتة وبيت لحم (١) ، فى طريق يعقوب عند أوبته الى بيت أبيه وأرض ميلاده .

وتجرى الرواية بعد ذلك فى التوراة وفى القرآن عن نزول يعقوب وبنيه الى مصر حيث أصبح لابنه وأخيهم يوسف شأن عظيم فى بلاط فرعون . ويقيم بنو اسرائيل فى مصر زمنا ويكثر عددهم ويلقون بعد رعاية فرعون يوسف ذلا ممن أتوا بعده من الفراعين فقد خافوا كثرتهم كما خافوا خياتنهم كما تقص التوراة ورأوا فيهم شعبا غريبا لا يؤمن جانبه ولا يرجى ولاءه فاستعبدوهم « فاستعبد المصريون بنى اسرائيل بعنف . ومرروا حياتهم بعبودية قاسية فى الطين واللبن وفى كل عمل فى الحقل ، كل عملهم الذى عملوه بواسطتهم عنفا (٢) » .

ويبدو أن المصريين لم يستطيعوا هضم بنى اسرائيل فى بيئتهم ولم يتمثلوهم كما تمثلوا كل نازح من الغرباء اليهم واحتفظ بنو اسرائيل بطباعهم ومأثوراتهم وكل مقومات حياتهم بعيدة عن تأثير المصريين فعاشوا غرباء بينهم وليس للغريب فى الوطن النازح

---

(١) تكوين ٣٥ : ١٦ : ٢٠
(٢) خروج ١ : ١٣ ــ ١٤

حق الأصيل مهما تقادم عليه العهد ، فالولاء للوطن ألفة ورباط وليس للغريب رباط أو ألفة لوطن يشعر أنه لاينتمى اليه ، ولعل فى ذلك مايفسر أمر فرعون بقتل الأبناء من المولودين دون البنات فان استئصال الذكور يدفع بالاناث الى ذكور آخرين من غير أبناء جنسهم ويكفل هذا التزاوج انصهار الشعب الغريب فى الشعب الأصيل وان كان المفسرون يقولون بغيرهذا ، وأن العرافين قد تنبأوا لفرعون بأن سيولد فى بنى اسرائيل وليد يغلبه وتكون نهايته على يديه فأمر بقتل كل مولود من الذكور .

وتمضى التوراة والقرآن فى قصة موسى وكيف ولد فأنقذه الله من أمر فرعون ورده الى أمه وكيف نشأ فى بيت فرعون حتى اشتد عوده ولم ينس أرومته فقتل مصريا دفاعا عن عبرى وفر بعدها الى أرض مدين ناجيا بنفسه حيث تزوج صفورة ابنة يثرون كاهن أوامير مدين وعاش هناك زمنا حتى بعث الى بنى اسرائيل رسولا ونبيا وليصعد بهم الى أرض كنعان ، وأيده الله بآيات من لدنه وأرسل معه أخاه هارون نبيا ليشد من أزره .

وصعد موسى ببنى اسرائيل من مصر وغاضت مياه البحر أمام بنى اسرائيل ليسلكوا طريقا ذللا ولحق به فرعون فأطبقت عليه مياه البحر فكان من المغرقين وتمت معجزة السماء ونجا بنو اسرائيل من بطش فرعون ومن استعباد المصريين ، وخرجوا الى برية سيناء ، لكنهم وقد جبلوا على الذل والغدر والنفاق والضلال

كفروا بأنعم الله وصوروا لأنفسهم عجلا من ذهب عبدوه فضرب عليهم التيه فى البرية أربعين عاما ولم يشأ الله أن يبطش بهم كما بطش بعاد وثمود وقوم لوط ولله فى ذلك حكمة فالخير والشر توأمان منذ بدء الخليقة ، ومن عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ، وان الله ليمهل ولكنه لا يهمل ، « ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره الى عذاب النار وبئس المصير » ، ولكن رحمته تعالى قد وسعت كل شيء فاذا وسعت رحمته بنى اسرائيل بعد ضلالهم ، فليضرب الله بهم مثلا آخر غير المثل الذى ضربه بقوم عاد وثمود ومن ضـل من قبل ، وليكون مثـل بنى اسرائيل مثل من يجتبيه الله ويفضله بنعمائه ويكرمه ببركته فيكفر بأنعم الله وببركته تعالى فتحل عليه اللعنة الى يوم الدين وتبقى اللعنة فيه وفى ذريته عبرة لمن يكفر بأنعم الله ، ويضل سعيه فى الحياة الدنيا ، ويبقى المثل حيا بتجدد اللعنة وتعاقبها فيهم جيلا بعد جيل .

وهكذا كانت حياة بنى اسرائيل منـذ أن كانوا حتى اليوم أمثولة للبشر ، وذكرى باقية حية لمن يكفر بنعمة الله . وأول آثار هذه اللعنة الأبدية أن تزول عنهم البركة وتغيض عنهم النعمة، فهاهم بعد أن خـرجوا من سيناء الى قادش من مشارف أرض كنعان يمتنعون عن دخولها خوفا وهلعا من سكانها ويقولون لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون . فكأنهم بعد كل ما مر بهم من أحداث وماشاهدوه من معجزات السماء لا يثقون فى وعد الله بنصره

ايلهم ، ويقعدون عن دخول الأرض التى كتب الله لهم ، وقال الذين ذهبوا يكتشفونها ان « الأرض التى مررنا فيها لنتجسسها هى أرض تأكل سكانها وجميع الشعوب الذى رأينا فيها اناس طوال القامة . وقد رأينا هناك الجبابرة بنى عناق من الجبابرة فكنا فى أعيننا كالجراد وهكذا كنا فى أعينهم[١] » .

وغضب الله عليهم وأراد ليبطش بهم لولا أن تشفع لهم موسى « فان قتلت هذا الشعب كرجل واحد يتكلم الشعوب الذين سمعوا بخبرك قائلين . لأن الرب لم يقدر أن يدخل هذا الشعب الى الأرض التى حلفت لهم قتلهم فى القفر . فالآن لتعظم قدرة سيدى كما تكلمت قائلا . الرب طويل الروح كثير الاحسان يغفر الذنب والسيئة لكنه لا يبرىء بل يجعل ذنب الآباء على الأبناء الى الجيل الثالث والرابع . أصفح عن ذنب هذا الشعب كعظمة نعمتك وكما غفرت لهذا الشعب من مصر الى ها هنا . فقال الرب قد صفحت حسب قولك . ولكن حى أنا فتملأ كل الأرض من مجد الرب . ان جميع الرجال الذين رأوا مجدى وآياتى التى عملتها فى مصر وفى البرية وجربونى الآن عشر مرات ولم يسمعوا لقولى . لن يروا الأرض التى حلفت لآبائهم ، وجميع الذين أهانونى لا يرونها[٢] .

---

(١) عدد ١٣ : ٣٢ ــ ٣٣
(٢) عدد ١٤ : ١٥ ــ ٢٢

وضرب الله عليهم التيه فى البرية أربعين عاما بدل أن يبطش بهم حتى فنى ذلك الجيل الذى شــهد معجزات الرب وعصاه فكانت تلك أول لعنة تنزل ببنى اسرائيل ، فالحرمان من دخول الأرض التى وعدهم الله والفناء فى التيه كانا قرينا عصيانهم وكفرهم بأنعم الله ، مما يؤيد ما قلناه من قبل وهو أن الوعد للبركة والرســالة وان الاختيار للأرض وليس للشعب فمن حلت فيهم البركة والرسالة كانوا هم الموعودين بالأرض ، وقد ضلت البركة بنى اسرائيل حين كفروا بالرسالة فكان الحرمان من الأرض الموعودة جزاء ذلك ، فلم يكن وعد الرب مطلقا من كل قيد أو شرط ، بل كان قرين الوفاء بالرسالة ، وسنرى أن الله حين اختار بنى اسرائيل للبركة والرسالة ووعدهم بالأرض المقدسة قد ضرب بهم مثلا للناس ، فمهما كانت قربى العبد الى الله فليس له من بركته شيء ما لم يف بعهده ويقوم برسالته فلن يميز الله انسانا على انسان أو قبيلا على قبيل الا اذا كان قريبا الى الله بالايمان والتقوى .

وبعد أن خرج بنو اسرائيل من تيههم الى حيث كانوا فى قادش وهى واحة معشبة فى برية « صين » الى الشمال من جبل الطور ، حيث كلم الله موسى ، يرد اليها الرعاء ويصــدرون وسط هــذا القفر ، وجد موسى أن مملكة أدوم تقوم فى طريقهم الى شرق الأردن حيث رأى أن يمر ببنى اسرائيل قبــل أن يعبر الى أرض كنعان ، فأرسل اليهم رسولا يستأذنهم فى المرور فأبوا ، ودار موسى ببنى

اسرائيل حول بلاد أدوم فضاقوا بمشقة الطريق وجفاف العيش وبرموا بموسى وربه فأرسل عليهم حيات تلدغهم ومات منهم عدد كبير حتى استغفر لهم موسى ليرفع عنهم الحيات ، وداوم موسى على السير وحارب فى طريقه الأمورين وانتصر عليهم كما انتصر على عوج ملك باشان ثم نزل بقومه الى عربات مؤاب عبر أردن أريحا وأشرف على أرض كنعان الى الغرب من الأردن •

واختار بنو رأوبين وبنوجاد السهل الواقع الى شرق الأردن سكنا ومقاما ، وانضم اليهم نصف سبط منسى على ألا يقعدوا عن الحرب مع قومهم حتى يتم لهم النصر على الكنعانيين وقضى لهم موسى بذلك ما وفوا بهذا العهد •

وحرم موسى على الاسرائيليين امتلاك أدوم فهى لأبناء عمومتهم بنى عيسو كما حرم عليهم كذلك امتلاك أرض مؤاب وعمون فهى لأبناء لوط • ثم أتم رسالته ووصاياه الأخيرة الى بنى اسرائيل وخلف عليهم يشوع بن نون ثم تركهم وصعد الى جبل «نبو» وحيدا ليموت ، قبل أن تطأ قدمه أرض الميعاد •

* * *

لم تكن فلسطين فى ذلك الوقت تمثل وحدة سياسية من أى نوع ولم يتح لها فى تاريخها أن تتمتع بكيان سياسى معين بل كانت طوال تريخها منتجع قبائل تتمتع بنوع من الاستقلال الذاتى أحيانا وتخضع فى أغلب الأحيان لحكم الدول القوية المجاورة كمصر وبابل وأشور • وحين أفل نجم الساميين فى الهلال

الخصيب وبزغ نجم الشعوب الهندوأوربية كالحيثيين والفرس والهيلينيين والرومان ، خضعت فلسطين لتلك الدول الناشئة واحدة بعد الأخرى فامتد اليها سلطان الحيثيين واجتاحها الفرس ثم اليونان فالرومان حتى بزغ فجر الاسلام فدخلت فى نطاق الدولة الاسلامية الكبرى حتى سقوط الخلافة العثمانية فى ختام الربع الأول من القرن العشرين ، ففرض عليها الانتداب البريطانى فى أعقاب الحرب العالمية الأولى .

ولكن غلبة العناصر السامية على فلسطين ظلت سائدة لا تتأثر بنزوح العناصر الجديدة التى سادتها طويلا ، وان لم تتمتع بنوع من الاستقرار السياسى الا فى ظل الاسلام حيث صهرت تلك العناصر العديدة فى البوتقة العربية الكبرى التى جمعت الجنس السامى أو العربى لأول مرة فى التاريخ وأصبحت فلسطين جزءا من بلاد العروبة التى وحدها الاسلام فى نطاقه الكبير .

وكانت فلسطين قبل دخول الاسرائيليين اليها تخضع للدولة المصرية منذ اجتاحها أحمس الأول فى أعقاب الهكسوس ووضع قواعد الامبراطورية المصرية التى امتدت الى أعالى الفرات على يد الأحامسة والرعامسة وسادت تلك البقاع قرابة خمسة قرون بعد ذلك .

الا أن السيادة المصرية على فلسطين لم تكن قوية على الدوام ، وكانت تتأثر الى حد بعيد باهتمام فرعون بالامبراطورية وبما يبذله

من جهد لدعم النفوذ المصرى فى أجزائها ، ويبدو أن امتناع الاسرائيليين عن دخول فلسطين فى البداية كان بسبب خوفهم من المصريين ، وان سنوات التيه الأربعين لم تكن الا انتظارا للوقت المناسب الذى تضعف فيه السيادة المصرية على البلاد فيدخلونها آمنين ، ولعل فى ذلك ما يفسر نبوءة التوراة بمنع موسى عن دخول أرض كنعان فقد حضرته الوفاة وقومه يعسكرون فى أرض مؤاب مقابل أريحا ، فأراد أن يخلف على قومه من يثق بصدقه وحسن قيادته حتى يضمن طاعتهم له بعد وفاته • ويرى بعض المؤرخين أن موسى لم يكن نبيا فحسب وانما كان قائدا وسياسيا أيضا ، وحين حضرته الوفاة لم يكن هذا الوقت المناسب قد آن لبنى اسرائيل لدخول أرض كنعان ، وليس هناك من ينكر أن موسى بعدما قام به من جهد فى قيادة بنى اسرائيل والخروج بهم من مصر لم يكن يرغب فى الدخول الى أرض كنعان على رأس قومه ، لولا ما عاقه عن دخولها قبل أن تحضره الوفاة سواء كان السبب دينيا أم سياسيا •

ويقال ان زحف بنى اسرائيل الى أرض كنعان واستيلائهم على سهل الأردن كان فى أيام الفرعون امنحوتب الثالث ففى نهاية حكمه وبداية حكم أخناتون بدأ ضغط الحيثيين من الشمال على أملاك مصر ، وفى لوح من ألواح تل العمارنة اكتشف عام ١٨٨٧ ما يشير الى طلب النجدة من فرعون مصر لصد زحف الحيثيين على فلسطين من الشمال وزحف أقوام آخرين يسمون «العبيرو» أو

الخبـيرو « Habiru » من الجنوب والشرق ويرى بعض المؤرخين أن هـؤلاء الذين يقـال لهـم « العبـيرو أو الخبـيرو » هم العبريون [1] .

ولم يكن ما يعرف بالملوك فى تاريخ فلسطين غير رؤساء عشائر أو شيوخ قبائل لا يمتد سلطانهم الى أكثر من المدن التى يحكمونها أو الأراضى التى يملكونها ولو لم تتناولهم أسفار العهد القديم لعبر التاريخ بهم دون أن يشير اليهم . وكانوا دائما فى صراع مع بعضهم البعض وقليلا ما يتفقون أو يتحالفون الا لصـد غاز أو مغير ، والدليل على تفاهة تلك العشائر أو القبائل أن النقوش والمدونات المصرية لا تذكرهم ولا تشير اليهم بشىء كما أشارت الى الحيثيين والفلسطينيين مثلا كما لا تشير الى اسرائيل أو تذكرها الا فى عهد سليمان ولا نجد لهذه القبائل كما لا نجد لاسرائيل ذكرا فى المدونات البابلية والأشورية الا حين اجتاح الملك نبوخذ نصر البابلى مملكة يهودا ودمرها ونقل اليهود سبابا الى بابل ، وحين اجتاح شلمناصر الأشورى السامرة وشتتت سكانها الى حيث أغفلهم التاريخ فلم يسمع لهم ذكر بعدها .

ومن تلك العشائر والقبائل التى ذكر العهد القديم : الأدوميون فى جبل سعير الى الجنوب من البحر الميت ، وبنو مؤاب وبنو عمون

---

(1) Learsi, Rufus : P. 39

وبنوجلعاد وبنوباشان عبر الأردن شرقا ، ثم الكنعانيون والأموريون والجوشيون والفرزيون واليبوسيون والعمونيون الى الغرب من الأردن • وقد ذكر العهد القديم الحيثين بين هؤلاء ، ولم يكن الحيثيون من الجنس السامى بل أنهم أحد الفروع الهندوأوربية وكانت لهم مواقع واشتباكات مع المصريين أشارت اليها النقوش والمدونات المصرية بالتفصيل كما عقد أحد ملوكهم معاهدة مع رمسيس الثانى فرعون مصر بعد أن خاض معه عدة معارك كانت أعلاها ذكرا معركة قادش فى تخوم لبنان ، كما ذكر الفلسطينيين أيضا وهم سكان الساحل الجنوبى لفلسطين وليسوا بدورهم من الفروع السامية بل كانوا من شعوب البحر الأبيض المتوسط ، تلك الشعوب التى ترجع بأصولها الى الأناضوليين القدماء الذين سكنوا الأناضول قبل الحيثيين [1] ولم يرد ذكر الفلسطينيين فى الأسفار الأولى للعهد القديم ولم تشر اليهم النبوءات التى تناولت الكنعانيين كما تناولت الحيثيين وان جرت بينهم وبين الاسرائيليين وقائع تناولتها الأسفار الأخيرة من العهد القديم •

ولم يشر العهد القديم الى معارك جرت بين الحيثيين والاسرائيليين وان ذكر العهد القديم ان الاسرائيليين سيغلبون الحيثيين كما يغلبون الكنعانيين وغيرهم من الأقوام الآخرين ، ولكن مما لاشك فيه أن الاسرائيليين كانوا دون الحيثيين قوة

---

(١) انتصار الحضارة ص ٢٤٥

وصولة ، فما كان يستطيع أن يقف أمام الحيثيين غير المصريين ، ولكن لعله حلم من أحلام بنى اسرائيل امتد بهم الى أمل التغلب على الحيثيين ووراثة جاههم وصولتهم فى الهلال الخصيب • فلما تولى يوشع قيادة اسرائيل بعد موسى كان عليه أن يحقق نبوءة العهد فيقتحم أرض كنعان ويقضى على تلك الأقوام التى تملكها لتكون ملكا لبنى اسرائيل وحدهم ، فعبر الأردن واقتحم أريحا وعاى ودمرهما ثم التقى مع حلف من ملوك أورشليم وحبرون وبرموت ولخيش وعجلون فأوقع بهم الهزيمة ، ووقعوا فى يده أسرى فقتلهم وصلبهم نهارا بأكمله (١) • ثم خاض حروبا أخرى مع عدد من الملوك الآخرين وأوقع بهم هزائم أخرى واستولى على أراضيهم•

ولم يستطع يوشع بن نون فى حياته أن يستولى على كل أراضى فلسطين وبقيت بيت المقدس التى يملكها اليبوسيون عصية عليه كما استعصت على بنى اسرائيل أيضا أراضى الفلسطينيين ، ولم يستطيعوا القضاء على القبائل التى أنبأتهم التوراة بالقضاء عليها •

وبعد يوشع بن نون لم يقم فى بنى اسرائيل لثلاثة قرون ونصف قرن قائد يجمع كلمتهم ويوحد صفوفهم فتفرقوا أسباطا حتى أوشكت الفرقة أن تهددهم بالزوال والضياع ، وانقلب الرعاة زراعا مستقرين وغلبت عليهم حضارة البيئات الزراعية فجفتهم خشونة الصحراء الى طراوة المدن ولين الاستقرار وهجروا عقائدهم

(١) يشوع ١٠ : ٢٦

الى عقائد الكنعانيين فعبدوا البعل اله الكنعانيين بدل عبـادة الله التي بعث بها ابراهيم وموسى، وغلبت تقاليدالكنعانيين والأمورين والحيثيين والأقوام الأخرى المجاورة علىتقاليدهم ، واتصلوابتلك الأقوام بالزواج والمصاهرة حتى أوشكت تلك الأقوام أنتتمثلهم، وكان موسى حريصا على ألا يأذن لقومه بالتشـبه بتلك الأقوام حتى لا تغلب وثنيتهم عبادة بنى اسرائيل ووحـدانيتهموأنذرهم بسوء المنقاب ان نسوا ذلك .

ويبدو أن تلك البلاد لم تتأثر كثيرا بدخول بنى اسرائيل ، فلم يعد نزوح بنى اسرايل الى أرض كنعان أن يكون هجرة أقوام جفتهم الصحراء الى الأرض المرعة الخصبة ، ولم تكن فلسطين وحدها بل كانت منطقة الهلال الخصيب جميعا منطقـة صراع حاد بين سكان الصحارى وسكان السهول فكثيرا ما اجتـاح سـكان الصحارى ، حين تضغط عليهم الصحراء بجفافها وقحطها ، سكان السهول فقصوا على حضارتهم ، وغالبا ماقضوا عليهم أوحملوهم على النزوح الى مناطق أخرى ، الا أن نزوح بنى اسرائيـل الى أرض كنعان لم يترك مثل هذا الأثر فقـد اسـتقر الاسرائيليون وامتلكوا كثيرا من الأراضى التى غلبوا عليها وأقاموا الى جوار الأقوام الأصليين وطبعتهم حياة الاقليم بطابعهـا فحالفوا قوما وحاربوا آخرين كما كانت الحياة بين تلك الأقوام نفسهاقبل نزوح الاسرائيليين وبعد نزوحهم . ولم يكن غريبا اذن أن تطبع الحياة

الجديدة هؤلاء النازحين الجدد بطابعها الغلاب ، أو أن يتمثلهم هؤلاء الأقوام فى داخلهم فانهم يمتون جميعا ، اذا استثنينا الفلسطينيين ، الى أرومة واحدة هى التى تعرف بالسامية .

ولم يرد فى نبوءات التوراة أو فى وصايا موسى الى قومه ما يشير الى الرغبة فى اقامة ملك أو دولة لاسرائيل بل أن قسمة الأرض بين أسباط اسرائيل تجب فى حد ذاتها نزعة الملكية أو الدولة ، وكل ما حرصت عليه شريعة موسى ألا تضيع بينهم تلك الرابطة العنصرية التى تجمعهم فى نطاقها حتى لا تطغى عليهم وثنية الأقوام الآخرين اذا ما تفرقوا شيعا فان ذلك قمين بأن يذيبهم فى الشعوب التى يتصلون بها اتصال زواج أو مصاهرة ، أو يختلطون بها نزولا على العادات الاجتماعية للقربى والجوار .

ولم يكن عمل القضاة ـ فى ذلك العهد الذى عرف بعهد القضاة فى تاريخ بنى اسرائيل الا احياء جذوة العنصرية الاسرائيلية والابقاء على وحدة الشعب الاسرائيلى وتقاليده ، بتذكيرهم بالشريعة والوصايا وعهد الرب ونذره ووعيده ان ضلوا ، وأحيانا كانوا يقودونهم فى غزواتهم أو يدفعون بهم أعداءهم .

ورأى بنو اسرائيل أن يكون عليهم ملك كما على الأقوام الآخرين ، وتقدم شيوخهم الى صموئيل آخر قضاتهم ليختار لهم ملكا يقودهم ويدفع عنهم أعداءهم ويدينون له بالولاء على غير هوى منه فقد حذرهم صموئيل من استبداد الملوك وأنذرهم بألا

يسمع اليهم الرب اذا ما استصرخوه من استبدادهم [1] • واختار لهم صموئيل شاءول ملكا « شاب وحسن ولم يكن رجل فى بنى اسرائيل أحسن منه من كتفه فمافوق كان أطول من كل الشعب [2] »

واتصلت الحروب بين الاسرائيليين بقيادة شاءول وبين غيرهم من القبائل الأخرى وخاصة الفلسطينيين هزيمة ونصرا ، وفى تلك الحروب برز داود الذى خلف شاءول ملكا على بنى اسرائيل بقتله جالوت جبار الفلسطينيين ولما يزل صبيا يرعى غنم أهله الذين ذهبوا الى الحرب تحت امرة شاءول ، أصابه بحجر مقلاع فى جبهته أوقعته أرضا ، ثم اختطف داود سيف جالوت واحتز به رأسه فولى الفلسطينيون منهزمين بعد مقتل جبارهم وارتفعت مكانة داود بين الاسرائيليين مما أوغر عليه قلب شاءول فهرب من وجهه حتى قتل شاءول فى معركة بينه وبين الفلسطينيين وأخذت دروعه الى معبد فينوس الفلسطينية ودق جسمه بالمسامير على أسورا بيت شان [3] ووقعت الحرب بين بيت داود وبيت شاءول حتى تم النصر لداود فأصبح ملكا على بنى اسرائيل •

وفى عهد داود بلغ ملك بنى اسرائيل ـ كما جاء فى سفر صموئيل ـ مدى بعيدا وأحرز انتصارات عديدة ضد أعدائه وبنى

---

(١) صموئيل الأول ٨ : ١٠ ـ ٢٠

(٢) صموئيل الأول ٩ : ٢

(٣) H.G. Wells : C. XXI, P. 84

قصرا لنفسه على جبل صهيون فى أورشليم ولكنه لم يكلف من لدن الرب ببناء الهيكل ، فقد خص الرب بذلك ابنه سليمان • ولم تمض أيام داود هينة فى بنى اسرائيل فقد اغتصب أكبر بنيه «أمنون» أخته لأبيه «ثامار» وغضب شقيقها «أبشالوم» لذلك فقتل أخيه انتقاما لعرض شقيقته وفر هاربا ، ثم أذن له أبوه بالعودة وعفا عنه ، ولم يصبر أبشالوم ليرث ملك أبيه بعد موته وتعجل الملك فخرج على أبيه ثائرا وخاض بأتباعه معركة خاسرة قتل فيها ضد أتباع أبيه ، ولم يلبث داود أن واجه ثورة أخرى قادها رجل من سبط بنيامين وقضى عليها ، وكان قد أسن وأشرف على نهاية العمر •

وخاض داود معارك عديدة ضد الأدوميين والعمونيين والمؤابيين وأوقع بهم واستولى على أراضيهم بالرغم من وصايا موسى لقومه بمسالمتهم وتحريم أراضيهم على بنى اسرائيل مما يدل على أن اتجاههم لم يعد اتجاها دينيا لتحقيق وصية أو عهد وانما أصبح اتجاها دنيويا يقوم على التملك والسيطرة •

وبالرغم من تلك الحروب التى خاضها داود ضد جيرانه من الفلسطينيين والكنعانيين والأدوميين والمؤابين والأموريين ، الا أنها لم تحسم الموقف بينه وبينهم وان أثمرت انتصارات داود عليهم أنها جعلت من بنى اسرائيل قوة لا يستهان بها وسط جيرانها •

واستخلف داود ابنه سليمان من بتشبع أحب نسائه اليه ملكا بعده بأمر الرب ، وأوتى سليمان حكما وحكمة وكانت أيامه أيام

سلام ورخاء وتجاوبت الآفاق أخبار حكمته فجاءته ملكة سبأ تخطب وده وتنهل من ينابيع حكمته • ويبدو من أخبار سليمان أنه لم يكن رجل دين بقدر ما كان رجل حكم وسياسة وان لم تكن له نزعة أبيه الحربية فعاش فى سلام مع جيرانه فعاهدهم وعاهدوه وقوى هذا الرباط السياسى بالمصاهرة فتزوج من ابنة فرعون مصر كما تزوج بغيرها من كل بيت عقد معه ميثاق ود وصداقة ، وكان محبا للنساء فكانت « له سبعمائة من النساء السيدات وثلثمائة من السرارى »[1] مع ابنة فرعون ما بين « مؤابيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحيثيات من الأمم الذين قال عنهم الرب لبنى اسرائيل تدخلون اليهم وهم لا يدخلون اليكم لأنهم يميلون قلوبكم وراء الهتهم[2] »

ونمت تجارة سليمان فى البر والبحر فسارت القوافل آمنة ما بين مصر وبابل ومخرت سفائنه البحر فى كل صوب ، ومن ميناء عصيون جابر على خليج العقبة أبحرت الى أوفير وعادت محملة بالذهب والعطور •

وبنى هيكل أورشليم بيتا للرب « طوله ستون ذراعا وعرضه عشرون وسمكه ثلاثون ذراعا والرواق قدام هيكل البيت طوله عشرون ذراعا حسب عرض البيت وعرضه عشرة أذرع قدام البيت[3] »

---

(١) الملوك الأول ١١ : ٣
(٢) الملوك الأول ١١ : ١ ـ ٢
(٣) الملوك الأول ٦ : ٢ ـ ٣

ولكن سليمان أبهظ كاهل شعبه بالضرائب والسخرة • وبدت العداوة سافرة بين أسباط الشمال وأسباط الجنوب تلك العداوة التي أدت في النهاية الى انقسام مملكة سليمان الى مملكتين • ولم تنته حياة سليمان حتى كانت النذر قد آذنت بزوال اسرائيل وأفول فترة الرخاء والاستقرار الوحيدة فى حياتها •

ولم تتحقق نبوءة أرض الميعاد فلم يعد ملك داود وسليمان فى أقصى اتساعه منطقة التلال الداخليــة فى فلسطين ، ولم يزد عليها شيئا ، ولم يتأت لبنى اسرائيل بعد ذلك أن تكون لهم مملكة بمثل هذا الاتساع اذا جاز لنا نسمى ذلك اتساعا ، وانقسمت المملكة بعد وفاة سليمان الى مملكتين : مملكة اسرائيل فى الشمال ومملكة يهودا فى الجنوب •

وكانت مملكة اسرائيل أعز نفرا من من مملكة يهودا وأكثر ثراء فقد جاوزت مساحتها ثلاثة أضعاف مساحة يهودا ، وانضم اليهــا عشرة أسباط من بنى اسرائيل فسميت مملكة الأسباط العشر بينما بقى فى مملكة يهودا سبطان هما سبط يهوذا وسبط بنيامين • وكانت أرض الشمال أشد خصوبة من أرض الجنوب ، ومدنها أكثر بهاء واتساعا من مدن الجنوب ، وكانت على طريق الرواحل والتجارة وهى ميزة لم تكن لمملكة يهودا ، اذ اكان ثمة سلام بين مصر ودول ما بين النهرين ، فاذا لم يكن سلام فان مصيرها معلق بمصير الحرب بين القوتين المتنافستين فى الهلال الخصيب ولأيهما تنحاز • ولعل ذلك

مما عجل بزوالها قبل أن تزول مملكة يهودا بحوالى قرن ونصف قرن .

ولم تشهد المملكتان فى حياتهما نوعا من الهدوء أو الاستقرار سواء فى الداخل أو من ناحية أعدائهما فى الخارج فالثورات الداخلية تنوشهما والعدو يطرق أبوابهما والوباء والمجاعات تنتابهما ، حتى الوحدانية وعبادة رب البر قد شابتها وثنيةالشعوب المجاورة ، ولم تعد شريعة موسى تلهم بنى اسرائيل وتلهب خيالهم كما كانت من قبل ، وغدا شعور الاضطهاد والخوف هو الذى يسيطر على أعمالهم ويسير حياتهم وغذت النكبات التى حلت بهم طوال تاريخهم هذا الشعور بالخوف والاضطهاد فدفعهم الى نوع من الشذوذ الاجتماعى أصبح أحد خصائصهم البارزة فيما بعد هو شذوذ الاستكانة والعزلة انعكس على طباعهم فأنجب القسوة التى طبعت سلوكهم حيال غيرهم ممن ليسوا من بنى اسرائيل ، ونما أواصر الألفة فيما بينهم فغذت روح العنصرية اليهودية وأورت ضرام التعصب القومى والدينى بين صفوفهم وشدتهم بعضهم الى بعض برباط من التآلف على طول ما باعدت بينهم الفرقة والتشتت فى أرجاء الأرض ، وأصبحت التوراة التى ضلوا سبيلها وحادوا عن شريعتها على حياة أنبيائهم وكهانهم هى الملهم الفذ لعنصريتهم ، ووحدتهم طوال خمسة وعشرين قرنا من المحن والمغامرة والاضطهاد والتشتت . وأصبحت اليهودية فى ايمانهم دينا ودولة

فكانت الصهيونية العالمية نتاج هذه العوامل التى تفاعلت جميعا فى بوتقة العنصرية الضيقة والتعصب المقيت .

وقد أضفى اليهود على تاريخهم ألوانا من المجد والأهمية ، على حين أن التاريخ يعبر بهم عبورا هينا ضئيلا ، ولولا التوراة ماذكر التاريخ عنهم شيئا ، فلم تكشف الحفريات لهم عن أثرخلفوه ولم تشرالمدونات التاريخية الى هذا التاريخ الذى أسهبت التوراة فى ذكر تفاصيله ، فليس فيما دونتـــه مصر عن الحقبة التى عاشـــها الاسرائيليون بينهم ذكر لهم ولا لقصة الخروج أو أرض كنعـــان مع ما كان لمصر فى فلسطين من دور بالغ الأهمية أفاضت فى ذكره المدونات والنقـــوش المصرية القـــديمة . وعلى طـــول ما عاش الاسرائيليون فى فلسطين وكثرة ما خاضوا من حروب ضد جيرانهم فى أرض كنعان لا نجد ذكرا لهم ولا لحروبهم فى المدونات المعاصرة مما يدل على أن الاسرائيليين لم يكونوا غير شعب قبلى مغمـــور ولم تكن حروبهم غير حروب قبلية ضئيلة ولا تذكر التوراة أنهم استطاعوا أن يملكوا فلسطين يوما ما ، فانهم لم يستولوا الا على منطقة التلال الداخلية منها ، واستعصت عليهم مدن الفلسطينيين وأراضيهم على كثرة ماقاموا به من هجمات عليها ، بل أن سليمان فى أوج مجده لم يكن غير ملك صغير يحكم مدينة صغيرة [1] وان

(1) H.G. Wells : C. XXI, P. 85

ما أضفته عليه القصص والأساطير من مجد وجاه وثروة ليس الا تقديرا نسبيا يقاس بمن حوله من الملوك القبليين فى فلسطين ، فهيكل سليمان الذى شادت بذكره أساطير الاسرائيليين لايعدو اذا قيس بأبعاده التى جاءت فى سفر الملوك ، كونه معبدا صغيرا يمكن أن تحويه ــ كما يقول ويلز ــ كنيسة من كنائس الضواحى . واذا قسنا هيكل سليمان بمعابد المصريين والبابليين لغدا بناءا ضئيلا الى جوارها ، ولكن الاسرائيليات قاست هيكل سليمان بهياكل القبائل الكنعانية والفلسطينية فبدا حيالها بكل هذا الرواء والجلال ، كما قاست تاريخ اسرائيل بتاريخ تلك الأقوام المجاورة فغدا اليها بارزا ملحوظا .

وكانت نهاية مملكتى اسرائيل الشمالية والجنوبية كنهاية الممالك التى قامت الى جوارها ونافستها طويلا فى فلسطين ، فقد انتهت مملكة الشمال أو مملكة اسرائيل كما عرفت أو مملكة السامرة كما كانت تعرف أحيانا نسبة الى حاضرتها ، نهاية أليمة على يد « سرجون الثانى » ملك أشور عام ٧٢١ ق.م فقد استولى عليها وشتت أسباطها العشر كل مشتت وأسكن السامرة غيرهم ، ولم تعد السامرة غير قصة عابرة فى التاريخ ولم يسمع التاريخ عن أسباطها شيئا بعد ذلك فعرفوا بالأسباط العشرة الضائعة .

أما مملكة الجنوب أو يهودا فقد عاشت قرابة قرن ونصف قرن بعد سقوط مملكة اسرائيل ، ويذكر التاريخ أن الفرعون نخاو

الثانى اجتاحها حين وقفت فى طريقه لغزو أشور ، وقتل ملكها يوشيا عند مجدو فى وادى جزريل وأصبحت يهودا تابعة لمصر حتى اغتصبها نبوخذ نصر ملك بابل الجديد فأقام عليها ملوكا ضعافا يأتمرون بأمره ، ولكن أورشليم غدت مركز التآمر ضده مما دفعه الى اجتياحها عام ٦٠٤ ق٠م ومزقها شر ممزق وأمر فنهبت أورشليم وأحرقت وحمل من بقى من القتل سبايا الى بابل ، وهناك أقاموا حتى استولى كورش ملك الفرس على بابل عام ٥٣٨ ق٠م ففك اسارهم وأرجعهم الى أورشليم ليسكنوها من جديد وليعيدوا بناء الهيكل والمدينة ٠

وطوال مايقرب من ستة قرون منذ العودة حتى التشتيت لم لم يشهد هؤلاء العائدون نوعا من الاستقرار فى تلك الرقعة الضئيلة التى آلت اليهم من أرض فلسطين حول أورشليم ، ولم تقم لهم دولة بالمعنى الحقيقى للدولة ولم يحظوا الا بنوع من الحكم الذاتى وكانوا على الدوام تبعا للدولة الغالبة ٠

وعاش اليهود فى أوشليم على ولاء مع الفرس وكان الفرس لهم عونا فى بناء الهيكل ولكنهم لم يسمحوا لهم بتحصين المدينة وبناء أسوارها حتى أذن الملك « ارتحشتا » لساقية اليهودى النبى نحميا وكان يقيم معه فى عاصمته «شوشن القصر» ببناء أسوار أورشليم ٠ ويقال أن حظوة اليهود لدى ملوك فارس كانت لأسباب سياسية هى الثقة فى ولاء قوم يحرسون الطريق الرئيسى للزحف بين مصر وفارس ٠

وما لبثت دولة الفرس أن خرت راكعة أمام جيوش الاسكندر الأكبر وخرج كهان أورشليم فى أروع ملابسهم يستقبلون القائد الشاب الذى وقف يطرق أبوابها عام ٣٣٤ ق٠م ويسلمون اليه مفاتيحها ويعلنون خضوعهم له وكعادة الاسكندر أبدى لهم اعجابه بالهم وتقبل منهم أورشليم ٠

وتقسم قواد الاسكندر امبراطوريته الواسعة بعد وفاته فكانت مصر وجنوب فلسطين التى تضم بلاداليهود من نصيب بطلميوس، وظلت بلاد اليهود تتبع دولة البطالسة وتؤدى لها الجزية أكثر من مائة سنة (٣١٨ ـ ١٩٨ ق٠م) تمتع اليهودخلالها بنوع من الحكم الذاتى تحت سلطان أورشليم الاكبر والمجمع المقدس المعروف بالسنهدرين ٠

وخلال تلك السنوات والسنوات التى تبعتها كانت فلسطين معترك الرحى بين الدولتين المتنافستين اللتين سادتا فى الشرق الأدنى بعد وفاة الاسكندر : البطالسة فى الجنوب والسلوقيون فى الشمال٠وقد حسم بطليموس الأول هذا النزاع فى البداية بانتصاره على السلوقيين ، وتمتع البطالسة بثمرة هذا الانتصار طويلا حتى انتصر «انطيوخس الثالث» على «بطليموس الخامس» وانتزع منه فلسطين وضمها الى الامبراطورية السلوقية عام ١٩٨ ق٠م

وكان اليهود قد ملوا حكم المصريين فأعانوا انطيوخس على بطليموس ورحبوا بحكم السلوقيين ، الا أن السلوقيين لم يروافى

بلاد اليهود غير مصدر للايراد ففرضوا عليهم ضريبة للدولة ثلث ما تغله الأرض من زراعة ونصف ماتثمره أشجار الفاكهة كما فرضوا عليهم أيضا اعتناق الثقافة الهيلينية .

وجزع اليهود من هذا الخطر خطر اعتناق الثقافة الهيلينية وما فيها من طقوس وثنية ونظم اجتماعية لاتتفق وتقاليدهم المستمدة من التوراة ، وثاروا بحكامهم السلوقيين فاجتاح انطيوخس الرابع أورشليم وأعمل القتل فيهم ودنس الهيكل وصادر آنيته وكنوزه والمذبح الذهبى وضمها جميعا الى خزائنه الملكية وحمل الكهان قسرا على الثقافة الهيلينية ، وأصبح الهيكل معبدا مقدسا لزيوس ، وغدا مذبح الرب مذبحا لآلهة الاغريق تقدم له القرابين من الخنازير التى يحرمها اليهود وأمر بتعميم الطقوس اليونانية ، وتحريم المراسم اليهودية ، وبالاعدام لكل من يخالف ذلك . ولم يكتف بذلك بل أشعل النار فى أورشليم وبيع سكانها فى أسواق الرقيق ، وشيد حصنا جديدا على جبل صهيون ووضع فيه حامية من الجند لتحكم المدينة باسمه .

وثار جماعة من اليهود بقيادة كاهن من نسل هارون يسمى « متاثياس » اعتصم هو وبنوه الخمسة فى جبل أفرابم وجعل يشن حرب العصابات على الحاميات السلوقية وأحرز وأبناؤه من بعده عدة انتصارات على السلوقيين أدت فى النهاية الى سقوط أورشليم فى يد الثوار عام ١٦٤ ق.م وعودة المراسم والطقوس اليهودية

اليها • وعرفت هذه الثورة بثورة المكابيين نسبة الى مكابى وهو لقب بوداس بن متاثياس الذى قاد الثورة بعد أبيه •

وقد استطاع آخر هؤلاء الأخوة من أبناء متاثياس وهو سيمون مكابى أن يحالف روما ونال من الامبراطور « ديمتريوس الثانى » عام ١٤٣ ق•م اعترافا باستقلال بلاد اليهود واختير سيمون حاخاما أكبر وقائدا عسكريا لليهود وبدأ بذلك حكم «الأسرة الهاسمونية» التى ينتسب اليها متاثياس وأولاده ، وصكت عملة يهودية تعلن ميلاد الدولة الجديدة •

ولأول مرة بعد العودة من السبى البابلى يتمتع اليهود بنوع من الاستقلال تحت رعاية روما وكانت روما حينذاك تشتبك فى صراع مرير مع البارثيين والسلوقيين والمصريين فاهتبل سيمون هذه الفرصة ، شأن اليهود فى كل زمان ، واتخذ جانب روما الناشئة القوية ، كما اتخذ اليهود فى الوقت الحاضر جانب بريطانيا فى الحرب العالمية الأولى ثم جانب الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن غدت لها الزعامة والقيادة فى العالم الغربى وتحت رعايتهما أعلنت دولة اسرائيل عام ١٩٤٨ ، كما قامت دولة الهسمونيين تحت رعاية روما عام ١٤٢ ق•م •

وظل الهمسونيون طوال جيلين يوسعون حدود مملكتهم الصغيرة تارة بالحرب وتارة بالوسائل السياسية فاستولوا على السامرة واتسعت بلادهم حتى قاربت سعة مملكة سليمان غير

أنهم أخذوا يفقدون غيرتهم الدينية واستسلموا شيئا فشيئا للثقافة الهيلينية التى حاربها أجدادهم مما أثار عليهم طائفة الفريسيين المتعصبة .

وجاءت نهاية الهسمونيين على يد الرومان كما كانت بدايتهم — ولعل ذلك يؤيد ما قلناه فى بداية هذا البحث وهو أن نهاية اسرائيل ستكون على يد الأمريكيين قبل أن تكون على يد العرب حين يستيقظ الامريكيون على استغلال الصهيونية لهم ويعرفون أن بلادهم ليست الا مستعمرة صهيونية فى حمى الدستور الامريكى (١) — فقد اجتاح بومبى مماكتهم وحاصر أورشليم وهدم أسوارها ودخلها ظافرا فوضع السيف فى رقاب اليهود وأصبحت أورشليم جزءا من ولاية سوريا الرومانية ، فلما ثاروا على الوالى الرومانى أخمد ثورتهم وباع ثلاثين ألفا منهم فى أسواق الرقيق ، وكان ذلك عام ٤٣ ق.م. ونصبت روما هيرود الأدومى ملكا على أورشليم ، ولم يكن هيرود من أصل يهودى

---

(١) نشرت الصحف ونحن نكتب هذا الكلام (٢٨ يونيه ١٩٥٩) تقريرا تقدم به عدد من الدبلوماسيين الأمريكيين المتقاعدين والذين كانوا يعملون فى العالم العربى ، الى لجنة الشئون الخارجية بالكونجرس الأمريكى يقولون فيه ان أعظم خطأ ارتكبته أمريكا فى سياستها الخارجية تجاه الشرق الأوسط هو تأييدها لاسرائيل ضد العرب ، وطالبوا بأن تنظر أمريكا الى مشاكل الشرق الاوسط بالعين الأمريكية وعلى ضوء مصلحة أمريكا الوطنية وان تقاوم ضغط الاقلية الأمريكية التى تسيرها وجهة خاصة .

ولم يؤمن بالدين اليهودى عن عقيدة فقضى على سلطان الكهنة وحكم حكما دنيويا خالصا تسوده النظم والمظاهر الهيلينية والرومانية .

ولعله أراد أن يجمع الى أبهة المظاهر الرومانية مجد سليمان فادعى أن الهيكل الذى شاده اليهود بعد عودتهم من السبى البابلى منذ خمسة قرون ضيق ، فهدمه رغم تطير اليهود وبنى مكانه هيكلا فخما يقال أنه كان من عجائب العالم فى عهد أوغسطوس وأقام على أبوابه عمدا كورنثية وعلق على مدخله النسر الذهبى شعار روما عدوة اليهود وسيدتهم . وهو الهيكل الذى هدمه تيتوس عام ٧٠ م .

ولا ريب أن حكم هيرود كان نهاية واقعية لحكم اليهود الخالص ، فقد ثار اليهود على ابنه « أركاوس » الذى حكم بلادهم بعد وفاة أبيه ، فأعمل فيهم القتل . وتألفت عصابات يهودية لتهديد كل من يشايع روما فزحف والى سوريا على فلسطين وهدم مدن اليهود وصلب ألفين من الثوار وباع ثلاثين ألفا فى سوق الرقيق ، وذهب وفد الى روما من زعماء اليهود يرجون الامبراطور أوغسطوس الغاء الملكية حتى يتخلصوا من حكم أركلوس فاستجاب اليهم وعزل أركلوس وأعلن البلاد ولاية رومانية وعين عليها حاكما مسئولا أمام والى سوريا .

وتواتر الحكام واحدا بعد الآخر وحال اليهود تزداد سوءا ،

وكان مايصيبهم من بلاء جزاءا لشذوذهم وخروجهم على الدولة ، فقد انتشرت عصابات المغتالين تغتال غدرا كل من لمست منه ولاءا لروما ، سواء من اليهود أو غير اليهود أنفسهم وانقسم يهود أورشليم على أنفسهم بين مشايع لروما وناقم عليها ووقعت فتنة بين الفريقين قتل فيها الناقمون اثنى عشر ألفا من المشايعين ، وعمت المذابح بين الطوائف اليهودية وغير اليهودية فقام الناقمون بتدمير عدد من المدن اليونانية فى فلسطين وسوريا وأحرقوا بعضها وقتلوا أهلها وفى نفس الوقت أوقع السكان فى كثير من المدن الفلسطينية القتل والذبح باليهود .

وما وافى عام ٦٦ حتى كان الناقمون قد قضوا على كل مشايع لروما وانضمت البقية الباقية منهم الى الثوار حتى ضاقت روما بهم فسيرت عليهم فيالقها بقيادة تيتوس عام ٧٠ ، وأمام هذا الخطر الذى يؤذن بشر النكبات تجمع اليهود بعد فرقه فى وحدة حانقة متعصبة ويقال ان ما اجتمع منهم فى أورشليم بلغ ستمائة ألف ، وسرت روح القتال فى الشيوخ والنساء .

ويبالغ المؤرخون اليهود فى مقاومة اليهود ويذكرون من أعداد القتلى والمصاوبين والذين بيعوا فى أسواق الرقيق ما تنوء به الحقيقة التاريخية المجردة ، ولعل فى الخلاف بين يوسيفوس وتاسيتوس فى تعداد الخسائر البشرية ما يؤكد عدم دقتها والمبالغة فيها فيوسيفوس يقدرها بمليون ومائة وسبعة وتسعين ألفا بينما يقدرها تاسيتوس بستمائة ألف .

واقتحمت القوات الرومانية أورشليم وغدا الهيكل طعما للنيران وقتل كل يهودى عثر به الرومان حيا ، ولكن المقاومة اليهودية استمرت فى أماكن متفرقة حتى عام ٧٣ الا أن خراب أورشليم ودمار الهيكل كانا فى الواقع نهاية الشعب اليهودى فى أرض الميعاد فلم يعد منهم من يقيم فيها غير قلة تعيش على الكفاف يؤدى كل من أفرادها رغم فقره للمعابد الوثنية فى روما نصف الشاقل الذى كان يؤديه اليهودى البار لهيكل أورشليم .

وبدأ اليهودى التائه منذ ذلك الحين تجواله الأبدى .

ولا نجد فى كل ما مر من هذا التاريخ مصداقا لنبوءات الكتاب المقدس فلم يقض بنو اسرائيل على الكنعانيين ولا على غيرهم من الشعوب والقبائل الاخرى التى كانت تتوطن أرض الميعاد ، ولم تصل حدود دولتهم فى أقصى اتساعها الى الحدود التى تنبأ بها العهد القديم لهم ، ولم تكن لهم فلسطين جميعا فى أى يوم من الأيام ، ولم تردد الأسفار التى تلت سفر التكوين ما جاء فى هذا السفر الأول عن امتداد أرض الميعاد من « نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات » ومعنى ذلك أن تمتد أرض الميعاد الى ما وراء حدود الهلال الخصيب ، وقد رأينا أن الاسرائيليين لم يكن لهم فى تاريخ الهلال الخصيب غير دور ضئيل وان سيادة الهلال الخصيب على الدوام كانت للساميين الا فى الفترة التى شهدت غلبة الشعوب الهندوأوربية أو الآرية قبل امتداد الموجة السامية مرة أخرى على يد العرب .

ولا نستطيع أن نجد مصداقا للوعد المقدس فى تاريخ ذرية

ابراهيم الا فى انتصار الاسماعيليين الذين اندمجت فيهم قبائل العرب وكان منهم محمد خاتم الأنبياء من سلالة ابراهيم ، فقد حقق انتصار الاسماعيليين كل نبوءات عهد الرب مع ابراهيم ففى مدى لا يزيد على بضعة عشر عاما بعد توحيد الجزيرة العربية تحت لواء الاسلام ، أصبحت سيادة الهلال الخصيب وما وراء الهلال الخصيب من بلاد النهرين وفارس ومصر وشمال افريقيا ، لأولئك العرب العدنانية من نسل اسمعيل بكر ابراهيم وصاحب عهد الختان الذى عقده الرب مع ابراهيم .

وليس لنا أن نقطع فى عهود الرب الا بما يؤيدها من أحداث التاريخ ، وقد رأينا كيف جرى التاريخ باسرائيل حين كانت فيهم بركة العهد والرسالة قبل ظهور المسيح عيسى ، فلم يفوا بعهد الرب فانتزعت منهم بركة العهد وبقيت فيهم الرسالة لعلهم يفيئوا الى الهدى فتشملهم بركة العهد من جديد ، وقد جاوزتهم بركة العهد يوم كفروا بالرسالة فعبدوا العجل فى برية سيناء ، ويوم عصوا موسى يوم أراد أن يدخل بهم أرض الميعاد ، وأيام رجعوا عن شريعة موسى ودنسوها بعبادة الأوثان فحلت بهم لعنة المعصية فى كل مرة من هذه المرات ، ونزلت بهم عقوبة الكفر فى كل تلك الأيام وكثيرا ماكانت معاصيهم وكان كفرهم بدين ابراهيم واسحق وموسى ، مما دونته أسفار العهد القديم .

ويمكن أن نقول بعد ما أسلفنا من تمحيص العهود المقدسة أنها

تنتهى بالنسبة لبنى اسرائيل ببعث المسيح الذى جاء مبشرا بملكوت السماء لكل البشر وليس لبنى اسرائيل وحدهم ، الا أن رسالة المسيح لم تكن غير حركة اصلاح قوية للشريعة الموسوية وللآثام التى تردى فيها بنو اسرائيل ونسبوها الى شريعة موسى • ولم تكن رسالة السماء لتكمل الا اذا انتظمت عبادة الله وعلائق البشر بعضهم ببعض على قواعد ثابتة ، فكانت رسالة محمد ختام رسالات السماء ، وجاءت بالقول الفصل فى صفة الله الواحد الأحد، وفى التشريع للحياة تشريعا يبقى على الزمن حيا بتقادم الزمن وتطور العقل البشرى وتقدمه ، وفى رسالة محمد شملت بركة العهد والرسالة كل مسلم سواء كان من ذرية ابراهيم أو من غير ذريته كما قلنا من قبل الا أن أرض الميعاد وهى الأرض المختارة للبركة والرسالة بقيت ارثا فى ذرية ابراهيم سكنها المؤابيون والعمونيون من سلالة لوط ابن أخيه ، وسكنها الأدوميون من سلالة عيسو بن اسحق بن ابراهيم ، وذلك قبل أن يملك يعقوب وذريته أرضا فى بلاد كنعان ، فلما ارتحل بنو اسرائيل الى مصر ثم خرجوا منها الى أرض كنعان بقيادة موسى ، كان أبناء عيسو قد استقروا وطابت لهم الحياة فى أرض الميعاد ، وكانت وصية موسى لقومه حين قسم الأرض بين أسباط اسرائيل ألا تكون لهم أرض المؤابيين والعمونيين والأدوميين وحرم عليهم حربهم أو العدوان عليهم • ثم أقام بنو اسرائيل فى أرض كنعان بضعة قرون بعد

خروجهم من مصر لم يستطيعوا أن يحققوا خلالها الوعد الالهى بامتلاك أرض الكنعانيين وكانت نهايتهم تلك التى ذكرنا من قبل لضلالهم ولما ارتكبوا من معاص. وبقى الوعد الالهى قائما لا يتحقق حتى كانت أرض الميعاد أول ما امتلك الاسماعيليون أو العرب العدنانية فى موجة الانتشار الاسلامى الباهر. وتحقق فيهم الوعد الالهى بوراثة أرض الميعاد لذرية ابراهيم، وفى رعايتهم أصبحت أرض الميعاد قدس الأديان السماوية الثلاثة. وغدت أورشليم أو بيت المقدس قبلة اليهود والنصارى والمسلمين حتى اليوم تضم المبكى وكنيسة القيامة والمسجد الأقصى.

وهكذا كان مصداق الوعد لما جاء من عهود الرب لابراهيم.

أما عودة اسرائيل الى أرض الميعاد فليس فى أسفار العهد القديم الأولى ولا فى أسفار العهد الجديد ولا فى القرآن ما يشير اليها فقد انتهت بسقوط يهودا على يد نبوخذ ناصر عهود الرب ووعوده التى وعد بها ابراهيم واسحق وموسى، وانما بقيت التوراة وبقى السبى البابلى وبقيت آمال الأنبياء ومراثيهم ونبوءاتهم تلهب خيال اليهود وحنينهم الدينى الى أورشليم وتزكى فيهم كراهية مقيتة تبدو فى سفر أرميا وفى الأسفار الأخيرة من العهد القديم وفى التلمود لكل من عرفت اسرائيل من أمم وشعوب تعتقد أنها تحول بينها وبين أمانيها فى أرض الميعاد، كراهية ظلت سارية فى الأعقاب طوال تاريخهم الى وقتنا هذا، وتتخيل قيام ملك من نسل داود ذى جاه

وصولجان يخلص اليهود من السبى ويعود بهم الى أرض ميعادهم ويقيم مملكة داود لتخضع لها كل ممالك الأرض .

وقد تسربت فكرة المسيح المخلص الى العقيدة اليهودية من العقيدة البابلية فقد كان البابليون يعتقدون بعودة « مردخ » اله بابل حينا بعد حين لنشر الخير وتطهير الأرض من الفساد ، وفى العقيدة المصرية القديمة كما يقول برستد ما يشبه ذلك فان سقوط الدولة القديمة قد جعل المصريين يتطلعون الى المنقذ الذى يعيد الى الدولة مجدها ، فقد روى عن الحكيم « أبيود » أن المنقذ يحيل النار بردا وسلاما ويرعى الناس جميعا ويلم شمل قطعانه . وفى العقيدة الزرادشتية أن زرادشت يبعث كل ألف عام فى صورة انسان خارق لا نظير له ليرعى العقيدة ويهدى الانسانية . ومن ثم كان اتصال اليهود بتلك العقائد جميعا مدعاة الى تسربها اليهم، وفى السبى البابلى قويت هذه العقيدة فى نفوسهم فتصوروا المنقذ أو المخلص ملكا ذا جاه وصولجان من نسل داود يمسح بالزيت المقدس وفق الشعائر اليهودية ليعيد مجد اسرائيل ويقيم مملكة داود وسمى ، بالمسيح نسبة الى هذا المسح بالزيت المقدس ، ودعى الكهان والأنبياء مسحاء الرب لذلك وفى سفر الأيام « لا تمسوا مسحائى ولا تؤذوا أنبيائى ، وجرت شعائر المسح على ملوك

اسرائيل فكان شاءول أول من مسح منهم بالزيت المقدس عند تتويجه •

وتطورت عقيدة المسيح المخلص بتطور التاريخ اليهودى فلم يعد ذلك الملك المنصور المتوج ذى الجاه والصولجان بل غدا رجلا مسكينا يبشر بالخير والهداية والصلاح ، يسبقه من يعلن مجيئه ويبشر ببعثه وكانوا ينتظرونه على رأس كل ألف عام من بدء التقويم العبرى •

ولا يؤمن اليهود برسالة المسيح بن مريم وما زالوا فى انتظار المسيح المخلص الا أن الصهيونية لا تثير تلك العقيدة ولا تشير اليها فى فلسفة القومية اليهودية التى تنادى بها ولعلها ترى فى الاشارة اليها ما يثير عليها الطوائف المسيحية فتتجنبها لذلك •

والحق الذى يدعيه اليهود فى أرض الميعاد لا يقوم على نبوءات العودة وانتظار المسيح المخلص فهى نبوءات طارئة تسربت الى العقيدة اليهودية كما قلنا من العقائد المجاورة ولم يتجاوز الأمل الذى عصف بالأنبياء خلال السبى البابلى وبعده ، وانما يقوم على الوعود الالهية لابراهيم واسحق ويعقوب ، وقد انتهت تلك الوعود بنهاية مملكة داود وسقوط أورشليم على يد نبوخذ نصر ، فاذا كان ثمة ايمان بالعودة فقد عاد بنو اسرائيل من مصر اليها على يد موسى ثم عادوا اليها بعد السبى البابلى على يد كورش وانتهت العودة الأولى بالسبى البابلى وانتهت العودة الثانية بتشتيت اليهود على يد الرومان وليس بعد ثمة نبوءة بعودة ثالثة لاسرائيل •

الفصل السابع

بين الدين والدولة

قلنا فى بداية هذا البحث أن الحركة الصهيونيــة قامت على استغلال خاطىء ضال لعهود الرب مع ابراهيم ، ولقد كانت هناك عهود حقا ولكن التزمت لتنفيذها شرط عبادة الله وطاعته والحرص على أوامره والامتناع عن نواهيه ، ولم يف بنو اسرائيل بما ألزمهم الله فحق عليهم وعيده وانتهى أمر عشرة من أسباطهم الى الزوال نهائيا من صفحة التاريخ ، وبقى سبطان كان مآلهم السبى فى بابل بعد سقوط مدينتهم وتخريب هيكلهم ، وكان من الممكن أن يطويهم النسيان فى غماره كما طوى أهل السامرة لولا السبى البابلى نفسه فهو وحده صاحب الفضل فى بقائهم ، فلو أن نبوخذ نصر شتتهم كل مشتت كما شتت سرجون الثانى سكان السامرة لما قدر لهم أن يجتمعوا فى ظروف وتحت عوامل نمت وحدتهم وألهبت شعورهم القومى ، بل وهــذبت طباعهم البــدوية وحضرتهم • فلم يكن الاسرائيليون قبل السبى البابلى شعبا متحضرا حتى ولا متحدا فان الثورات الداخلية كثيرا ما شابت تلك الوحدة التى حاول القضاة

والملوك والأنبياء أن يحملوهم عليها ، بل ان الشعور الديني والعنصري الذي ألهبته التوراة في ظل السبي البابلي ظل خابيا قبل ذلك ، ولم يبد أثر التوراة عليهم الا بعد أن حضرتهم الحياة البابلية، فلم يكن فيهم قبل ذلك غير قلة تستطيع القراءة والكتابة ولا يذكر تاريخهم نفسه أن الأسفار الأولى من التوراة كانت تقرأ ، ولم تذكر الكتب لأول مرة الا في عهد أوشيا ، ويبدو أن التوراة لم تضم حتى ذلك الوقت غير أسفار موسى الخمسة أو الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم وان كان لديهم على صورة ما كثير من الكتب الأخرى ألحقت بعد ذلك في أزمنة متفرقة بالأسفار الأولى وكونت التوراة العبرانية الراهنة ومنها مثلا ، أخبار الأيام والمزامير والأمثال .

فاذ كانت التوراة هي التي كونت الشعب الاسرائيلي فان السبي البابلي هو الذي حملهم على الالتفاف حول التوراة وهو الذي نقلهم من شعب بدوي قبلي جاهل الى شعب متحضر متحد يلهبه الشعور العنصري ، يستطيع أن يقرأ التوراة ويلتمس فيها مثله الدينية والعنصرية ، ولعل الاسرائيليين لم يدركوا من قبل هذه القوى الروحية الغامرة التي تنطوي عليها ديانة ابراهيم وتعاليم موسى ولا ذلك الايثار الالهي الذي كان لهم عند الرب والذي رددته التوراة كثيرا حتى خلق فيهم نوعا من التميز والاستعلاء العنصري كانا نكبة عليهم في كل تاريخهم .

الا أن الشعور العنصري الذي شمل اليهود أبان السبي البابلي

وكان ثمرة الغربة والتجمع حول التوراة ، كان من ناحية أخرى ثمرة التآلف الفكرى لليهود ، ذلك التآلف الفكرى الذى كان بدوره عملا من أعمال النبى قبل أن يكون عملا من أعمال الكاهن أو السياسى أو القضاة أو الملوك ، وكان النبى طرازا فريدا من الناس وجد من قبل فى اسرائيل كما نقرأ ذلك فى أسفار التوراة ، ولكن أثر النبى لم يكن ليبرز الا فى الملمات وعندما تتراكم المصائب على رأس بنى اسرائيل ، كان يظهر لينذر ويهدى ويشير وكان يتنبأ وتصدق نبوءته كما تقص التوراة ، ويبدو أن النبى كان رجلا يفوق جيله حصافة وبعد نظر وكان متجردا من أطماع الكاهن وطموح الملك فكان حكمه على الأمور صائبا ، وكان تأثير الأنبياء فى الناس أبان السبى البابلى يفوق ما كان لهم من تأثير قبل ذلك .

ولم يكن الأنبياء من طبقة واحدة بل كانوا رجالا متباينى الأصل والمنبت فالنبى حزقيال مثلا كان من الكهان وكان النبى عاموس من الرعاة يرتدى جلد الماعز الا أنهم كانوا يتفقون فى شىء واحد هو أنهم لا يدينون بالولاء لغير الرب وأنهم يتصلون بالناس مباشرة دون تكريس كالكهان أو اذن من ذوى السلطان ، ويقولون أن كلمة الرب قد جاءتهم ، وكانوا يتكلمون فى كل شىء ويخلطون بين الدين والسياسة ويحرضون الشعب على أعداء اسرائيل وينعون على الكهان تراخيهم ويندون بآثام الملوك ومعاصيهم وضلال الشعب ورذائله وينقدون سوءات المجتمع والتباين بين الأغنياء

والفقراء وتشبه الأغنياء بالأجانب مما يغضب رب ابراهيم الذى يسيطهم بعذابه جزاء ضلالهم وكفرهم ٠

وكانت هذه الأقوال تدون وتنسب الى أصحابها وغدت بعد السبى البابلى جزءا من التوراة الغبرانية فحفظها اليهود جيلا بعد جيل، وكان أعظم ماخلفت من أثر فيهم أنها باعدت بين الاسرائيلى وبين الكاهن والمعبد والبلاط والملك وجعلته وجها لوجه أمام رب البر ، وتلك هى أهمية الأنبياء العظمى فى تاريخ بنى اسرائيل أو فى تاريخ البشرية كما يقول « ويلز » ٠

ولم تخل أسفار الأنبياء من اثارة البغضاء والكراهية والتميز وعدم الانصاف الا لاسرائيل مما يذكرنا بذلك الشعور القومى الجارف الذى يلفح الأمم الناشئة بسعيره ويثير فيها ذلك التعصب العنصرى الذميم الذى غدا علما على اسرائيل ، ومن العسير أن نسميها قومية فيما غبر من تلك الأزمان التى لم تعرف معنى القومية فهى أقرب الى التجمع والتحزب والتآلف القبلى منها الى القومية السياسية التى عرفناها فى القرن التاسع عشر والتى اقتبست منها الصهيونية معالمها واتجاهاتها فى المطالبة بوطن قومى وانشاء دولة يهودية فى أرض الميعاد ٠

فالقومية اليهودية اذا جاز لنا أن نسميها كذلك ، أو التآلف اليهودى على وجه أدق ليس الا خليطا غير متجانس من انفعالات السبى ووحى التوراة ونبوءات الأنبياء تلك النبوءات التى وصلت

الى ذروة سامية من شطحات الخيال حين تنبأ أشعياء باتحاد العالم كله فى ظل اله واحد ، اله ابراهيم رب البر والخير وتحت سيادة صهيون ، فهى نزعة عنصرية دينية أكثر منها نزعةقومية استقلالية، الا أن هذا الخليط غير المتجانس من الانفعالات التى غذتها عوامل عديدة قد استطاعت بفعل الأنبياء أن تكون هذا التآلف الفكرى لليهود على اختلاف أزمانهم وطوائفهم ونزعاتهم وتشتتهم فى كل صقيع ، فالتميز والاستعلاء ونظرية الشعب المختار والتجمع حول التوراة وتابوت العهد والهيكل وأرض الميعـاد قد نمتها أقوال الأنبياء وغذاها السبى البابلى وقواها الانتقال من البـداوة الى التمدين والحضارة البابلية فالنبى دانيال مثلا كان أحد الذين أمر الملك نبوخذ نصر بتعليمهم اللغـة الكلدانية من بنى اسرائيل ، فأصبح النتاج الفذ لكل هذا ، تلك العنصرية الصهيونية العارمة.

فالصهيونية ليست وليدة اليوم أو بنت الأمس ولكنها تضرب فى أغوار الزمن الى أيام السبى البابلى ولعل فى كلمات هذا المزمور الذى دونه شاعر مجهول ما يبرز تلك الأمانى العنصرية الحادة التى ألهبت خيال اليهود منذ القدم .

« على أنهار بابل جلسنا ، بكينا أيضا عندما تذكرنا صهيون »

« على الصفصاف فى وسطها علقنا أعوادنا ، لأنه هناك »

« سألنا الذين سبونا كلام ترنيمة ، ومعذبونا سألونا فرحا »

« قائلين ، رنموا لنا من ترنيمات صهيون »

« كيف نرنم ترنيمة الرب فى أرض غريبة »

« ان نسيتك يا أورشليم تنسر يمينى ، ليلتصق لسانى بحنكى ان لم أذكرك »

« ان لم أفضل أورشليم على أعظم فرحى »

« أذكر يارب لبنى أدوم يوم أورشليم القائلين هدوا هدوا حتى الى أساسها »

« يابنت بابل المخربة طوبى لمن يجازيك جزاءك الذى جازيتنا »(1) .

وأصبحت العودة الى أورشليم رمز أمانيهم العنصرية ولا تقول القومية ، وشطح بهم الخيال فتصوروا العالم يدين لصهيون بالطاعة ولأورشليم بالولاء . وكان هذا طرازا عجيبا من التجمع العنصرى لسيادة العالم ، فالقومية لا تكون الا بوجود أمة ترتبط بوطن تعيش عليه بتلك العاطفة التى نسميها الوطنية والتى تلهب الشعور القومى وتغذيه ، ولم تكن قومية اسرائيل من هذا الطراز فانها لم تنم الا فى ظل الغربة والتشتت فلا يمكن أن يقال أنها ترتبط بوطن يعيشون فيه ، وأن هناك عاطفة تربطهم بهذا الوطن فالعاطفة الوحيدة التى تلهب شعورهم ليست هى العاطفة الوطنية ولكنها عاطفة الاستعلاء العنصرى والحنين الدينى . وأمل العودة الى أرض لم تكن

---

(1) مزامير ١٣٧

فى يوم من الأيا مملكا لهم حتى حين بلغ ملك داود وسليمان أوج اتساعه ، فهى عاطفة قامت على خيال جامح ضال يغذيه وعد الهى جاوزهم الى غيرهم ممن قاموا برسالة ابراهيم وحملوا دينه الى العالمين .

لذلك كانت القومية التى تدعيها الصهيونية طرازا شاذا من القوميات فهى لا تقوم على الحقيقة قدر ماتقوم على الخيال ولاتقوم على الواقع قدر ما تقوم على الأمانى والأحلام ، ولاتستند الى حق تاريخى قدر ما تستند الى نبوءة دينية .

وهى طراز شاذ من القوميات لأنها تتعلق بوهم خبا منذ آلاف السنين ، اختلطت فيه المشاعر الدينية بالمشاعر العنصرية ، المشاعر التى أوحتها التوراة وغذتها فكرة الشعب المختار .

ولكن اذا كانت التوراة هى التى صنعت اليهود فان اليهود هم الذين صنعوا التوراة قبل أن تصنعهم ، فالأسفار الأولى للتوراة التى ضمت التشريعات الموسوية لم تكن لتوحى لليهود بتلك المشاعر الدينية والعنصرية الحادة ولكنها أسفار الأنبياء هى التى أوحت بتلك المشاعر الدينية والعنصرية وقوتها على الزمن وخلقت هذا التآلف الفكرى الذى عرف عن اليهود كما لم يعرف عن أى شعب آخر فى العالم القديم أو الحديث بالرغم من تفرقهم وتشتتهم طوال الزمن ، وهذا التآلف الفكرى هو الذى يدين له اليهود

بالصمود والبقاء ، فاليهودى فى أى مكان أو زمان لا يتغير وهو نفسه فى كل زمان ومكان .

وهذا التآلف الفكرى ميراث قديم يقوم على معتقدات ثابتة ومثل لا تتغير من التوراة وأقوال الأنبياء وبمرور الزمن وتوالى المصائب على رأس اليهود لم تعد التوراة ولم تعد أقوال الأنبياء تلهب عنصرية اسرائيل أو تزكى هذا العداء الجارف الذى يجب أن يحمله الاسرائيلى فى قلبه لغيره من البشر ولا سيما للأمم المسيحية فابتدع حاخاماتهم وحكماؤهم ما عرف بالتلمود وهو مجموعة وصايا ومبادىء سياسية فى غلالة دينية تبسط لبنى اسرائيل مكانتهم فى هذا العالم وعلاقتهم بغيرهم من الأمم وسياستهم التى تجب عليهم حيال بعضهم البعض وحيال غيرهم من الأمم والشعوب حتى تتم لهم السيطرة على العالم وسيادته وتحقيق مكانة اسرائيل التى هى خليقة بها كما يقولون والتى اختارهم الرب لها وهم شعبه المختار الذى يبكى لأجلهم وينوح ندما على ما جلبه عليهم من مصائب . وبتقدم الزمن ابتدع الحاخامات ما سموه «بروتوكولات صهيون» وهى خطة سياسية مفصلة للسيادة على العالم بطريق المؤامرة والتسلط واثارة العداوات والاحن بين الدول والعمل على اشعال الحروب والتمكين لاتباعهم وعملائهم من الحكام حتى يحققوا لهم سياستهم ويكونوا لهم درعا ووقاءا من كل شر .

ويجتمع اليهود حول هذا الخليط المتنافر من أسفار التوراة

وأحكام التلمود وقواعد البروتوكولات فى نوع من التآلف الفكرى يثير الدهشة والذهول ، الا أن هذا التآلف الفكرى وهو جوهر العقيدة الصهيونية ، لم يبرز فجأة ولم ينم طفرة ، بل سار فى خطى وئيدة مطردة حتى اكتمل فى عقيدة الصهيونية ومبادئها الحادة • ففى بداية الأمــر كان الحنين الى أورشليم هو الذى يلهب خيال اليهود بالخلاص من السبى البابلى • ووجدوا فى المعبد عوضا عن عن الهيكل مكانا للتجمع والتآلف كما رأوا فى الصــلاة غناء عن المذابح والقرابين ، وظل المعبد بعد ذلك مركز التجمع لليهــود ، ويمكن أن يقام المعبد فى أى مكان بل وأقيم فى البيوت حين كان الضغط يشتد بهم ، وغدت هذه السرية التى يمارس اليهود فى ظلها طقوسهم وعباداتهم سمة عليهم بعد ذلك فى اجتماعاتهم ومؤتمراتهم ومن هذه السرية نبعت هيئات ومحافل ومذاهب عديدة تنتشر فى بقاع العالم أجمع وأحيطت بنفس السرية التى أحاط بها اليهــود طقوسهم وعباداتهم مما حمل الناس على نسبتها اليهم ، وفى هــذا الجو من السرية الخالصة عرفت المؤامرة اليهودية طريقها الى العمل، وبلغت المؤامرة اليهودية من دقتها أنها سخرت كثيرا من أعدائها لخدمتها دون أن يعرفوا أنهم مسخرين لخــدمة من يكرهون ، وتتسم المؤامرة اليهودية بالدقة والأناة فالزمن ليس له فى سبيل حبكتها والنتائج التى تعمل لها حساب •

وبرزت المؤامرة اليهــودية فى كثير من الانقلابات والثورات

التاريخية التى تخدم أغراضهم وسياستهم والتاريخ حافل بأخبارها وكمثل لها الانقلاب الذى قامت به جماعة الاتحاد والترقى فى تركيا وعجل بسقوط الدولة العثمانية وانهيارها فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، فقد عاد عليهم سقوطها وتقسيم أملاكها بوعد بلفور والوطن القومى لاسرائيل . وتمتد المؤامرة اليهودية فى الوقت الحاضر الى كثير من البلاد العربية وتقوم على اشاعة الفرقة فى صفوف العرب حتى تواتيها الفرصة لانشاء دولة اسرائيل الكبرى ، ترتدى أحيانا ثوب القومية الزائف وأحيانا غلالة المبادىء المشتراكية المضللة .

وقد علت مكانة المعبد والحاخام عند اليهود حتى طغت على مكانة الهيكل والكاهن منذ أيام السبى البابلى فلما عاد اليهود الى فلسطين من سبى بابل عادوا شيعا لا تدين جميعا لكهان أورشليم بالتبعية والولاء ، منها الصدوقيون الذين يؤيدون سلطان الهيكل والكهان ويأخذون بالتوراة القديمة التى تضم الاسفار الموسوية الخمسة ويرفضون ما عداها من الاقوال والمأثورات التى ضمتها الأسفار التالية .

والفريسيون وكانوا ينكرون على الكهان استئثارهم بالشعائر والطقوس فأقاموها فى البيوت بغير حاجة الى رسامة أو تكريس كهنوتى وجعلوا من كل بيت هيكلا مقدس المراسم ، وكان ذلك نواة المعبد الذى انتشر بتفرق اليهود وتشتتهم ، وأخذوا على الصدوقيين انكارهم للبعث والحياة الروحية لذلك كان انتظارهم للمسيح المخلص غير مقيد بصولة السيادة وصولجان الملك كما يرى

الصدوقيون بل هو الخلاص فى عالم الروح • ويقال أن معلمى السيد المسيح فى صباه كانوا من الفريسيين •

وثمة طائفة ثالثة هى طائفة الآسيين كما عرفوا فى عصر الميلاد ، وكانوا فى بنى اسرائيل كثرة تجمعها صرامة العقيدة واحكام الخطة ، ولكنها تستقل عن الطوائف الأخرى بشعائرها وعباداتها وآرائها وأسرارها ، وأوشكت أن تستقل عن الهيكل فى علاقتها بالدين والحكم ، ولم يكن يربطها بالهيكل الا تقريب القرابين وان كانوا يقربونها من النبات وينكرون ذبح الحيوان • وهم جماعة يغلب عليها النسك والتقشف يعملون بالفلاحة والصناعة ويرون التجارة رجسا لايليق بهم وأكثر منها رجسا الحرب والقتال الا دفاعا عن أنفسهم فحرموا صناعة الأسلحة وحملها وهم يحرمون الرق ولا يقبلون سيادة أو رئاسة ويؤمنون بالبعث والخلاص الروحى على يد المسيح المخلص الذى يأتى ليهديهم الى حياة الصلاح والاستقامة ، والمادة عندهم مصدر شر والمسرة هى مسرة الروح لايرقى اليها الانسان بغير العبادة والرياضة والنسك ، ورائدهم فى تعاليمهم هو النبى عاموس الذى كان يبشر بأن التقرب الى الله بالعدل والرحمة خير من التقرب اليه بالنذور والقرابين •

وطائفة رابعة هى الطائفة السامرية ويقال انهم خليط من بقايا يهود السامرة ومن نزح اليها من الأشوريين ، وقد أنكر عليهم يهود أورشليم بعد عودتهم من السبى البابلى عاداتهم الغريبة فاتهموهم بالوثنية وحرموا عليهم مشاركتهم فى بناء الهيكل الجديد ، فعمدوا

هم بدورهم الى بناء هيكل لهم فى جرزيم ينافس هيكل أورشليم ، وأخذوا يدعون اليه ويحصرون القداسة فيه ، وبقى هيكل جرزيم منافسا خطيرا لهيكل أورشليم قرابة مائتى عام حتى هدمه كبير كهان هيكل أورشليم « حنا هير كانوس » قبل الميلاد بمائة عام، ولكنهم أعادوا بناءه وظل قائما حوالى خمسة قرون بعد الميلاد ، حين ثارت السامرة على الحكم الرومانى فعمد الامبراطور فسباسيان الى هدم مدينتهم وهيكلهم وأقام على أنقاضهما مدينة «نيوبوليس» أو نابلس الحالية . وينكر السامريون الخلاص على يدى ملك من بيت داود ويقولون بالخلاص الروحى حيث يأتى على قدر وميعاد .

وبين هؤلاء وأولئك من تلك الطوائف والنحل اعتزل أناس بأنفسهم لا يتبعون طائفة ولا يدينون بنحلة بل يعبدون الله كما تهديهم عقيدتهم نسكا ورهبانية يتزكون بالتقشف والعبادة ويكثرون من التطهر بالماء ومن هؤلاء المعتزلة يوحنا المعمدان أو أو يوحنا المغتسل .

وأضعف انقسام اليهود الى طوائف ونحل من شأن الهيكل وسلطان الكهان وعلا تبعا لذلك شأن المعبد وان لم يحتل المعبد حتى ذلك الوقت تلك المكانة التى قدر له أن يحتلها فيما بعد ، بعد زوال الهيكل ، حين أصبح المعبد وحده مكان التجمع لليهود فى كل قطر من أقطار العالم التى حلوا بها . ولكن بقى للهيكل مكانته السياسية وبقى للكهان سلطانهم الزمنى وهيبتهم الدينية حتى زاد عدد الكهان على حاجة الطقوس الدينية وخدمة الهيكل فقد حصر

موسى الكهانة فى بيت هارون فلما تكاثر أبناء هارون وفاضوا على حاجة الهيكل قسم العمل بينهم حتى لا يحرم منهم أحد من خدمة الهيكل كما قسمت عليهم النذور والهبات التى حرم منها الكتبة أو فقهاء الدين وهم جماعة من الفريسيين ورد ذكرهم كثيرا على لسان المسيح تفقهوا فى الدين واشتغلوا بتدوين الأسفار ، فلما تقادم الزمن بالكهان غدت كثرة منهم لا تعمل فى الهيكل ولكنها تتمتع بالتكريس الكهنوتى بينما لا يتمتع به أولئك الكتبة المتفقهون فى الدين ، فأقبل اليهود عليهم للفتيا فى أمور دينهم وأهملوا الكهان وغدت المراسم الدينية بمرور الزمن غير مرتبطة بالهيكل ولا بالكهان الوراثيين .

ولما هدم الهيكل الثانى وتشتت اليهود فى كافة أرجاء الأرض لم يعد هناك غير المعبد الذى يقيمونه فى كل مكان يحلون به ، سواء فى السر أو فى العلن ، مكانا للمجتمع والعبادة وغدا الفقيه الدينى أو الحاخام زعيما دينيا وقوميا لليهود بدل الكاهن الأكبر ذى الوراثة والرسامة .

وقد ينقض ذلك ما يقال عن التآلف الفكرى لليهود ، الا أن اليهود مهما اختلفوا ومزقتهم الفرقة لا يختلفون فيما بينهم قبل غيرهم بل يتجمعون ويبدو تآلفهم كأقوى ما يكون ، فاليهودى أينما ارتحل يجد فى المجتمعات اليهودية المنتشرة فى شتى بقاع العالم ردفا وسندا ، وفى ارتحاله لا ينسى أورشليم فهى أم الحواضر عنده كما يقول فيلون فيلسوف الاسكندرية اليهودى .

فالتآلف الفكرى لليهود لم يكن غير بذر عقيم أخصب فى ظل السبى البابلى ورواه الحنين فازدهر ولم يذبل بعد ذلك أبدا . كان بذرا عقيما يوم انقسمت مملكة سليمان على نفسها بعد وفاته وغدا كل قسم من قسميها فى فرقة لايسودها الوفاق ، لايخرج من ثورة داخلية حتى يقع فى حرب أهليـــة ، وكان بذرا عقيما يوم تمردوا على أنبيائهم ويوم هجروا شريعتهم الى الشرائع الوثنيـــة الغالبة حولهم .

فلما عادوا من الأسر وبنوا الهيكل من جديد كان بناء الهيكل مظهرا بارزا لفكرة ائتلفت عليهـــا قلوبهم ولـــكن سرعان ما عاد الانقسام الى صفوفهم حين منعوا يهود السامرة من بنـــائه معهم فأقام أهل السامرة هيكلهم فى جرزيم ، ولـــكن طوائفهم الأخرى بقيت تلوذ بهيكل أورشليم وترى فيه قدس أقداسها وان اتخذت أحيانا من المعبد عوضا عن الهيكل فى ممارسة العبادات والطقوس .

وغدت التوراة قانون الحياة لدى اليهـــود جميعا عنـــدما دعا الكاتب عزرا يهود أورشليم عام ٤٤٥ ق.م الى اجتماع عام ليقرأ عليهم « سفر شريعة موسى » ، وظل سبعة أيام مع اللاويين يقرأها لهم ، فلما فرغوا من قراءتها ، جعل الكهان والزعماء والشعب بينهم موثقا ألا يخرجوا على طاعتها بعد ذلك والى أبد الآبدين ، وبقيت دستور اليهود منذ تلك الأيام النكدة كما يسميها «ولديورانت» حتى اليوم تقيدهم اليها وتربطهم بها خلال تيههم الطويل عبـــر الأجيال والقرون .

وكان ابرام هذا الميثاق الذى دعا اليه عزرا الخطوة التالية فى أهميتها لبناء الكيان اليهودى بعد جمع التوراة وتدوين أسفارها ، فان التاريخ اليهودى يبدو خلوا من كل ما يحفز النزعة القومية الى التميز والظهور ، فلم يكونوا دائما غير شعب صغير تحكمه حصافة الكاهن أحيانا وتقوده مطامع الملك أحايين أخرى ، يتجمع حول الهيكل وينصت الى نبوءة النبى ، ولكنه ما لبث أن غدا شعبا بلا ملك وبلا هيكل ولم تبق له غير التوراة يستلهمها كيانه وأمله فى البقاء ، وغير النبى الذى يلهب وجدانه الدينى والعنصرى ، فلما عاد من الأسر ، عاد شعبا آخر ، فان كثيرا منهم طابت لهم الحياة فى بابل واستهوتهم الحضارة البابلية ولم يعد غير قلة من الخلصاء الذين هفت قلوبهم الى أورشليم ، والفقراء الذين رأوا فى العودة أملا فى حياة جديدة ، ولكنهم ما لبثوا حتى أدركوا أن الأمل فى مملكة داود قد خبا الى الأبد فلم تكن لهم غير أورشليم وما حواليها من أرضها يحكمونها تابعين لامبراطورية فارس ويمنعون من بناء أسوارها حتى أذن امبراطور الفرس بذلك تكريما منه لساقيه اليهودى النبى « نحميا » ولم يعد لهم من أمل الا فى الهيكل والتوراة فالتفوا حولهما وائتلفت عليهما قلوبهم •

وخطا عزرا خطوة أخرى لتوطيد الكيان اليهودى بتكوين المجمع المقدس المعروف «بالسنهدرين» وان أرجعه بعض المؤرخين الى ما قبل ذلك حين أمر موسى أن يكل أمر الشعب الاسرائيلى الى واحد وسبعين رجلا من شيوخهم يشاركونه فى تسيير أمورهم • ويتكون السنهدرين أو المجمع المقدس جريا على سنة موسى

من واحد وسبعين رجلا من الكهان وذوى الرأى والحصافة برئاسة الكاهن الأكبر ، يشرعون لليهود ويقضون بينهم ويسيرون أمورهم ، واجتمعت فيه السلطة الدينية والزمنية وغدا الكاهن الأكبر حاكما دينيا وزمنيا . وفى هذا المجتمع الجديد أصبح المعبد مصلاهم ومدرستهم ومجمعهم ومنذ ذلك الحين علت مكانة المعبد حتى قدر له أن يقوم بالدور الرئيسى فى تآلف اليهود الفكرى . هذا التآلف الذى يدور حول فكرات معينة لا يشذ عنها ولا يتعداها لأنها سرت فى وجدان اليهود مسرى العقيدة الثابتة الصماء منذ وجد اليهود على ظهر الأرض ، وهى السر فى بقائهم واستمرارهم بالرغم من تشتتهم وقلة عددهم ، هذه الفكرات الثابتة الصماء هى أنهم شعب الله المختار الذى اصطفاهم وحدهم لعبادته من دون العالمين ، وان التوراة هى شريعتهم المقدسة قننت لهم أمور دينهم ودنياهم وانهم وعدوا من لدن الرب بأرض الكنعانيين التى أصبحت تعرف بفلسطين منذ الحكم الرومانى ، وان فلسطين ليست أرض ميعادهم فحسب بل تمتد لتشمل كل الهلال الخصيب من « نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات » وليست فلسطين غير مركز التجمع والوثوب . وان هيكلهم وقدس أقداسهم فى أورشليم دون سواها . وفيما عدا هذه الفكرات فانهم لا يتفقون على شىء مما أوقع كثيرا من المؤرخين فى تفسيرات خاطئة أو تناقض فى ابراز الصورة التى يرسمونها لهم ، فابن خلدون يرى أن « وسواس » الحسب والنسب قد بقى فى اليهود دون «العصبية» فضربت عليهم

الذلة والمسكنة وكتب عليهم الجلاء فى الأرض وانفردوا بالاستعباد للكفر آلافا من السنين • وما زال هذا الوسواس مصاحبا لهم فتجدهم يقولون ، هذا هاروني • هذا من نسل يوشع • هذا من عقب كالب • هذا من سبط يهوذا • مع ذهاب العصبية ورسوخ الذل فيهم منذ أحقاب متطاولة (١)

ويقابل العصبية كما يعنيها ابن خلدون القومية والتماسك القومى فى وقتنا هذا فلم يعد لعصبية الأسرة والقبيلة والجماعة ما كان لها فى الزمن الماضى بل غدت العصبية عصبية الأمة والدولة القومية ، وفقد اليهود تماسكهم الاجتماعى والقومى منذ آلاف السنين ضربت عليهم فيها الذلة والمسكنة كما يقول ابن خلدون حقا ولم يعد لهم كيان الأمة وعصبيتها ، ولكن بقى لهم تماسكهم الفكرى وهو سر بقائهم واستمرارهم وصمودهم للفناء • فلولا هذا التماسك أو التآلف الفكرى لذوت العقيدة اليهودية بين غيرها من العقائد الوثنية التى سادت الى جوارها طويلا قبل بعث المسيحية والاسلام فان بعثهما قوى جذورها ، فقد بعثت المسيحية والاسلام مصدقين لشريعة موسى وابراهيم ، ولولا هذا التآلف الفكرى لفنى اليهود فى الشعوب التى حلوا بينها وفيها من ساطهم بعذابه ، ومن بينها الشعوب المسيحية التى نقمت عليهم تعذيبهم المسيح وقتله •

---

(١) مقدمة ابن خلدون الفصل الثالث عشر

فوسواس الحسب وقد بقى فى اليهود دون العصبية كان أحد الفكرات الهامة التى أبقت عليهم بعد أن ائتلفت قلوبهم عليها مالم تكن تستطيعه العصبية فيهم أو فى غيرهم •

وهذا التآلف الفكرى هو الذى حملهم على العزلة فى أماكن خاصة من المدن التى يعيشون فيها وليس صحيحا أن الاضطهاد هو الذى حملهم عليها ، ففى أنحاء العالم الاسلامى حيث عاش اليهود فى سلام وأمن ، اتخذوا لهم أيضا أحياءا خاصة لا يختلطون فيها بغيرهم • وفى هذه العزلة صان اليهود عصبيتهم ولم يفقدوها كما يقول ابن خلدون وان اختفت فى غلالة من السرية والكتمان يسترها استخذاؤهم وقبولهم للذل ، وان بقيت مجردة من القوة التى يرى ابن خلدون أنها سمة العصبية البارزة • فالتآلف الفكرى هو بعض ما يصون العصبية بل لعله أقواها ، وظل هذا التآلف الفكرى يلم اليهود فى نطاقه حتى خلقت منه الصهيونية نزعة قومية حادة ودعوة سياسية منظمة رغم ما يشوبها من تقائض الجمع بين الدين والعنصرية فى الدولة القومية •

ووقع « والتر باجت » الانجليزى الذى عاش فى القرن التاسع عشر فيما وقع فيه ابن خلدون العربى الذى عاش فى القرن الرابع عشر حين أخذ عليهم قصورهم الحربى وان تطورهم الحضارى ظل خلوا من أية نزعة عسكرية تصون الدولة وتحميها ، وغاب عنه أن تنظيم المجتمع الاسرائيلى فى بدايته كان تنظيما عسكريا حين قسم موسى أسباطهم فى برية سيناء الى ما يشبه الكتائب والفرق من

تنظيمات الجيوش المعروفة ، وقادهم يشوع بن نون بهذا التنظيم الى أرض كنعان ، واشتبك بنو اسرائيل فى حروب عديدة مع جيرانهم حتى حطم الأشوريون والبابليون قوتهم العسكرية ، وبعد عودتهم من المنفى كانت عودتهم أشبه بزحف عسكرى منظم من بابل الى فلسطين ، وخاضوا بعدها عدة حروب ضد جيرانهم ومنافسيهم بل وضد الحكم الاغريقى فى سوريا وضد روما حتى أمحت قوتهم ودمرت مدينتهم وخرب هيكلهم وتفرق شملهم على يد الرومان عام ٧٠ م بعد كثير من الثورات التى قاموا بها ضد الحكم الرومانى .

فالمجتمع اليهودى لم يكن ينقصه التنظيم العسكرى ولم تعوزه النزعة الحربية ، فالشريعة الموسوية تحض على الحرب والقتال بل ان «يهوه» الههم قد دعى فى كثير من أسفار التوراة «رب الجنود» وفى ذلك يقول موسى أن « الرب رجل حرب » ويقول عنه داود انه هو الذى يعلم يديه القتال ، بل ان « يهوه » ليبدو فى كثير من الأحيان متعطشا للدماء محبا للفتح والاستعمار « يطرد الحويين والكنعانيين والحيثيين » ولا يقطع مع الأعداء عهدا بل ينال ما يشتهى بحد السيف ويستبقيه بحد السيف ، وهو اله معجب بنفسه اعجاب الجندى بنفسه يتقبل المدح والثناء ويشتهيه كما يقول «ول ديورانت» يتمجد باغراق المصريين فى البحر ، وينتشى برؤية الدماء فيدفع شعبه الى القتل وسفك الدماء وافناء أعدائه جميعا ، وهو اله قاس يفتقد ذنوب الأباء فى الأبناء حتى الجيل الثالث والرابع ، متردد فيما يبرم يندم على ما اتنوى من فتك ببنى اسرائيل حين يراجعه موسى فى

ذلك ، فيه من غرائز السلب والنهب مافى الجندى الأصيل حين يوعز الى بنى اسرائيل أن يسلبوا المصريين « أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثيابا » ويهربوا بها فى خروجهم ، وفيه صفات الجاسوس الماكر حين يطلب من بنى اسرائيل أن يجعلوا على دورهم علامة من دم الكباش المضحاة حتى يميز بينهم وبين المصريين فلا يهلكهم معهم ، وفيه أيضا ختل وخداع حين يتآمر مع يعقوب على خداع صهره لابان ، وهو اله قدح وسباب لا يتورع أن ينعت شعبه بكل قبيحة ويصب عليه كل لعنة ، وتلك جميعا هى صفات اليهود صوروا الرب على شاكلتها واتخذوا منها لأنفسهم بعد ذلك نموذجا ومثالا .

فالنزعة الحربية والتنظيم العسكرى للمجتمع متأصلاين فى اليهود ولكن التنظيم العسكرى لا يكون الا فى مجتمعات موحدة يضمها وطن واحد فلما تفرقوا وتشتت شملهم غدا عسيرا عليهم فى بلاد ينتمون اليها أن يقيموا مثل هذه التنظيمات العسكرية ، فلم يكن فناء دولتهم اذن بسبب قصورهم الحربى ولكنه جاء نتيجة لتفوق أعدائهم عليهم فى العدة والعدد ، وسيبقى هذا التفوق قائما مادام أعداؤهم يفوقونهم فى العدد والعدة بل والشجاعة أيضا فاليهود رغم نزعتهم الحربية التى حضتهم شريعتهم عليها تنقصهم شجاعة المقاتل واصالة الجندى ونبل الفارس فلا يقاتلون الا من وراء ستار ولا ينتصرون الا غدرا .

ولو كان لليهود من مزايا الأمم الحربية ما يفوق مزايا التآلف الفكرى الذى عرف عنهم لكان مصيرهم مصير الأمم التى تميزت

بالنزعة العسكرية واختفت من التاريخ بضعف هذه النزعة العسكرية أو زوالها ، فبقاء أمة من الأمم ليس رهنا بتفوقها العسكري أو تميزها الحضاري وانما هو رهن بالقدرة على التغير والمحافظة في الوقت ذاته ، وكان ثمرة التآلف الفكري لليهود أنه غرس فيهم هذه القدرة ونماها فلم يجمدوا أمام دواعي التطور بل استجابوا اليها وكيفوها وفق عقائدهم ومثلهم الاجتماعية والفكرية فصانوا أنفسهم من الفناء الذي يخترم الأمم التي لا تملك القدرة على التغير والمحافظة في آن واحد .

وقوت العزلة التي فرضها اليهود على أنفسهم في كل بلد يحلون به من هذه القدرة على التغير والمحافظة فهم في عزلتهم يصونون تراثهم ومأثوراتهم وتقاليدهم مما ينمي القدرة على المحافظة ، ولكن العزلة اليهودية كانت بدورها ذات طابع فريد فهي عزلة فيما يتصل بأمورهم الخاصة ، ولكنهم فيما يتصل بالحياة عامة في المجتمع الذي يعيشون فيه يندمجون فيها اندماجا ظاهريا فهم كما يقول فيلون يتفرقون لطلب الرزق في أغنى البلاد من أوربا وآسيا ، وطلب الرزق يتطلب الاستجابة الى قوانين المجتمع الذي يعيشون فيه ومجاراة أهله دون الأخذ بمأثوراته وتقاليده التي يحرصون على البعد عنها حتى وان حملتهم الظروف على التظاهر بها . وهم حين يعزلون أنفسهم عن المجتمع باختيارهم يتغلغلون فيه بحوانيتهم ودورهم التجارية ومصارفهم ومراكز المساومة والسمسرة والصيرفة فهم لا يحترفون غير أيسر المهن وأجزلها ربحا ويحاولون في كل بلد أن

يسيطروا على شئونه التجارية والمالية . وهم بعضهم لبعض رفد وسند ، ينزح اليهودى الى بلد آخر فلايحس وحشة الغربةلانه يجد فى كل بلد مجتمعا يهوديا يلمه ويأويه وهو فى الوقت ذاته لايربطه بالبلد الذى نزح منه رابطة من ولاء أو حب فكل ولائه وحبه لأورشليم حاضرته الكبرى كما يقول فيلون فيلسوف الأسكندرية اليهودى فى القرن الأول للميلاد . وتلك مظاهر التآلف الفكرى لليهود فيما يتصل بحياتهم مع الآخرين .

ولكن التآلف الفكرى لأمة مشتتة لا يمكن أن يكون نواة لانشاء دولة وان كان من الممكن ــ كما برهنت الصهيونية ــ أن يكون نواة لدعوة قومية ترمى الى انشاء دولة ولكنها لا تتخذمن هذا التآلف الفكرى قوة لها بل تعمد الى أساليب السياسةوالتنظيم السياسى أداةلانشاءالدولة ، وهذا ماصنعته الصهيونية.فالصهيونية حركة سياسية تستغل فكرة دينية مبهمة ونزعة عنصريةحادة وآمالا خابية فى وطن لم يكن خالصا لهم فى يوم من الأيام .

فالدولة اليهودية لم تقم فى أى يوم من الأيام الا اذا حسبنا هذا الحكم الأبوى لبنى اسرائيل وامتلاك بعض فلسطين دولة من الدول ، فلم يكن حكام اليهود ــ اذا افترضنا أن لهم حكومة من أى نوع كما يقول ويلز ــ غير قضاة من الكهنة يختارهم كبار الشعب ، ثم عمدوا فى بداية الالف الأولى قبل الميلاد الى اختيار ملك هو شاءول ليقودهم فى الحرب ولكنه هلك تحت وابل من سهام

الفلسطينيين فى معـــركة جبل جلبوع وأخذت دروعه الى معبـــد عشتروت ودق جسمه بالمسامير على أسوار بيت شان .

وليس فى تاريخ اليهود من مقومات الدولة ما يصح أن نقف عنـــده الا حكم داود وابنه وخليفته سليمان ففى حكمهما أشرقت فترة الرخاء الوحيدة التى قدر لبنى اسرائيل أن يعرفوها على مر العصور كلها ، ويرجع الفضل فى هذا الرخاء الى محالفة أبرمها حيرام ملك صور مع داود ومن بعده سليمان ، وكان حيرام يبغى أن يشق طريقا آمنا للتجارة الفينيقية عبر التلال الداخلية التى يسيطر عليها بنو اسرائيل الى خليج العقبة حيث أنشأ سليمان ميناء عصيون جابر . وبرعاية حيرام بنيت أسوار أورشليم وهيكلها وقصرها ، وعادت التجارة على سليمان بأرباح وفيرة وبلغ من اليسار والأبهة مالم يره شعبه من قبل ومن بعـــد حتى سمح فرعون مصر أن يزوجه ابنته ، بيد أنه لا يصح أن يغيب عن أذهاننا التقديرات النسبية للأمور فلم يكن سليمان غير ملك صغير يحكم شعبا صغيرا اذا قيس الى غيره من الشعوب المجاورة كالمصريين والبابليين والأشـــوريين ، وكانت دولته من الهزال وسرعة الزوال بحيث لم تنقض بضعـــة أعوام على وفاته حتى اجتاحها شيشنق أول فراعنة الأسرة الثانية والعشرين ودخل أورشليم واستولى على كنوزها .

ويقف كثير من المؤرخين موقف الريبة من قصة مجد سليمان التى تقصها أسفار الملوك ويقولون أن الكبرياء القومى لليهـــود فى عهود متأخرة هو الذى حملهم على الاضافة اليها وتهويلها ، هذا

عدا أنه أبهظ كاهل الشعب بالسخرة والضرائب كما تقول الأسفار مما عجل بانهيار المملكة وانقسامها الى مملكتين لا يعدوان كونهما ولايتين صغيرتين تعركهما مصر من الجنوب وسوريا وبابل من الشمال والشرق ، يقول عنهما ويلز أن تاريخهما هو تاريخ ملوك من الهمج يحكمون شعبا من الهمج ، لاتخلصان من نكبة الا لتحل بهما نكبة أقسى حتى قضى عليهما واحدة بعد الأخرى تحت سنابك المغيرين •

ولما عادت القلة التى ارتضت العودة من بابل لم تستطع أن تقيم دولة بالمعنى المعروف للدولة ، وخضعوا لنوع من الحكم الأبوى هو حكم العشيرة تحت سيادة فارس أو مصر أو روما ، وكانوا دائما مصدر قلق لجيرانهم وللدول التى تحكمهم حتى سيرت عليهم روما جحافلها فدمرت أورشليم وأضرمت النار فى الهيكل وقتلت ونهبت وبدأ اليهود عهد تيههم الطويل • ولم يعد لليهود غير التوراة وغير المعبد الذى يقيمونه فى كل مكان يحلون به •

فاليهودية دين وليست قومية واليهود طائفة دينية ككل الطوائف الدينية المنتشرة فى العالم والتى تتقسمها أوطان وقوميات مختلفة ، أما الصهيونية فحركة جديدة كل الجدة على اليهود لا تمت الى ماضيهم بصلة من الصلات أو آصرة من الأواصر ، ولكنها حركة تنبع من صميم الفكر اليهودى مما حمل كثيرا من الباحثين على تقصيها فى تاريخ اليهود القديم وارجاعها الى عهودهم السابقة فمنهم من يرجعها الى انهيار مملكة داود والأمل فى عودتها ومنهم من يعود

بها الى السبى البابلى والحنين الى أورشليم أو الى أبعدمن ذلك ، الى وعود الرب لابراهيم أو أقرب من ذلك ، الى ماتركه الاضطهاد فى نفوس اليهود المشتتين من رغبة التجمع فى وطن ما أو فى فلسطين بالذات • ومن هؤلاء الباحثين ـ كالعقاد مفكر العرب الحديث ـ من يرى أنها « حركة سياسية تابعة لقيام الدولة وسقوطها فى بيت داود » وان اليهود حين حملوا الى الأسر «أصبح الحنين الى صهيون رمزا للحنين الى عودة المملكة الغابرة وتحولت الوعود الالهية فى كتبهم تحولا جديدا مع مصالح السياسة ، فانحصرت فى ذرية داود ـ عليه السلام ـ ليخرج منها غير ذى الذرية من اليهود [1]» فالصهيونية فى رأى العقاد حركة سياسية ترجع الى سقوط مملكة داود والسبى البابلى •

والواقع أن الصهيونية حركة سياسية ، ولكنها حركة سياسية جديدة من طراز الحركات المذهبية والسياسية فى العصر الحديث ولا تمت بأية صلة من الصلات.كما قلنا الى ماضى اليهود أوتاريخهم ولا الى قيام مملكة داود أو سقوطها ، ولا الى العودة من الأسر أو التشتت الأخير • هى حركة سياسية تنبع من واقع التطور الفكرى والسياسى للحضارة الحديثة ، ولكنها تستمد أصولها من الفكر اليهودى الذى ظل حيا فى أعقابهم حتى الجيل الحاضر ، والذى يأتلف حول مثل التوراة وما جد من شرائع التلمود كما بينا من قبل•

---

(١) عباس محمود العقاد : الصهيونية العالمية ص ١١

والصهيونية نسبة الى صــهيون وهو حصن أورشليم كان فى حوزة اليبوسيين واستولى عليه داود «وأخذ داود حصن صهيون. هى مدينــة داود .... وأقام داود فى الحصن وســماه مدينــة داود [1] » ، وعمت الكلمة بعد ذلك حتى أصبحت رمزا لملك اسرائيل ونسبة لهم فيقال أبناء صهيون كما يقال أبنــاء اسرائيل ووردت بهذا المعنى فى الأسفار الأخيرة من التوراة . وليس لهــا صفة من صفات القداسة فقد اختار عليها داود « بيت داود » بدلا من حصن صهيون ، وفى أشعياء أن الرب يسميها باسم جديد « من أجل صهيون لا أسكت ومن أجل أورشليم لا أهــدأ حتى يخرج برها كضياء وخلاصها كمصباح يتقد ، فترى الأمم برك ، وكل الملوك مجدك وتسمين باسم جديد يعينه فم الرب [2] » .

واختارتها الحركة الصهيونية علماً عليها ومسمى لها لأنها أيسر الأسماء شيوعا على الألسن من كل الأسماء الأخرى التى تواترت فى تاريخ بنى اسرائيل ، ولأنها فى الوقت ذاته ترمز الى كل تراث اسرائيل من العقائد الدينية والأفكار السياسية الغــابرة ، التى عبرنا عنها بالفكر اليهودى .

ولكن الصهيونية بالرغم من أنهــا حركة ســياسية جديدة كل الجدة الا أنها تستمد أصولها كما قلنا من الفكر اليهودى المتجدد كما تستمد حيويتها من ائتلاف هذا الفكر حول عقائد دينية ثابتة

---

(١) صموئيل الثانى ٥ : ٧ — ١٠
(٢) أشعياء ٦٢ : ١

لا تتغير ولكنها مبهمة يحوطها الغموض ، والحركة الصهيونية هى التىأخرجتها منحيز الابهاموالغموض كما يقول الكاتبالصهيونى « جوزيف هيلر » الى حيزالمبادىء الواضحة والأغراض المحددة ، فغدت بذلك حركة سياسية واضحة المعالم تقوم كغيرها من الحركات السياسية أو المذهبية على أيدلوجية ثابتة ، هى أنالبهود أمة كغيرهم من الأمم ولكل أمة وطن ماعداهم ، وبسبب هذا يعانون ما يعانونه من اضطهاد فلو كان لهم وطن يلوذون به وينتمون اليه لما وقع عليهم اضطهاد ولما أحسوا بالغربة فى كل مكان يحلون به .

وليس للفكر اليهودي القديم أثر فى هذا الاتجاه القومىالجديد بل هو نتيجة للنزعة القومية الحادة التى عمت أوربا وألهبتهابفيض من العواطف الوطنية فى القرن التاسع عشر ، ففى ذلك الوقت سارت دعوة الاخاء والمساواة جنبا الى جنب مع الدعوة الى الحرية ، حرية المواطن فى وطنه وحرية الوطن من أى حكم أو سيطرة خارجية . وأفاد اليهود منهما معا فتمتعوا بالمساواة مع غيرهم من المواطنين ومن ثم تطلعوا الى وطن يجمعهم من غربة وشتات . الا أن فكرة الوطن القومى لليهود جاءت متأخرة بعض الشىء وأثارت كثيرا من الجدل بين اليهود أنفسهم قبل أن يستقروا على اختيار فلسطين وطنا قوميا .

واتجه اليهود فى البداية الى الافادة من ذلك وقام « موسى مندلسون » فى ألمانيا يدعو قومه الى الخروج من عزلتهم والاندماج

مع جيرانهم من المسيحيين والأخذ بعاداتهم وثقافتهم وسرعان ما امتدت دعوته الى بقاع أخرى من أوربا ، وبدت حركات شبيهة تدور جميعا حول ضرورة خروج اليهود من عزلتهم التقليدية ، وظهرت تفسيرات عديدة لأرض الميعاد ودعا « ازهام جيجر » و « صموئيل هولديم » الى العدول عن فكرة المسيح المنتظر من بيت داود لخلاص بني اسرائيل والعودة بهم الى أورشليم وحذف ما يشير الى هذه العقيدة فى التراتيل والصلوات ، وكتب « موسى هس [1] » كتابا بعنوان « روما وأورشليم » يقول فيه أن أورشليم لليهودية مركز ديني وقومى وحمل فيه على الحاخامات الذين يضحون بفكرة القومية على مذبح الفكرة الدينية الخالصة وانتهى فيه الى أن فلسطين هى الحل الوحيد للمشكلة اليهودية .

وكان هذا قمينا بتخفيف حدة العداء لليهود وخاصة بعد أن فترت النعرة الدينية ولم يعد لها من الحدة ما كان لها فى العصور الوسطى ، الا أن الاندفاع نحو فكرة الوطن القومى وما يصحبها من شك فى ولائهم للأوطان التى ينتسبون اليها أبقى جذوة الشك فى نواياهم حية .

والدعوة الى الوطن القومى كالصهيونية دعوة جديدة ولكنها متأخرة نسبيا عن الدعوة الى الخروج من العزلة ومتقدمة على الحركة الصهيونية وان كنا نعتبرها بحق أساس الحركة الصهيونية .

Moses Hess : Rome and Jerusalem (1862) (١)

وظهرت دعوة الوطن القومي في البداية غامضة مبهمة وثار حولها كثير من الجدل بين اليهود فمنهم من ارتضاه في فلسطين أو في أي مكان آخر ، ومنهم من عارضها أصلا مع الاعتراف بأورشليم مركزا روحيا لليهود ومنهم من رضى بحياته في ظل المساواة الجديدةخوفا من أن يفقد اليهود ما نالوا من امتيازات لم تكن لهم قبل أن ينالوا حق المساواة مع غيرهم من المواطنين .

الا أن دعوة الوطن القومي ما كانت لتخفت في وقت كانت الثورات القومية تلهب كل أوربا ولاسيما الأقطار التى تتركز فيها أغلبية اليهود وانتهى الجدل بينهم الى الاتفاق على ضرورةالوطن القومي سواء في فلسطين أو في غير فلسطين . وبدت صعوبة تحقيق الفكرة في فلسطين حين عارضتها الدولة العثمانية منذ البداية وفي كافة محاولاتها منذ حاول موسى منتفيورى انشاء مستعمرات زراعية لليهود في فلسطين ، فراودتهم فكرة انشاء الوطن القومي في أوغندا أو الولايات المتحدة الامريكية أو الأرجنتين أو أية بقعة ترتضيها الدول المناصرة لهم حتى أن تيودور هرزل الذى يعتبر بحق رائد الصهيونية فكر في اختيار مكان آخر غير فلسطين واختار الارجنتين .

وفي مؤتمر بال عام ١٨٩٧ ، وهو أول مؤتمر يجمع ممثلي اليهود في العالم منذ ثمانية عشر قرنا ، وضعت أسس الحركة الصهيونية ، وأصبح صهيونيا كل من يعتنق المبادىء التى وضعها مؤتمر بال ويقوم بدفع اشتراك المؤتمر السنوى وهو ما يوازى خمسة قروش .

وتتلخص مبادىء مؤتمر بال فى عبارة واحدة هى انشاء دولة يهودية فى فلسطين ، وقد انتهت مداولات المؤتمر الذى ظل منعقدا مدة ثلاثة أيام بنشيد الأمل الذى أصبح فيمابعد النشيد الوطنى اليهودى .

وهكذا تبلورت فكرة الدولة اليهودية وانتقل اليهود من الآمال الدينية المبهمة الى حقائق السياسة المجردة وان استمدوا من تراثهم الدينى القديم كل ما يلهب شعورهم القومى من التذكير بأرض الميعاد ووعود الرب ومملكة داود مما ائتلفت عليه قلوبهم من قبل ، ولم يخب من وجدانهم أبدا طوال حياتهم العسرة النكدة.

ooooOOooo

الفصل الثامن

يهود اليوم وعبريو الأمس

قلنا أن الصهيونية حركة سياسية جديدة تستمد فلسفتها من تاريخ اليهود والشرائع اليهودية ، وتستمد واقعها من تطور الحركة القومية فى القرن التاسع عشر ، فهى كعقيدة حركة تبدو قديمة وهى كمذهب سياسى جديدة كل الجدة .

وكان هذا سبب البلبلة الفكرية بين دعاة الصهيونية فى بداية نشأتها وأول قيامها ، فانقسم دعاتها على أنفسهم ففريق غلبت عليه النزعة القومية السائدة فلم يربط بين الوطن القومى وبين فلسطين وارتضاه فى أى مكان يسعهم فى الأرض فى شرق أفريقيا أو استراليا الجنوبية أو احدى ولايات أمريكا الشمالية ، وكان هرزل رائد الصهيونية ومنظمها يرى أن الأرجنتين هى أحسن وطن لليهود تثمر فيه جهودهم وتنمو فى رحابه العذراء قدراتهم ، وفريق رأى أن فلسطين هى أرض الميعاد منها خرجوا واليها المآب ، فهى وطنهم الروحى والقومى لا يبغون بها بديلا ولا يرضون عنها متحولا .

الا أن اليهود لم ينسوا فلسطين قط وكان كل مشروع تنز به

رءوسهم ينتهى فى غايتـه الى فلسطين ممها تعـددت الوسـائل والأساليب وكثرت محاولاتهم لتحقيق تلك الغاية منذ قام « دافيد روبينى » أحد زعماء اليهـود فى القرن السادس عشر يدعو بنى قومه الى غزو فلسطين وانتزاعها قهرا بتأييد أقطابهم فى أوربا ظنـا منه أن تأييدهم كفيل بتذليل كل الصعاب أمامه ، ولم يكن مشروع « دافيـد روبينى » غير شطحة خيال عارم ولدت ميتة ، ثم كان مشروع « موسى منتفيورى » ويقوم على شراء الأراضى وانشاء المستعمرات الزراعية لليهود فى فلسطين ، وقد حاول أن ينـال اعترافا بالوطن القومى لليهـوذ فى فلسطـين وفاوض السلطان العثمانى فى ذلك كما فاوض محمـد على الا أن جهـوده باءت بالفشل ولم ينل غير اعتراف من السلطان يخول لليهود حق حيازة الأرض فى فلسطين فأنشأ بضع مستعمرات زراعية فى القدس ويافا وصفد وطبرية تمولها تبرعات ضئيلة جاد بها بعض ثراة اليهود .

وكان لحركة موسى منتفيورى أثرها فى تشجيع الهجرة اليهودية الى فلسطين فأنشئت بأمـوال بعض المتحمسـين فى وسط أوربا وشرقها مدرسة زراعية فى فلسطين تؤهل اليهود للحيـاة الزراعية التى تنتظرهم فى أرض الميعاد ، ولكن خريجيها ما لبثوا أن اجتذبتهم البلاد الأمريكية الرحبة فنزحوا اليها كما نزح بعضهم الآخر الى مصر ، كما قامت هيئات وجمعيات أخرى بمثـل ماقام به موسى منتفيورى أجدرها بالذكر « جمعية أحباب صهيون » التى أنشأت أول مستعمرة لها بالقرب من يافا .

وقد اتخذت هذه الجهود طابعا عمليا لم يخل قط من التيارات

الفكرية العاصفة التى كانت تلهب اليهود وتذكرهم بأرض الميعاد فموسى هس فى كتابه «روما وأورشليم» ، وليوبينسكر فى كراسته « التى نشرها بعنوان التحرر الذاتى[1] » وجورج اليوت فى قصتها « دانييل ديروندا [2] » ودزرائيلى اليهودى المنبت صاحب صفقة قناة السويس فى روايته « دافيد أكروا » ، وبيريز سمولينسكين فى صحيفته هاأشكهار [3] أو الفجر التى كان يصدرها فى فينا كانوا جميعا فى كل ماكتبوه يلهبون حنين اليهود نحو أرض الميعاد ويحاربون حربا عوانا فى سبيل الابقاء على العنصرية اليهودية والتآلف الفكرى لليهود ويرفضون فكرة الاندماج فى العناصر الأخرى مع أن أحد هؤلاء الكتاب وهو بنيامين دزرائيلى الذى وصل الى رئاسة الوزارة البريطانية اعتنق أبوه اسحق دزرائيلى المسيحية وعمد فى ولادته مسيحيا ولكنه لم ينس أبدا أصله اليهودى بل كان يهوديا أكثر من اليهود .

ومما يجافى المنطق ازاء هذا التيار الفكرى العاصف والمحاولات الملحة لاستعمار فلسطين أن يفكر اليهود فى وطن آخر غير فلسطين ، ولكن حركة التنوير التى قادها مندلسون فى ألمانيا ويأس بعض زعماء اليهود من امتلاك فلسطين قد جعلهم يفكرون فى وطن آخر غيرها ، وكان هرزل نفسه من أصحاب هذا الاتجاه فلم يكن يعنيه

---

(١) Leo Pinsker (1921-1891) : Auto-Emanicipation.

(٢) George Eliot : Daniel Deronda (1876)

(٣) Perez Smolenskin (1842-1885) : Ha-shachar.

الا أن يكون لليهود دولة تحميهم من الضيم والاضطهاد ما داموا لا يستطيعون وفاقا مع غيرهم ، فقد كان يعتقد أن اليهودى مهما ارتحل فانه يحمل فى كيانه النزعة التى تؤلب الغير عليه ، وان اليهودى اذا ترك فى سلام مدى جيلين لكان من المحتمل أن يندمج فى البيئة التى يعيش فيها ، ولكن نزعته المثيرة تجلب عليه العداوة والبغضاء ، فالمشكلة اليهودية كما يراها ليست مشكلة دينية أو اجتماعية ولكنها مشكلة عنصرية فاو كانت لهم دولة يلوذون بها لجنبتهم العيش فى بيئات تجفوهم ولا يستطيعون هم الاندماج فيها .

وناقش هرزل فى كتابه « الدولة اليهودية » كل ذلك وطالب ملحا دول العالم المتحضر بحل المشكلة اليهودية وذلك بمنح اليهود رقعة من الأرض المعمورة تكون لهم السيادة عليها وتكفى غلتها مطالب عيشتهم ، ولم يعين هذه الأرض وانما ترك أمر تعيينها للرأى العام اليهودى وكان يميل هو نفسه لاختيار الأرجنتين .

واجتمع ممثلوا اليهود فى بال عام ١٨٩٧ فى مؤتمر عام لأول مرة وظهر أن الاتجاه العام لا يبغى بفلسطين بديلا ، الا أن هرزل كان يؤمن بدولة يهودية علمانية أكثر مما يؤمن بدولة تستمد أصولها ومقوماتها من نبوءة دينية ، ولكنه نزل على إجماع المؤتمر واستجاب له ووضع كل جهوده لتحقيق ذلك فاتصل بكافة الأوساط والدول التى يمكن أن تعينه على ذلك ، ولما لم يجد أملا قريبا يدنو به من غاية اليهود فى فلسطين بعد أن انتهت مفاوضاته مع السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٢ بالفشل ، اتجه الى انجلترا

واقترح أن تخصهم بوطن فى سيناء أو فى قبرص ولعله كان يرمى الى تحقيق غرضه الأصلى بقيام دولة يهودية فى أى مكان ولا يغضب اليهود فى الوقت ذاته حين يرون أنفسهم قريبين من أرض الميعاد . ولم يجد هذا المطلب هوى فى نفوس الانجليز واقترح تشمبرلن وزير المستعمرات أن يقطع اليهود مستعمرة فى شرق أفريقيا ، ولم يجد الاقتراح هوى فى نفس هرزل ، الا أنه بعد مذبحة اليهود فى مدينة كيشينف الروسية قبل هذا العرض ، وثار به اليهود لذلك فى المؤتمر الصهيونى السادس الذى عقد عام ١٩٠٣ وهو آخر مؤتمر حضره هرزل قبل وفاته فى العام التالى ، وأعلن هرزل أنه لن يرضى بفلسطين بديلا ، ولكن القرار النهائى برفض هذا العرض لم يصدر الا فى المؤتمر الصهيونى الذى عقد فى بال عام ١٩٠٥ أى بعد ذلك بعامين ، وصدر القرار مشفوعا بشكر الحكومة البريطانية وأن اليهود يحمدون لها كل مسعى تقوم به فى سبيل الوطن القومى فى فلسطين أو ما يجاورها من أراض .

وهكذا غلب تراث اليهود الزمنى وتآلفهم الفكرى فالتفوا جميعا حول الأمل فى وطن قومى فى فلسطين ونبذوا كل أرض عداها وتحولت العنصرية اليهودية كما كانت طوال تاريخها الى حركة قومية جارفة تلفح اليهود بنيران التعصب والكراهية والعداء لكل من يقف فى سبيلهم لتحقيق أمل العودة الى فلسطين ولفعت هذه الكراهية كثيرا من الأفراد والشعوب والدول وكان لها ضحاياها بين هؤلاء جميعا فحين يئسوا من استجابة الدولة العثمانية

لط لبهم فى فلسطين تسللوا تسللا خفيا الى حركة الاتحاد والترقى التى انتهت بخلع السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩ وحملوها فى التيار الذى انتهى بتحطيم الجامعة الاسلامية والقضاء على الدولة العثمانية وفرض الانتداب الأوربى على البلاد العربية وتنفيذ وعد بلفور فى أعقاب الحرب العالمية الأولى. ومما يذكر أن حاييم ناحوم أفندى حاخام مصر والدولة العثمانية كان عضوا فى جماعة الاتحاد والترقى . ولما أعلنت عليهم ألمانيا حرب العنصرية تألبوا عليها فى كافة أرجاء الأرض وجعلوا من كراهية اليهودية كراهية للسامية بأسرها حتى غدا نعت السامية فى كثير من الأذهان نعتا لليهودية ، ولم تسلم ألمانيا بعد أن انتهت الحرب العالمية الثانية باندحارها ، من انتقام اليهود ، بل نزح اليهود فى أعداد غفيرة الى ألمانيا فى تعال وكبرياء وصلف حتى يشعروا الألمان بالذل والمهانة .

وتحمل الصهيونية اليوم على العرب وتصورهم شعبا بدائيا متأخرا وتتسلل بمؤامراتها وخبثها الى قلب العالم العربى للقضاء على كل حكم وطنى وكل بادرة للوحدة العربية والتضامن العربى.

ولم يشذ على اجماع اليهود فى تأييد الحركة الصهيونية غير قلة من الثراة خافوا على مصالحهم مما يمكن أن ينسب اليهم من ازدواج الولاء واحتمال بعث العداء التقليدى لليهود ، ولكن النفوذ اليهودى كان قد استشرى فى كثير من دول أوربا وبخاصة فى انجلترا بعد أن تمتعوا بحق المساواة مع غيرهم من المواطنين ، وما لبثت تلك القلة التى كانت تعطف على الحركة الصهيونية سرا أن جاهرت بتأييدها للصهيونية بعد اصدار وعد بلفور فى فبراير ١٩١٧ .

وفى فلسطين خشى يهودها أن يجر النشاط الصهيونى عليهم غضب العرب والدولة العثمانية كما خافوا على مصالحهم من تدخل السياسة الصهيونية وما يحتمل أن يجره هذا التدخل من حد لحرية التعامل مع جيرانهم العرب مما يعود عليهم بالخسارة والبوار، ولكن هؤلاء ما لبثوا أن غدوا بدورهم أشد أنصار الصهيونية بعد صدور وعد بلفور فاستقبلوا اللنبى على أبواب بيت المقدس حين طرقتها جيوشه فى ٨ ديسمبر ١٩١٧ بأكاليل الغار وانضووا تحت لوائه يطاردون الأتراك حتى قيل كما تذكر المصادر الصهيونية أن الذين اشتركوا فى مطاردة العثمانيين تحت امرة اللنبى كانوا ألفا من المتطوعين عدا أربعة آلاف متطوع من يهود البلاد الأخرى حاربوا فى ميادين القتال المختلفة وهم يحملون شارة داود .

وغدت الصهيونية بعد الانتصارات المتوالية التى أحرزتها ، عقيدة اليهود فى كل أرجاء الأرض لا يشذ عنها ولا يخرج عليها يهودى واحد الا من حيث العنف والاعتدال فى تنفيذ سياستها ، وكل هؤلاء اليهود الذين يقفون أحيانا موقف العطف على العرب لا يبغون من وراء ما يبدونه من عطف الا تخفيف حدة العداء نحو اليهود فى كثير من البلاد العربية التى ما زالت تضم جاليات يهودية كبيرة ، وهم يفرقون لهذا بين الصهيونية واليهودية ويحملون غير مؤمنين على الصهيونية ولكنهم لا ينبذون اطلاقا فكرة العودة الى فلسطين وقيام الدولة اليهودية وكل ما ينشدونه من عطف على

العرب أن يرضى العرب بقيام اسرائيل ويحل الوفاق محل الخصومة بين أبناء العمومة كما يقولون .

ولعلنا ندرك بعد هذا العرض القصير كيف قامت الصهيونية كما قلنا على فلسفة تستمد أصولها من تاريخ اليهود وشريعتهم الدينية وتستمد واقعها من معالم الحركة القومية فى القرن التاسع عشر ، فجمعت بين نقيضين لا يمكن الجمع بينهما .

فالقومية لا تقوم على العنصرية ولا تقوم على حق دينى ولا تقوم الا فى ظل وطن تنتمى اليه الجماعة انتماءا واقعيا بمعنى أنها تعيش فعلا وتزاول نشاطها الاجتماعى والاقتصادى والانسانى فوق أرضه ، وتشعر حياله بأنه ملك خالص لها لا يشاركها فيه غيرها .

والقومية الصهيونية أو الاسرائيلية أو اليهودية مهما تعددت أسماؤها ، غير هذا كله ، فهى تقوم على العنصر أو بمعنى أصح السلالة فكل يهودى كما يقولون هو من نسل اسرائيل أو يعقوب ولا نعرف أمة من الأمم تنتمى من حيث السلالة الى رجل واحد ولا نعرف قومية من القوميات تتكون من عنصر انسانى واحد ، فمن المحتمل أن تنتمى الى جنس من الأجناس المعروفة : القوقازى والمغولى والحامى ـ فى اصطلاح علماء الأجناس ـ لغلبة الدماء القوقازية أو المغولية أو الحامية فيها ، أما العناصر والسلالات فقد اختلطت فيها الدماء على مر العصور اختلاطا كبيرا وان احتفظت بسمات جنسها الأصيلة .

وينتمى اليهود كما ينتمى العرب الى السامية وهى أحد فروع

الجنس القوقازى الذى تنتمى اليه الشعوب الهندأوربية أو الآرية أيضا فيما يقولون ولم تخل دماء العرب أو اليهود من الهجنة بل أن الجنس القوقازى هو أكثر الأجناس هجنة دماء يفوق فى ذلك الجنسين المغولى والحامى .

فانتماء اليهود الى اسرائيل أو يعقوب خرافة الا اذا كان الانتماء الى دين اسرائيل ، وثمة فارق كبير بين الانتماء الى الذرية والانتماء الى العقيدة . فالانتماء الى العقيدة لا يعنى اطلاقا أن معتنقيها من سلالة واحدة أما الانتماء الى الذرية فانه يعنى أن كل يهودى هو من نسل اسرائيل وليس ثمة حق لغير نسله فى اعتناق الديانة اليهودية .

ولقد كانت بعثة الأنبياء قبل عيسى ومحمد كل الى قومه ، ولم يكن هذا ليعنى أن الهداية كانت قاصرة على هؤلاء القوم وحدهم فان « دينه » الابنة الوحيدة ليعقوب بين أولاده الاثنى عشر الذين تفرعت منهم أسباط اسرائيل ، حين اغتصبها ثم تعلق بها شكيم ابن حمور الحوى فخطبها الى نفسه ، شرط عليه أخوتها أن يختتن هو وقومه كما يختتنون « فقالوا لهما لا نستطيع أن نفعل هذا الأمر أن نعطى أختنا لرجل أغلف ، لأنه عار لنا . غير أننا بهذا نواتيكم . ان صرتم مثلنا بختنكم كل ذكر نعطيكم بناتنا ونأخذ لنا بناتكم ونسكن معكم ونصير شعبا واحدا . وان لم تسمعوا لنا أن تختتنوا نأخذ ابنتنا ونمضى [1] »

---

(١) تكوين ٣٤ : ١٤ ــ ١٧

فشرط الختان كان هو كل ما طلبه بنو يعقوب من شكيم ابن حمور الحوى وقومه ليكون منهم وكان الختان والايمان بالرب دون الأصنام هما كل قواعد ديانة ابراهيم قبل الشريعة الموسوية ، ومغزى هذه القصة أن دين ابراهيم لم يكن قاصرا على قومه وانما كان متاحا لكل من يعتنقه من غير قومه • ولو لم يغدر بنو يعقوب ببنى حمور الحوى لأصهروا اليهم ودخلوا فى ملتهم ، فان شكيم كان قد دخل بدينه قبل أن يخطبها مما أغضب أخوتها « وأتى بنو يعقوب من الحقل حين سمعوا وغضب الرجال واغتاظوا جدا لأنه صنع قباحة فى اسرائيل بمضاجعة ابنة يعقوب • وهكذا لا يصنع (١) » • وغضب يعقوب حين سمع بغدر بنيه ببنى حمور الحوى حين قتلوهم وخرجوا بأختهم دينة من بيت شكيم بعد قتله •

وحين جاءت ملكة سبأ الى سليمان « لتمتحنه بمسائل » وأعجبت بحكمته أعلنت عن ايمانها بربه « ليكن مباركا الرب الهك الذى سر بك وجعلك على كرسى اسرائيل (٢) » • « وصدها ما كانت تعبد من دون الله انها كانت من قوم كافرين • قيل لها ادخلى فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال انه صرح ممرد من قوارير ، قالت رب انى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين (٣) » •

---

(١) تكوين ٣٤ : ٧
(٢) الملوك الاول ١٠ : ١ ــ ٩
(٣) سورة النمل : آية ٤٣ ــ ٤٤

لغيره من الأديان المختلفة التى طوت عقائدها كثيراً من الأجناس والسلالات والعناصر .

ويزعم اليهود أن دينهم قاصر عليهم وحدهم لم يبشروا به ولم يحاولوا نشره بين الشعوب الأخرى ، وهو زعم ينفيه هذا الانتشار الواسع للديانة اليهودية بين شعوب مختلفة وفى بقاع شتى . ولكن اليهود بهذا الزعم يحاولون عبثا اثبات أن اليهود يمثلون سلالة نقية تنتمى الى اسرائيل أب الأسباط ، صان نقاءها أنهم كما يقولون لم يصهروا الى غيرهم ولم يصهر غيرهم اليهم ، ولم تكن لهم علاقات جنسية مع غيرهم من الشعوب الأخرى ، وكلنا يعلم ما تعرض له بنو اسرائيل من حروب كان التسرى واستباحة الحرمات بعض معالمها ، بل ما زلنا نرى الى اليوم أن الجيوش الغريبة تترك ما يدل عليها من سمات جنسية فى الشعوب التى تقيم بينها سواء بالزواج الشرعى أو غيره ، ولقد تركت القوات الزنجية التى حاربت فى أوربا الى جانب الحلفاء فى الحربين الأخيرتين ما ينم عنها فى كثير من أطفال السفاح . بل أن الاعداد الغفيرة التى بيعت من اليهود فى أسواق الرقيق فى العهدين اليونانى والرومانى قد اختلطت دون شك بسادتها ومستعبديها . وفى أسفار العهد القديم ما يشير الى تحلل اليهود من فريضة تحريم الزواج من غيرهم فقد تزوج سليمان من مصرية كما تزوج بعدد كثير من النساء الغريبات وتزوج موسى من صفورة ابنة يثرون كاهن مدين ويوسف من مصرية هى اسنات ابنة كاهن أون وأنجب منها ولديه منسى وأفرايم وعلى غرارهم كان

كثير من بنى اسرائيل يتزوجون من غريبات ولاريب أن كثيرات الاسرائيليات قد سلكن مسلك رجالهن فتزوجن من أغراب ، وحين عاهد عزرا اليهود على ألا يتزوجوا من غريبات خرج كثيرون على العهد وكان من بينهم حفيد الكاهن الأكبر الذى تزوج من سامرية . فالزواج المختلط كان شائعا فى بنى اسرائيل وظل شائعا بين اليهود طوال تاريخهم مما ينفى عنهم نقاء السلالة ويثبت خرافة الشعب المختار ، الموعود بالحكم والسيادة على العالم والعودة الى أورشليم .

ويرى « ربلى » [1] فى كتابه « أجناس أوربا » أن اليهود فى أوربا قد امتصوا كثيرا من الدماء المسيحية عن طريق كثير من الصلات الجنسية غير المشروعة فقد كانت القوانين فى العصور الوسطى تمنع وجود أنثى مسيحية فى بيت يهودى للخدمة أو لغيرها من الشئون حتى لا يقع اتصال جنسى بين المسيحيات واليهود ما دامت الكنيسة تحرم الزواج بينهما ، ولكن القانون لم يحل اطلاقا بين وقوع المعاشرة بين اليهود والمسيحيات أو بين المسيحيين واليهوديات مما أدى الى امتزاج الدماء ، ثم أن القانون كان لحماية الحرائر ، ولم يكن للاماء من قانون يحميهن . وينتهى ربلى الى القول بأن تسعة أعشار يهود العالم لا يمتون الى اليهود الأولين بأى شبه ، وان القول بنقاء الدماء اليهودية حديث خرافة، ويستشهد

---

(1) W.Z. Ripley : Races of Europe P. 392

فاليهودية لم تكن دين بنى اسرائيل وحدهم بل دين كل من تستهويه ويعتنقها ، ولقد عمد اليهود فى فترة من فترات تاريخهم الى التبشير بدينهم بين غيرهم وكان ذلك حين طغت الثقافة الهيلينية وخشى اليهود أن تغمرهم بفيضها الجارف فأخذوا يبشرون باليهودية لاعلاء شأنها أمام طوفان الهيلينية ويقال أن تشتيت اليهود قد عمل على انتشارها ، ولا ريب أن اليهود الذين بيعوا فى أسواق الرقيق فى العهدين اليونانى والرومانى قد حملوا معهم تعاليم دينهم ، ولعلها استهوت بعض سادتهم فاعتنقوها .

واذا تتبعنا انتشار الديانة اليهودية نرى أن معتنقيها يختلفون اختلافا بينا فى السحنة والملامح والصفات البدنية مما يدل على أنهم ينتمون الى سلالات وعناصر متفرقة فيهود اليمن أقرب شبها الى أهل اليمن منهم الى اليهود الآخرين ، وكذلك يهود أسبانيا وشمال أفريقيا واليهود الألمان . والمعروف أن شعبا يهوديا عاش فى الحوض الشمالى لنهر الرين قبل ميلاد المسيح بقرنين أو ثلاثة [1] ، ومنه تفرعت مجموعات أخرى فى بولندا وفى روسيا الغربية ويعرف يهود هذه السلالة بالأشكنازم ويتكلمون اليدش لهجة أبناء الاقليم الشمالى الغربى من ألمانيا ، ويكتبها اليهود بالحروف العبرية وتختلف بعض الاختلاف عن اللهجة الألمانية الحديثة .

ودلالة هذا كله أن اليهودية لا تعنى شعبا أو سلالة بل تعنى

---

(١) دكتور محمد عوض محمد : المسألة الصهيونية فى نظر العلم ص ١٥

ربلى بقول « رينان » من أن اليهودية لا تعنى جنسا معينا وليس لها دلالة انثربولوجية لا فى أوربا ولا فى حوض الدانوب على الاقل ، ويشير كذلك الى ماقاله «لمبروزو» من أن اليهود أدنى الى الجنس الآرى منهم الى الجنس السامى فى الوقت الحاضر .

فاليهودية دين وليست جنسا ، اعتنقها على مر العصور أشتات من البشر يتباينون فى اللون والسحنة والملامح وينتمون الى أجناس مختلفة وشعوب عديدة ، ومن عبث القول أن يصدق عليهم نقاء السلالة وسلامة العنصر .

ولقد قرت هذه الخرافة ، خرافة الشعب المختار والسلالة النقية والانتماء الى أسباط اسرائيل فى أذهان كثير من اليهود المؤمنين فسيروا بعوثهم فى العصور الوسطى وجاب رحالتهم بقاع الأرض بحثا عن الأسباط العشرة المفقودة ، وهى القبائل التى كانت تعمر مملكة اسرائيل قبل أن يبددها سرجون الثانى ملك أشور ، وظن بعض هؤلاء الرحالة أن يهوذ الفلاشا فى الحبشة هم أحد هذه القبائل المفقودة .

الا أن عالما من علماء اليهود هو « فردريك هرس [1] » فى كتابه « الجنس والحضارة » يرى أنه من العبث التفريق بين اليهود والجنس الآرى ، فان القرابة بين الاثنين لا تحتمل الشك ، فعلى مر العصور امتص اليهود كثيرا من الدماء الغريبة واعتنق اليهودية كثير من الأجانب يونان ورومان فى القرنين الأول والثانى قبل الميلاد وغيرهما من السلاف والألمان فى العصور الوسطى بالرغم من كل

(١) Friedrich Herz : Race and Civilisation : P. 313

العقبات التى كانت تحول دون ذلك فاليهود السلاف واليهو الألمان لا يمتون الى يهود فلسطين بصلة أو شبه •

فمن العبث الادعاء بأن عبريى الأمس هم يهود اليوم فاذا سلمنا جدلا بأن الوعد الالهى لذرية ابراهيم بوراثة أرض الميعاد قائم كما يقول اليهود ، فان اليهود من ذرية ابراهيم لم يعد لهم وجود بعد أن تمثلتهم شعوب عـديدة وهضمتهم بيئات مختلفة وسرت الى دمائهم دماء غريبة تفوق ما يحملون من دماء أجدادهم ان كان ثمة دماء باقية فى عروقهم من دماء العبريين القدامى •

ومن العبث ادعاء وطن بحكم الارث لسلالة لم يعد لها وجود الا اذا سلمنا بأن الأرث للعنصر والسلالة وليس للبركة والرسالة فاذا كان الأرث للبركة بركة ابراهيم فقد حلت بركة ابراهيم فى كل من حمل رسالته من الأنبياء وآخرهم عيسى ومحمدواذا كان الأرث للرسالة فقد آمن برسالة ابراهيم كل مسيحى وكل مسلم مماينتفى معه كل حق لليهود من غير أبناء فلسطين فى ادعاء فلسطين وطنا ، وحق يهود فلسطين فيها هو حق قائم على التوطن والانتمـاء الى البلاد شأنهم فى ذلك شأن من يقيم فيها من المسيحيين والمسلمين• وقد عاش يهود فلسطين الى جوار العرب من المسيحيين والمسلمين عيشة أمن وسلام طوال تاريخهم لم يرع فلسطين خلال هذا التاريخ ما يروعها اليوم على يد الصهيونية الغاشمة •